الموقف الأدبي



263



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير : د . غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء اصحابها

263

العددان 4 نيسان و 5 آيار 1995 السنة 41

فهرست العدد

أدب وفـــــن

● لوحتا الغلافين للفنان علي فنجان

من المحرر

في العدد الماضي ودّعت «الثقافة الجديدة» الرفيق زكي خيري بكلمة وجيزة. وفي العدد الحالي نتذكر هذا المفكر المناضل من خلال ما قال وكتب وكذلك ما قيل وكتب عنه. وبذلك تعبّر المجلة عن بعض الوفاء لذكرى واحد من ألمع كتابها.
نستهل الملف المكرس للراحل الشيخ بما علق في ذاكرته المدهشة من ذكريات الطفولة والصبا، عن نفسه، عن اسرته، ومن خلال ذلك عن حياة العراقيين حتى قبل تأسيس دولتهم المعاصرة. انها الحلقة الأولى من المقابلة التي اجراها معه قبل الوفاة بحوالي الشهرين الكاتب ابراهيم الحريري الذي زامله بعض الوقت من سجن العهد الملكي. ومن كلمات رفاق ابو يحيى في تأبينه ننشر الكلمة الضافية التي ألقاها د. رحيم عجينة في الحفل التأبيني الذي اقامته منظمة حزبه في لندن، وفيها أوجز مسيرة الفقيد النضالية والفكرية مع لمحات عن شخصيته. وفي الملف ايضاً كلمة الفنان محمد سعيد الصكار في حفل التأبين المقام بباريس وضمنها ذكريات عن ابو يحيى منذ التقائهما في مكاتب «اتحاد الشعب». ثم ننشر الحلقة الثالثة من سجاله الفكري مع عطية مسوح، (نشرنا الحلقتين السابقتين في العددين ٢٥٨ و٢٥٩). وفيها يتناول قضايا الديمقراطية والاشتراكية، ودور الطبقة العاملة وموقف الشيوعيين من القضية القومية ومن الدين وتجديد الفكر الاشتراكي. وعن اسهامه المميز في

المسألة الزراعية في بلادنا كتب نصير سعيد الكاظمي. وكانت المجلة قد تلقت مناقشة كتبها الرفيق هادي محمود لبعض طروحات الفقيد التي انتقد فيها على صفحات العدد ٢٦٠ جوانب من سياسة الحزب ولا سيما مواقفه بشأن التحالفات والحصار والقضية الكردية. وقد ارتأينا بعد الوفاة اضافتها الى الملف. ونختتم الملف بتقييم زكي خيري لدور حسين الرحال في الحركة الشيوعية العراقية وذلك من خلال رسالة كتبها الى د. حميد الخاقاني الذي استفسر منه حول ذلك الدور.

وفي العدد مقالة لكامل شياع يعرض فيها ويناقش طروحات كارل پوپر في المنهج والنظرية، وهو يعتبر من ابرز نقاد الماركسية في النصف الثاني من هذا القرن.

في العدد الماضي نشرنا سبع مواد تتعلق بأوضاع المرأة تدشيناً لمناقشات مفتوحة حول هذا الموضوع الخطير. وريثما يصل العدد الى يد القارئات والقراء لتمحيص ما في المواد من طروحات، ننشر في هذا العدد مادتين تتناولان ممارسات ومواقف الدكتاتورية في كل من العراق والسودان بشأن حقوق المرأة واوضاعها. ودعماً للنقاش ننشر نتاجات في الأدب والفن لمبدعات عراقيات وكذلك قصة تتناول بعض انعكاسات الحرب على اجواء العلاقة بين الزوجين.

في باب أدب وفن ايضاً مقالة للفنان د. محمد صادق رحيم عن الفنان ماكس ارنست والعلاقة بين الانتاج الفني والتحرك الثوري في المجتمع. وكتب شاكر الانباري دراسة عن حياة واعمال القاص العراقي جنان حلاوي. وتتناول مقالة لطيف صالح حياة ونشاط الفنان ابراهيم جلال. وكتب ياسين النصير متابعة نقدية لمجموعة «ضريح الصمت» للقصاصين محيي الاشيقر وعلاء طاهر وحازم كمال الدين. وفي الختام اوجز كاظم عيدان ملاحظاته عن معرض أقيم في طرابلس للتشكيليين العراقيين: يحيى الشيخ، قاسم الساعدي وحسام الدين.

اوائل نيسان ١٩٩٥

ملف: لزكي خيري وعنه

ذكرياته... *

(١)

صورة الثوري في طفولته

حاوره: ابراهيم الحريري

هل كان في بالي أن احاوره؟ اجل. لا انكر. كنت ارعى هذا الحلم منذ سنين عديدة.
بدأت أولى محاولاتي في محاورة الشخصيات العامة، السياسية والثقافية، منذ عام ١٩٧٠.

خلال ذلك حاورت رضوان الشهال وبلند الحيدري ونقولا الشاوي وخالد بكداش وجورج حاوي وكمال جنبلاط وغيرهم على صفحات «النهار» اللبنانية (صفحة «قضايا النهار») اكثر الاحيان، أو «الطليعة» الكويتية التي كنت مراسلها في بيروت اواخر الستينات - اوائل السبعينات.
محاورة «ادونيس» (نشرت في «المدى» العدد الاول) تشكل انتقالة هامة. تكونت لدي قناعة انه ينبغي استيطان العالم الداخلي للمبدع وللسياسي: طفولته، هواجسه، احلامه، مخاوفه، نقاط ضعفه، بتعبير آخر، تقديم صورة، أو تصور آخر له، غير معروف، مغاير أن صح التعبير.

---

* جرت المقابلة في منزل الفقيد في ستوكهولم، يوم السبت ١٩٩٤/١٢/١٧ بحضور زوجته، سعاد خيري، ابنته وداد، الصديق جورج فرنسيس، وصديق آخر للعائلة لا اتذكر اسمه. أ.ح.

هكذا، اذن، قصدت زكي خيري، ظهيرة يوم غائم، مطير في ضاحية من ضواحي ستوكهولم. لست ادري لماذا كنت طوال الطريق اليه (بدأت رحلتي في باريس) دائم التذكر له، دائم التذكير به (يتذكر ذلك الذين حضروا بعض الندوات التي اقيمت لي في ديسمبر ١٩٩٤ في باريس ولندن وكوبنهاغن وستوكهولم ومالمه) كنت اتذكر ضحكته الشهيرة المتدرجة، تلتمع عيناه اولا، تبدأ اساريره، تدريجياً، بالانفراج، تحسب انه سينفجر بضحكة، قهقهة مدوية، وتحبس انفاسك، تتسمع شيئاً هو بين الهمهمة والغمغمة المتقطعة، ثم تزحف التقطيبة الصامتة، حتى العينين... ثم بدت لي – لبدة الاسد – كما سيسميها ذاتها، لة بيضاء منتصبة تعصى على المشط أو الفرشاة...

بدا لي الاسد، ذاته، الا انه اكثر نحولاً، حدبته الخفيفة، اكثر ظهوراً، كتفاه اكثر انحناءً! الهرم والمنفى! الهَرَم.. الهرِم، لولا التماعة عينين ذكيتين وقَدْحُ ذاكرة لا تعرفُ الكلال.

حاورته عن طفولته، فتكلم قدر ما اسعفته الذاكرة، وهي على التقدم في العمر، قدّاحة، لماحة، لا تشكو الوهن. حاورته في الحب والجنس فكان متحفظاً، ولم يكن للامر الا ان يكون كذلك، بالنسبة لثوري تحالفت البيئة الاجتماعية والسياسية، المبالغة في التحفظ والطهرانية، على تكوينه العاطفي، على قمعه عاطفياً، بالأحرى.

حاورته في السياسة فكنت كمن يذكره بأيام عرسه كما يقول المثل العراقي الشهير: «لو ضامك الضيم... تذكر ايام عرسك».

اردت ان احاوره في الموت – موضوعي الاثير – لكني ترددت. هاجس داخلي شلني... حتى حضره الموت، حاوره مباشرة من دون وساطة. الآن اعرف لم احجمت. لعلي كنت اراه –الموت – آتي مندفعاً، من غير ان يتوكأ على عصاي...

الآن، [وانا اهيئ هذا اللقاء للنشر، اقف حائراً... كيف أتعامل معه؟ هل «اشتغله» كما فعلت في اللقاء مع ادونيس؟ هل اتدخل، هنا وهناك؟ هل اعيد بناءه، خلقه؟ هل استعرض «مهاراتي» «شطارتي» اذا صَحّ التعبير؟

بدت لي كل الحيل، كل المهارات، كل اللعب، صغيرة، ازاء اللاعب، الماهر، الشاطر، الماكر، «وتمكرون، ويمكر الله...» أو الموت! آثرت ان اترك ابو غايب – كما كانوا يسمونه حين عرفته قبل اربعين عاماً – يتدفق، كما هو، حياً، حاضراً...]

رويت له في مفتتح الحوار، وانا اعرف وَلَعَهُ بالمفارقات، مفارقة حدثت لي صباح اليوم في الطريق اليه. كنت امارس رياضتي الصباحية، المشي، عندما قادني طريق الغابة الى بحيرة مجاورة. كان ثمةَ على الشاطئ الصخري مقصورات منحوتة من الحجر. لست ادري – قلتُ له– لماذا تلبّسني الشعور

بأن هاملت يذرع الشاطئ يفكرٍ في المفترق المصيري...
كان اليوم السبت - سبت الرب، عندما استراح من الخلق حسب الاسطورة التوراتية - كذلك اناس العمل في البنايات المطلة على البحيرة، ونور النهار، لم يشقشق بعد.
قلت له: صرخت (لم أصرخ في الواقع، اردت أصرخ!)... To be or not to be. That is the question!* *انفتحت نافذة، سمعت صرخة بالسويدية لعلها شتيمة أو: «أخرس!» ثم حطت على مقربةٍ فردة حذاء قديمة! (لم يحدث ذلك. اضافته مخيلتي النشيطة. لعله - كما قلت - لاستفزاز حس المفارقة لدى زكي وخلق اجواء مناسبة للشروع في الحوار. ولعلي - ايضاً - كنت اريد ان استدرج ضحكته الشهيرة).*
*تذكرت مقولة ماركس الشهيرة - قلت له - لكني - على طريقتي - قلبتها: «التاريخ يعيد نفسه مرة على شكل هاملت ومَرّة أخرى على شكل ابراهيم الحريري!***
التمعت عيناه، انفرجت، بالتدريج اساريره، ضحك... ثم انفتح الحديث.
لم ينتسب زكي خيري وعائلته لاحد، لعشيرة، مع ان بعض اقاربه انتسبوا الى البيات بسبب علاقات النسابة. «لكن اهلي عاشوا في بغداد من زمان من قبل سبعة اجيال منذ اوائل القرن الثامن عشر، ثمة آراء مختلفة في انحدارنا فالبعض يقولون اننا ننحدر من قارص واردهان بين جورجيا وتركيا، آخرون يقولون اننا ننحدر من افغانستان، ليس ثمة رأي اكيد في انحدارنا، لكن سبعة اجيال قبلي سكنوا باب المعظم في بغداد، متبغددين من زمان، كانت عائلتي تسكن الدار رقم ١/٩. فالواحد يرمز الى شارع الرشيد والتسعة الى رقم المنزل، أي البيت الخامس في شارع الرشيد أصبح الآن ساحة الميدان».

☐ هل كان في محلة الطوب؟

- اجل في محلة الطوب، مقابل وزارة الدفاع، ٧ أجداد قبلي ولدوا وعاشوا في بغداد.

☐ لكن من أين اتت نسبتك أو نسبة عائلتك الى كركوك والتركمان؟

- لا علاقة لنا بكركوك بأي شكل، لكنه أحمد سعيد مذيع (صوت العرب) ايام عبد الناصر ضمن سلسلة هجاءاته السياسية ضد عبد الكريم قاسم وضباطه، ركز هجومه على وصفي طاهر، كان اسم وصفي مرعباً بالنسبة

---

* «ان تكون أو لا تكون... تلك هي المسألة» من مسرحية هاملت لشكسبير.
** في الاصل «التاريخ يعيد نفسه مَرّة على شكل تراجيديا.. ومَرّة أخرى على شكل مسخرة».

لهم، باعتباره من أصل تتاري! ويبدو انه ليس هناك دخان بلا نار...
ليس في اصول أمي أو أبي أي عرق تتاري، لكن خال ابي، اسمه أحمد، كان قد تزوج امرأة من محلة الطاطران، واصل سكان المحلة تتار، وهي لم تكن زوجته الوحيدة، بل آخر زوجاته، وقد خلفت بنتين، احداهن خلفت قدري عبد الرحمن المصور واختيه بلقيس وسلمى، ماتت سلمى وبقيت بلقيس وهي تعيش الآن في براغ مع ابنتها نضال، بلقيس هي زوجة المرحوم وصفي طاهر، وهكذا، عندما ينسبوننا الى التتار، فهم، كما ترى غير جائرين، ولا نستطيع الزعم ان الامر كذب من ألفه الى يائه، لكننا يمكننا القول ان لا دخان بلا نار!

لعلك لو حللت دماءنا لظهرت فيها كل الدماء البشرية، من مغولستان الى ارمنستان!



☐ **لعل لقاءنا، الان في السويد: (كان لقاؤنا الاول عندما سجنت في اوائل يناير ١٩٥٤) يشكل مفارقة أخرى، أو تعتقد ان هناك مفارقة تاريخية من نوع ما ان نلتقي بعد أربعين عاماً في السويد؟**

– عجيب ان نلتقي هنا وليس في العراق، هذه مفارقة، اسوأ مفارقة.

☐ **هل تعتبرها مسخرة؟**

– اجل، انها سخرية التاريخ، يسميها شكسبير irony of fate (سخرية القدر)، فيما يسميها ماركس irony of history (قالها هنا أيضاً بالانكليزية) سخرية التاريخ ان نلتقي هنا وليس في العراق أو في بلد عربي، فليس ثمة أي بلد عربي يعطينا لقمة الخبز والامان أو الدواء أو يقدم لنا ملجأ في شيخوختنا.

خرجت من سورية كمن ينتزع بالقوة من أهله. لم يكن بودي ان افارق سورية، لكن «وين اولّي؟» خرجت من سورية غصباً عني، الحاجة هي التي ألقت بي هنا، تعالَ عش في هذا الصقع الجليدي؟ ومتى؟ في آخر عمرك، وليس في

شبابك عندما تكون ما تزال لديك طموحات، فرص كثيرة امامك، تأتي فتقضي بضعة سنوات ثم تعود. هذه كارثة بالنسبة لي. أن يأتي المرء في شيخوخته الى هكذا بلد...
لكن امر ايجابي ان يكون هناك مثل هذا الشعب السخي، المحسن الى اناس في مثل وضعي، نبذهم بلدهم (لعله كان يريد ان يقول حكّام بلدهم).

☐ هل كنت في السجن قبل اربعين سنة مرتاحاً نفسياً اكثر؟
– طبعاً، عندما تخرج من السجن الى الحرية، تلتقي اهلك، وطنك اين نحن الآن من هذا؟

☐ هل تفضل ان تعود الى السجن في عمرك هذا على ان تبقى في السجن؟
– نعم.. والله! نعم! لكن ما أفضله هنا انني استطيع اكتب كلمة يمكن ان اوصلها للناس، هذا هو الامر الوحيد الذي دفعني ان آتي الى هنا، فما دام لدي صوت اريده آن يسمع. والآن، لو كنت استطيع أن اقول في العراق حجاية تنسمع) من دون ان اضطر الى مدح صدام حسين، لكنت عدت الى العراق لأشارك الشعب حرماناته.

☐ قبل اربعين سنة، عندما دخلت انا السجن، كنت انت وقتها أكبر سجين سياسي عمراً، كنتُ انا ايامها اصغر سجين سياسي، بعمر ١٥-١٦ سنة.
– فلنترك الادعاءات جانباً (ضحك، ضحكت سعاد وعقبت: أخي فؤاد كان عمره ١٤ عاماً عندما سجن كان ذلك عام ١٩٤٩).

☐ انني اتحدث عن عام ١٩٥٤ وفي سجن بعقوبة، هل ما زلت تتذكر ذلك السجين السياسي الفتي؟
– اجل، كان يمكن ملاحظة ان وجهاً جديداً

☐ طيراً جديداً
– وجهاً جديداً (في اللون، الشكل الخ...) لم تكن تشبه العراقيين، اعني سائر العراقيين.

☐ هل هذا وحده ما لفتك؟
– امر آخر، ليلبان بالحچي (ذلق اللسان).

☐ لعلّي مازلت.
– لا أستطيع ان احكم الآن (ضحك الجميع) اجتماعي، تريد ان تتعرف.

☐ عملت سكرتيراً لك فترة... ثم فصلتني.
– عندما اترجم، فأن هدفي ان انجز عملي بسرعة، وينبغي ان توضع الترجمة على الورق من دون مقاطعة من دون إن اضطر الى ان اذهب في التفكير الى أبعد من موضوع الترجمة، حرصاً على دقة الترجمة والوقت المحدد لي



لانجازها، لو كنت تناقشني خارج وقت الترجمة كنت مستعداً للاستماع لك ساعات، لكن هذا لا يعني انني كنت مستعداً للحديث ساعات!

□ لعلي الَحّ كثيراً على الذكريات الشخصية، مرة سألتني قبل اربعين سنة: لماذا انت حزين؟ آخرون كثيرون لفتهم، فيما بعد، هذا الامر، كانوا يكتشفون خلف غشاء المرح الظاهري، الحزن، لكنك كنت الأول الذي يكتشف الحزن.

– السجن محنة، امتحان، شباب يتدفقون حيوية، محصورون، خصوصاً في سجن بعقوبة الذي هو مكعب كونكريتي، الأرض كونكريت، الجدران كونكريت، مساحة محدودة جداً، ازدحام الى أقصى الحدود، حركة دائبة، ليل نهار، قباقيب من الخشب تنقر المخ ليل نهار، حميد عثمان هو شخص شاذ ان لم يكن مجنوناً، حتى يظهر نفسه باعتباره حريصاً على الدفاتر الماركسية – كان مسؤولاً للمنظمة الحزبية في السجن ذلك الوقت – وهي مئات الدفاتر المترجمة عن ماركس، انجلس، لينين اكثرها كان مترجماً عن لينين – هذه الدفاتر كانت معروضة للمطالعة ليل نهار، النور حسب نظام السجن مضاء، لكن حسب نظام حميد عثمان، كان الشاي يقدم كل ساعتين، حتى يساعد ذلك المساجين على السهر والقراءة. لم يكن هناك وقت محدد للنوم، لا في الليل ولا في النهار.

أكثر الرفاق كانوا ينامون ليلاً، لكن عندما كانت تدور صينية الشاي بما يرافقها من صوت اهتزاز الاكواب، كان الرفيق السجين يفزّ من نومه، وباللاوعي وهو نائم يمد يده الى الصينية يسحب كوب الشاي، يكرعه، يضعه عند قدمه ثم يسحب البطانية ويعود الى النوم.

كان ثمة البعض، قليل منهم، يقرأون الليل كله، وينامون نهاراً ولم تكن هناك اية مجالات للرياضة، للترفيه الخ. كانت محدودة الى الحد الادنى. الاعصاب متوترة، الشباب، عمر الشباب، هذه الظروف تسبب تعقيدات، انواع التعقيدات العصبية والنفسية. انت اتيت الى السجن في هذا الظرف. كان الامر مختلفاً في سجن نقرة السلمان. لقد بنوا سجناً يتضمن عدة ساحات يمكن لعب كرة القدم فيها، أو حتى تنظيم سباق الماراثون، ردهات النوم كانت تتسع لعشرة اضعاف السجناء الموجودين (تضيق هذه الردهات بهم فيما بعد، عام ١٩٦٣ بعد المباركة، عروس الثورات أ.ح).

□ لعله بني ليكون قاعدة على الحدود...

– بني السجن في الاساس خصيصاً للشيوعيين، خطط له ليكون كذلك.

سعاد: تتحدث عن سجن نقرة السلمان أم بعقوبة؟

□ نقرة السلمان

سعاد: سجن بعقوبة صممه الأمريكيون.

☐ لعلك تقصدين سجن بعقوبة الجديد.

- تلك مرحلة آخرى، مرحلة ميثاق (حلف) بغداد تلك كانت المرحلة النهائية، مرحلة ما قبل الكارثة التي اصابت حلف بغداد كان يوضع ٤ سجناء في كل غرفة من غرفه (سجن بعقوبة الجديد) مساحتها ٩ متر مربع. داخلها المراحيض والمغسلة. الزنزانة مغلقة ببوابة حديدية بفتحة مربعة (١ قدم مربع) تمرر منها طاسات الاكل، ويراقبون السجناء، فيها شباك يطل على الساحة الخارجية للسجن. السجناء الاربعة مزلجون داخل الزنزانة ليل نهار، يخرجون منها ساعة في كل ٢٤ ساعة الى الشمس والهواء الطلق. هذا كان سجن بعقوبة الجديد عام ١٩٥٥. هناك بلغت المأساة ذروتها، ثم أتى الفرج: انهيار النظام الملكي.

☐ قلائل يعرفون ابو يحيى الانسان، الكل يعرفونه المناضل السياسي الشيوعي، الوطني الذي اشترك في اول مظاهرة ضد الصهيونية (في العراق) ضد موند.

- الفريد موند، كان مديراً لشركة Imperial Chemical industry I.CI وهي كانت في زمانها اكبر احتكار في العالم، وهي الان اكبر احتكار بريطاني، مختصة بالمنتجات الكيماوية. موند، رئيس الشركة، يهودي صهيوني بريطاني، اتفق مع ((الملك) فيصل الأول ان يزور العراق ويقيم Plantations، مزارع كما في الهند تختص بزراعة منتجات معينة مثل القطن أو الشاي أو التي تدخل في الصناعة مثل بذور محاصيل صناعية كالزيوت النباتية.

زار في البداية الشام. لكن الوطنيين هناك حاصروه في فندقه لمدة ثلاثة ايام: مظاهرات. كنا وقتها طلبة في الثانوية المركزية، وعصراً بعد الدوام نذهب الى نادي التضامن مقابل جامع الحيدر خانة، نقرأ جرائد عربية تاتي من مصر ودمشق، «الشورى» من القاهرة، «فتى العرب» من دمشق، جرائد قومية، قرأنا خبر الفريد موند وكيف حوصر (دمشق) وعن نيته زيارة العراق. قلنا «تخسه»! الشوام «المخانيث»! (ضاحكاً) يحاصرونه ونحن نتركه يزور العراق، اخذتنا «الغيرة» العراقية فنحن (العراقيون) نرى انفسنا أرجل اكثر رجولة!) من الشوام، لان الشوام يحفون عند الحلاق بالخيط، ولدينا عندما كان يقال فلان يحف! مع غمزة (يغمز) يعني.. تعرف...

قررنا (طلبة المركزية) ان نستقبله استقبالاً غير ودي، اتفقنا مع (طلبة) دار المعلمين الابتدائية (مكانها الان مستشفى للولادة وللأطفال في الكرخ تتكون من ٥ ، ٦ طوابق هناك ولدت ابنتنا وداد) اتفقنا معهم ان ننظم مظاهرة

مشتركة.
عملنا، في البداية، دعاية للمظاهرة، درنا حسين جميل، كان وقتها طالباً في الصف الرابع، وانا كنت طالباً في الصف الثاني. كانت سنوات الدراسة اربعاً، درنا على الطلاب وا حد واحد، كان دوري دور المحرض، فيما يسجل حسين جميل اسماء المتبرعين عانه، بيزه، بيزتين، تعرف الآنة الهندية؟ اقل من خمس فلوس اربعة فلوس ونصف، نجمع فلوس الشعارات. الشعارات كتبت عند جلال الخطاط مقابل مركز السراي، اكبر مركز للشرطة في العراق، مركز المراكز، نشر جلال الخطاط ((الشعارات) امام اعين الشرطة الرائحة الغادية. لم يكن في بالهم، لم يكن في بال أي احد، ان هذه الشعارات ستتحول الى مظاهرة صاخبة (يطفح وجهه وصوته بالسرور وهو يتذكر) حسبو ان هذه (الشعارات) ديكور (للمحل): تسقط الصهيونية... الخ.. وانت فايت! صار وقت المظاهرة، يوم ٨ شباط ١٩٢٨ نظمنا حرساً للاضراب (في الثانوية المركزية) وقفوا عند كل المداخل المؤدية الى الثانوية كان هناك طلاب يأتون بالزوارق من شريعة الكرخ وينزلون عند المشاية قرب مجلس (اراد ان يقول مجلس النواب لكنه ا ستدرك) عند محكمة الشعب [المجلس النيابي القديم تحول بعد ثورة ١٤ تموز الى مقر لمحكمة الشعب برئاسة المرحوم فاضل المهداوي. انقلابيو ٨ شباط حولوها الى مقر للتحقيق – التعذيب... ولكل زمان دولة ورجال... ومقرات أ.ح] أخرون كانوا يأتون عن طريق سوق السراي – سوق الميدان، قسم عن طريق وزارة الدفاع، كلها مداخل وقف فيها زلم حوك! كان بين طلاب الصف الرابع طالب من بيت الشاوي متزوج من اربع! رجل... ماشاء الله! تستحي من شواربه، هكذا كانت الثانوية المركزية، مو هسة كلهم زعاطيط! (يضحك).

☐ اعود مرة أخرى الى الطفولة، الناس تعرفك، المناضل الشيوعي، تختلف في تقييم نشاطك أو تتفق، لكن قلائل يعرفون عن ابو يحيى الانسان هل اجرى معك احد مقابلة تناول فيها طفولتك.. حاورك عن حياتك كأنسان.. هل اجرى معك احد مثل هذا اللقاء؟

– لا... ربما بطاطو. حنا بطاطو لم يكتب عن طفولتي الخ... كتب مختصرات.

☐ أريد ان اكرس القسم الاساس من مقابلتي معك للحديث عن هذا الجانب، غير المعروف، عن ابو يحيى الانسان، عن ذكريات طفولتك، عن اهلك، بيئتك، الطرف وذكرياته، وهي تساعد، خاصة الناس في الخارج على بناء صورة لبغداد القديمة، وعلى معرفة البيئة التي نشأ فيها ثوري، واحد من ابرز الثوريين في الحركة الثورية العراقية المعاصرة، لا أجاملك في هذا، صحيح (انا «لوتي» كما سميتني مرة (لذلك حكاية، قد يتسع المجال لروايتها) هذا

واقع مهما اختلف المرء معه أم اتفق، لنعمل محطات، لنبدأ اذن، من بيت محلة الطوب ١/٩.

– هذا كان بيت اجدادي، لم اسكن فيه الا قليلاً، أبي كان موظفاً صغيراً في الدولة، كاتب ناحية (وحدة أدارية) دار الكثير من المدن في العراق... عمل في البدء، مأموراً لمخفر درك بدرة هناك التقى امي وتزوجها، كان بغدادياً، سنّياً، وكانت هي بدراوية، شيعية، كان اهلها فقراء، زوجوه اياها رغم كونه سنّياً كان عمره وقتها حوالي الثلاثين وهي كانت حوالي ال١٤.

☐ أين ولدت؟ في بغداد أم في بدرة؟

– ولدت في بغداد في بيت استأجره ابي قريب من بيت اجدادي، مجاور لجامع المرادية، انكّص... راح، الجامع ما يزال باقياً لكن بيوتنا راحت. ابي كان من بين الذين وضعوا اساس منارة (مئذنة) جامع المرادية، كانوا في نهاية القرن التاسع عشر يجددونه، كانوا يحفرون اساساً جديداً للمنارة ربما اساساً لمنارة جديدة، أم لعله قصد تجديد المنارة بما في ذلك اساسها أ.ح) تطوع ابي واشترك في الحفر.

☐ هل كان بناءً، اسطه؟

– كان ابي يتدخل فيما لا يعنيه... يتدخل في كل شيء! مرة كان عاطلاً عن العمل قعيد البيت، بيتنا كان قديماً، جدار مطبخه كان مائلاً باتجاه الميدان. اخذ والدي يفلّش الجدار وكان من الشّكَنك (كسار الطابوق القديم) لم يكن الحصول على الطابوق سهلاً، كان مكلفاً. كان البيت خلال ألف سنة ينبني ويهدم عشر مرات بالطابوق نفسه فيتحول الطابوق الى شكَنكَ.

☐ لم اسمع هذه الكلمة من وقت طويل.

– كان الوالد يفلّش ويبني. منعته امي، نصحته، حذرته من العقارب التي يمتلئ بها البيت، مثل أي بيت قديم، الجدار قديم مائل الى الانهدام: جوز منه! شعليك الخ... ما فاد التفتت الى الله قائلة: ربي... ما تدزلة فد عكَرب تعضّه. لم يكذب الله خبراً، خرجت رأساً عقرب بحجم الكف (بسط ابو يحيى كفه الكبيرة المعروفة) عضه، صاح! اخذت والدتي تركض هنا وهناك تبحث لوالدي عن دواء للدغة العقرب. جلَبَت نفطاً، كان الكيروسين بالنسبة لهم (اهل الاول) دواء لكل شيء.

هذه واحدة من تدخّلات والدي.

مثل آخر، كان هناك مطبعة تعمل بالجوار. اخذ والدي يحوم حولها مد اصبعه (في واحد من عجلاتها) فانكسر، وبقي اصبعه اعوج حتى مات. اما انفه فقد انكسر في حادثة آخرى. يبدو انه انشغل بتصليح جدار آخر، فانهدّ الجدار على وجهه. (تتدخل أم يحيى ضاحكة تطلب منه ان يتحدث عن

جوانبه الايجابية. عن مساهمته في ثورة العشرين)

☐ كنت بكْر ابويك؟

- لا، زكية، اختي الكبرى هي البكر، ما تزال موجودة في بغداد، لا تقبل ان تتركها، لديها حوالي الاربعين حفيداً، تشرف عليهم جميعاً، تأخذ من هذا وتعطي ذاك الخ... حتى تمشي احوالهم الاقتصادية، ما تزال تناضل، آخر حفيد لها اسمته «فهد»، تحدياً للنظام.

اذن، فقد ولدت عام ١٩١١، ١٩١١/٤/١٢. اما اختي الكبرى زكية، فقد ولدت في ١ تموز ١٩٠٩، اما اخي الاصغر فقد مات، مات قبلنا! كان مسرفاً في حياته، ياكل كثيراً، يشرب كثيراً، استهلك حياته في زمن اسرع.

☐ كيف كانت طبيعة علاقة ابيك بأمك؟

- لم يكن ابي في البيت ذلك الرجل المرح الذي يهتم ببيته، ما كنا نسمع صوته في البيت الا نادراً، كان يذهب الى المقهى، ينطلق، يتكلم ويصيح بأعلى صوته، يخوض في السياسة وفي كل موضوع، اما في البيت: فـ«صاموت! لاموط!» لم يكن «شقياً» في البيت.

☐ يبدو ان علاقتكم بأمكم كانت الاقوى.

- بلي: اذا كانت هذه حالة (الوالد) فالعلاقة بالأم تكون اقوى، شيء بديهي.

☐ هل كان قاسياً معكم؟

- لأ... كان عندما يموت واحد من ابنائه أو بناته، ينهار. مات لي اربعة، ثلاث اخوات وأخ. اثنتان ماتتا بسبب التهاب السحايا عندما وصلتا السابعة. لعله بسبب سوء التشخيص أو سوء التداوي، الثالثة بسبب سوء التغذية، ماتت وعمرها سنة، الاخ أصيب بالجدري وظل معلعلٌ حتى مات في الثانية من عمره.

لقد كانت سنة ١٩٢٥ سنة صعبة، أهل جنوب العراق يسمونها «سنة لوفة»، جف فيها الغراف، مئات ألوف الفلاحين الذين كانون يسكنون ضفاف الغراف، هجروا اراضيهم، انطشوا، قسم ذهب الى البصرة، قسم ذهب الى الفرات الاوسط، ثلاثة ارباع اهل الديوانية، الآن هم في الأصل من الغراف.

(سنتها) صار كيلو الطحين بروبية! كانت امي تعطينا روبية فنذهب ونشتري كيلو الطحين المستورد من بومبي، عفن، ناعم نمرة صفر، يكفي لملء بطوننا خبزاً. كان هذا عام ١٩٢٥. ماتت اختي الصغرى سنتها بسبب سوء التغذية، اختي الأخرى، كان عمرها ٧ سنوات ماتت بالسحايا. جدتي أم ابي ايضاً ماتت، كانت كبيرة... في الخريف مات ابي. سنة لوفة، لافتنا لوف.

☐ يبدو ان علاقتك بأختك (زكية) كانت اقوى من علاقتك بأخيك؟

- اجل، كانت افضل.

☐ ماذا كان يعمل ابوك في سنوات عمره الاخيرة؟
- كاتب ناحية بالمدحتية في (لواء) الحلة.

☐ كنتم تذهبون معه (خلال تنقلاته الوظيفية)؟
- نعم كنا نتنقل معه...

☐ اذن لم تكن في بغداد بعد ١٩١١.
- عشت (وقتها) في بغداد فترة قليلة، رأيت من مدن الفرات، الرمادي، الفلوجة، ابو صخير، الحلة، المسيب، هذه هي المدن التي قضيت فيها اكثر سنوات الطفولة، بعقوبة ايضاً.

☐ حتى أية سنة؟
- حتى سنة ١٩٢٥. كان ابي خلال تلك السنوات، بينها سنوات عطالة عديدة، دائم التنقل. واخذ يتعاطى السياسة. فتح النادي الادبي في الحلة. كان اسمه «النادي الأدبي» الا انه كان مؤسسة سياسية، وذلك في بداية تكوين الحكومة العراقية.

☐ ماذا كان تحصيله العلمي؟
- تخرج من الابتدائية. اراد ان يدخل الثانوية العسكرية، كانت عيناه من دون اهداب لست أدري لماذا. كان يستطيع ان يرى، الا ان الأطباء اسقطوه. كان بأمكان ابيه ان يمشّي الامور مع الاطباء بـ٦ ليرات ذهب، لكن الاب (جدي) كان ضابطاً مسلكياً تدرج من جندي حتى آمر فوج وهذا آخر ما كان يمكن ان يترقى اليه الضابط المسلكي لانه لم يتخرج من اية كلية عسكرية، جدي قال: انا ضابط اعطي رشوة حتى يصبح ابني عسكري؟! لازم بالوراثة يصير. ابي تقدم الى سلك الجندرمة.

☐ يبدو ان سلك العسكرية كان متوارثاً لديكم في العائلة ابوك... جدك (تضيف سعاد: اعمامه ايضاً).
- كانوا (آباؤه) ضمن قلعة الدفاع، من محلة الطوب - المدفع، مقابل وزارة الدفاع، كانت تسمى قلعة الطوبخانة - قلعة المدفعية. عندما اتى الفتح العثماني، سليمان، والفتح الثاني، مراد، سووها (وزارة الدفاع الحالية) مقراً للمدفعية، طوبخانة قلعة سي، لعلهم (اجدادي) قدموا الى العراق اوائل القرن الثامن عشر، مع حسن باشا الطويل، لعلهم كانوا جنوداً في هذا الجيش، الحملات العسكرية العصمنلية كانت مستمرة باتجاه بغداد، فبعض الباشوات (الولاة) كانوا يعصون.
حسن باشا (الطويل) اسس سلالة مثل سلالة المماليك في مصر، من اوائل

القرن الثامن عشر حتى سنة ١٨٣١، آخرهم كان داود باشا.

□ ما هو الشيء البارز الباقي في ذاكرتك من ذكريات الطفولة، حدث، موقف، شخص، وجه، بداية تكون ذاكرتك؟

- خرجت من بيتنا وضعت! مشيت في سوق الفضل، محلة الصابونجية، رأس الكنيسة، كان هناك، مقابل وزراة الدفاع زقاق يقود الى جامع الفضل، رأس الكنيسة. كان هناك ساقية تمتد من محكمة الشعب، حتى جامع الفضل. اسالة الماء كانت، سابقاً، سواقي. هذه الساقية اندفنت فيما بعد، واصبحت طريقاً يسمونه رأس الكنيسة، كنيسة الارمن. أحد ضباط مراد الرابع كان ارمنياً آمر الفوج منحه ارضاً وقال له ابن كنيسة، فبنى كنيسة للارمن. ذاك اليوم، قبل عشرين سنة فلّشوها وعثروا على حجرها الاساسي، وعرفوا تاريخها. واعادوا بناءها في منتصف الطريق بين وزارة الدفاع وبين جامع الفضل، بالقرب من شارع الجمهورية.

خرجت من البيت، مشيت، كان عمري وقتها سنتين ونصف، ثلاثة، اكثر. حوالي ثلاثة، لم اكن اعرف الزمن، رآني رجل واخذني الى بيتهم نصبوا بعدها صينية العشاء. كان اصحاب الدار قصابين من سوق الفضل

□ كنت تصرخ؟ تبكي؟

- لا! يا هو مالتي! اهتمت العائلة بي، جلسوا حول صينية العشاء، صينية بغدادية أصيلة، خلال ذلك فات الدلال: «وين ابن الحلال!»، «وين اللي لاكي ولد هيجي اوصافة» سمعت صوت الدلال والاوصاف. ارتبكت. عرف اهل الدار ان أهلي يبحثون عني، خرجوا بي وسلموني بيد عمي. هذه اول حادثة اتذكرها.

اتذكر ايضاً اننا ركبنا من مسنّاية الدفتردار، يعني شارع السموأل - البنوك (حالياً) ركبنا مركب الى العزيزية، كنت وقتها جاوزت الثالثة من عمري. ركبنا مركب ابو السربس. انا وامي واخي الصغير واختي. عمي انور ركبنا المركب حتى نروح للعزيزية، كان ابي موظفاً هناك، كاتب ناحية/ لم يكن هناك واسطة نقل غير المركب، طولنا يومين، الآن السيارة تقطع الطريق بساعة - ساعتين. مازلت اتذكر المركب. انه من اقدم ذكرياتي، مركب ابو السربس، انت ترى الماء يفور في منتصف المركب.

□ هل كان ابوك متديناً؟

- صام، عمره كله، شهراً واحداً. لعله كان يصوم قبل هذا، لكني آخر شهر رايته فيه صائماً كان ١٩٢٤، وكان هذا اول، وآخر شهر (رمضان) اصومه وأصليه. كنا وقتها في المسيّب. كنا نفطر في جامع السنّة في المسيّب. كان ابي يقرأ هناك القرآن، كل قراءة كان يغلط غلطة نحوية، بينما امام الجامع

المسكين يصرخ به، يصلّح له، الا ان ابي لم يكن يهتم به، كان معجباً بصوته، واثقاً من نفسه، يا هو مالته!

□ هل كان يشرب الخمرة؟

- لم أره، لعله كان يشرب الا انه لم يكن مدمناً، امكانيات الشرب لم تكن متوفرة، ثم انه كان دائماً في الارياف.

□ هل كانت الوالدة متدينة؟

- كانت، بين حين وآخر تتدين. كانت مترددة، شكوكية. ابي ايضاً كان شكوكي احياناً.

□ هل كان والدك أو والدتك يحبان الغناء، الطرب؟ هل كانا يحضران مجالس الغناء؟

- لا.

□ ما هي اول اغنية تعلمتها في حياتك (تضحك سعاد ووداد ابنته وتهتفان «العندليب»! قدر لي ان اسمعها منه اكثر من مرة في حفلات السجن عندما كان يطلب منه الغناء. كان يشدّ قامته ويبدأ الانشاد وقد اكتسى وجهه ملامح الجدّ الصارمة، ترتفع عقيرته:

سمعت شعراً... للعندليب تراه فوق... الغصن الرطيب

فيضج السجن، كما الآن، بالضحك. ومع اننا كنا نعرف في كل مرة انه سيكرر النشيد نفسه، الا ان الامر كان يبدو لنا، في كل مرة جديداً مضحكاً).

- لا اتذكر...

□ قدّر لكل من عرفك ان يلحظ مزاجك الشعبي الحاد، اللاذع، الساخر، كيف تكون لديك هذا المزاج، اكيد هناك الكثير من العوامل، لكن ما هي ابرزها في طفولتك...

(تهتف سعاد: أمّه!).

- كانت امي منكّتة. تحب النكتة، لطيفة المعشر، كانت الشابات (صديقاتها، قريباتها) يلتففن حولها يتمسّكْنَ بها يردنها ان تبقى عندهن، في ضيافتهن. كانت تتحايل للهرب، لانها لم تكن تطيق ان تطيل الاقامة لدى احد.

عندما حضرت الوفاة احدى صديقاتها - كانت سنّية - طلبت ان تدفن بجوار أم زكي الشيعية في النجف، في وادي السلام.

□ اذن فقد اكتسبت حسّ السخرية من أمك... هل كانت تسخر من والدك، لا أقصد الاستهانة، بل التعليق، التنكيف، المقالب...

- لا... كانت تخاف.

□ انت، هل كنت تخاف اباك؟
- كنت احترمه.

□ هل كان يضربكم؟
طبعاً اذا كانت أمي تشتكي منا عنده، كان يدگنه دگه زينة، كان الراشدي كفه) يزن (١٠٠) كيلو ماي مع انه لم يكن طويلاً جثيثاً.
تقاوى مرة مع اشقياء (شقي) اراد ابي ان ينتزع بندقيته. البندقية كانت حياة الشقي، فهو كان مطلوباً، هارباً من وجه العدالة. توسل الشقي بأبي: خيري فك يأخه! ما فاد. البندقية كانت موزر، نوع من البنادق القديمة من القرن التاسع عشر، طلقتها ها لكبرها (يبسط زكي أصبعه) الح الشقي في التحذير. مافاد. كان أبي عنيداً. ضغط الشقي على الزناد فكسر فخذ ابي. اخذوا ابي الى مستشفى المجيدية (الجمهوري حالياً) كان هناك جراح واحد في بغداد. الدكتور كاني، لحم عظم الفخذ معوجاً فظل ابي يعرج حياته كلها ذهب الى قبره وهو يعرج...

□ متى اكتشفت الزمن... بالنسبة للطفل ليس هناك زمن (حدثته عن تجربتي. دخلت المدرسة، فرحاً بكتبي ودفاتري. كتبت تاريخ بتلك السنة على كل اوراق الدفاتر - لعلها كانت ١٩٤٥ - لكن السنة اندارت...! هكذا مسحت السنة القديمة، وسجلت الجديدة. كان هذا بالنسبة لي اول احساس بالزمن، او اكتشاف له).
- دخلت مدرسة البارودية الابتدائية في الصف الاول. قرأت هذا التاريخ «واحد» ثم خط مائل «عشرة» ثم خط مائل ألف وتسعمائة وعشرون...

□ كنت تعرف القراءة والكتابة اذن؟
في الكتّاب، لم نكن نتعلم الكتابة. فقط قراءة القرآن، مثل الببغاء كذلك الارقام، ختمت هناك القرآن. بقيت هناك سنتين. دخلت عندما كنت في السابعة.
وهكذا عرفت ان هذا التاريخ هو تاريخ ميلادي - لا أتذكر مقابله الهجري - وهذا يعني ان المسيح ولد قبل كذا سنة، وبدأ لي هذا التاريخ، اول الشهر، مهماً، لانه التاريخ الذي يقبض فيه الموظفون، كنت اعرف طبعاً علاقة اول الشهر بالراتب بحكم كوني ابن موظف، الا انني بدأت اهتم بالكلندر، التقويم منذ ذلك الوقت.

□ من تتذكر من اساتذتك؟
- مدرسة البارودية كانت قريبة من رأس الكنيسة، بين جامع الفضل وكنيسة الارمن القديمة، كان مديرها هو ناجي القشطيني. كنا نذهب قبل الدوام،

يصفنا نصف ساعة في الشتاء. كان معمماً، عمامة اسطمبولية، فيس فيها حصيرة وعمامة بيضاء وجبّة تحتها بنطرون، كان يعجبه ان يثرثر حوالي نصف ساعة أو يفتش ايادينا وعندما يرى الشكَ الشتوي كان يمسحه بقطن ودهن يصطحبه معه، كان كثير الكلام، يكثر من النصائح.
هذا ناجي القشطيني، اول مدرس اتذكره. لا اتذكر المدرسين الآخرين، لم يتركوا ذكرى مهمة لدي.

☐ هناك تعلمت اول نشيد «سمعت شعراً»؟

- كانت وقتها اول حكومة عراقية، حكومة النقيب، سنة ٢٠-٢١. كانت اللغة الانكليزية تدرس من الصف الاول الابتدائي. كان هناك معلمين مصريين في المدرسة. اول نشيد علمونا اياه هو: «مصر العزيزة أمنا» لكنهم قلبوه الى: «البارودية أمنا».

☐ لعلك ما تزال تتذكر شقاواتك، وكاحات ما قبل المدرسة...

- في الفلوجة، كان عمري وقتها سبع سنوات أو اكثر قليلاً. كان يعجبنا ان نتعارك بالسيوف، كانت سيوفنا من قيد البالات ((شريط حديدي أو تنك يلف البالة) نجمعها من المزابل، كان يحلو لنا ان نسوط به الحصى فتقدح ناراً. كنا نتبارز، طرفاً (محلة) مع طرف آخر. هذا هو نوع الشقاوة البريئة الذي كنا نمارسه.

☐ ألم ترتكب «مكسورة» عندما كنت صغيراً؟

- لا...

☐ ألم تكن مشاكساً في البيت؟

- لا... كنت على العموم مطيعاً.

☐ ألم يكن لديك في المدرسة مشاكل مع الاساتذة؟ مع الطلاب؟

(تذكّره سعاد بحادثة عندما تخرج من السادس بكالوريا في المأمونية).
كنت في المأمونية في الصف السادس، لم اكن من الطلاب اللامعين كان هناك معي في الصف السادس طلاب يكبرونني بضع سنوات، وكان هناك من هم أصغر مني ايضاً.
امتحنّا بكالوريا السادس، كل طلاب البكالوريا في العراق كان عددهم وقتها (٥٠٠)، ظهرت النتائج، نشرت في الصحف، فاذا بي السابع على العراق والثاني على المدرسة! كانت مفاجأة للجميع... ولي بالطبع! (يضحك) كان هناك معلم، جارنا، اسمه - ايضاً - زكي. تفاجئ بالنتيجة قال: «عبالي زكي بودّ الله طلعت آني بودّ الله»!

☐ لعل هناك حدثاً عاماً في محيط الطرف (المحلة) أو محيط البلد ما تزال

تتذكره ، الحرب العالمية الاولى، سفر برلك ، ابوك كان وقتها مايزال في الجندرمة.

– كان ابي في الحرب العالمية الاولى كاتباً في قضاء الرمادي، كانت ما تزال وقتها قضاء، لم تكن اصبحت لواء أو متصرفية أو محافظة. كان ابي كاتباً في قائمقامية الرمادي واتت الحرب. بغداد سقطت في آذار فزحفوا (الانكليز) نحو الرمادي. وصلوا الى الحبانية. كان هناك مضيقاً بين بحيرة الحبانية ونهر الفرات، الفرات كان يجتاز سناً صخرياً يقطعه، يسمى محلياً سن الذبان. بنيت عليه قاعدة الحبانية. تخندق الاتراك في هذا المضيق، ودافعوا عنه دفاعاً باسلاً، كان اول هجوم بريطاني صده الاتراك في بداية الصيف. ظلّوا صامدين الصيف كلّه.

في هذه الفترة، صيف ١٩١٧، رأينا لأول مرة في حياتنا السيارة، اتت ثلاث سيارات المانية الى الرمادي من الشمال، من حلب. قالوا (الاهالي) عربانة تمشي من دون خيل! خرجنا ركضاً الى الشارع لنرى هذه العربات – الصناديق السود التي تجري بقدرة الله من دون خيل.

الحادث الثاني: كنا نائمين صباحاً، فززونا (اهلنا) من النوم. صحونا مرعوبين فوقنا طيارة سوداء، لم تأت للقصف. أصيب اخي بالرعب. ظل اخي، يفزّ من نومه سنين كثيرة مرعوباً، كان اصغر مني بسنة، لم تترك الحادثة) علي الأثر نفسه.

الحادث الثالث: رأيت بعيني نساء الرمادي في شهر رمضان القائظ، يتطوعن، حاملات قماقم الماء يأخذنها الى الجبهة، للعسكر الترك، فقد كان العطش والحر يقتلهم. كانت الطائرة تقصفهن، فاستشهد منهمن العديد. مازلت اتذكر هذا المشهد. لقد ترك في اعماقي شيئاً عن المرأة العراقية

☐ متى اكتشفت العيد؟

– أي عيد؟

☐ اعياد الطفولة؟ الأضحى، الفطر..

– كانوا ينصبون امام بيتنا في باب المعظم رقم ١/٩ «دولاب هوا». يأتي اهل الجراويات «ابو جاسم تر» كما يسميهم الاتراك. ((موضحاً) كانوا (الاتراك) يسمون ابن البلد «ابو جاسم» وجمعها «ابو جاسم تر». ال«تر» اداة الجمع باللغة التركية. كانوا يبرمون شواربهم (يبرم الهواء قرب خديه ثم يعقفه محاكياً) وجراويات. لفّات حاصل، جراوية بغدادية، أنماط مختلفة. شيخلية وغدام وعصفورية. كانوا (ال ابو جاسم تر) يحبون ان يركبوا دولاب الهواء في العيد. وكانت متعتهم ان يخلعوا يمنياتهم ويضربون اصحابهم تحتهم. كانت وظيفة الذي يدير دولاب الهواء ان يجمع اليمنيات ويعيدها اليهم... حتى

يستعملوها مرة ثانية.
يحصل هذا، ايضاً، في المعارك السياسية، في الاحزاب يحدث ما يشبه هذه اللعبة فمن يصبح فوق يضرب (باليمني) من يصبح تحت.

☐ تتذكر اول عيدية اخذتها؟
- آنة... لا اتذكر ممن. يمكن من ابي أو أعمامي. اتذكر ان اول وحدة نقد قبضتها بيدي هي الآنة الهندية كنا (زكي وعائلته) عدنا من الفلوجة الى بغداد. كان ذلك شتاء سنة ١٩١٧ أو ١٩١٨. أحد اقاربي اعطاني آنة. لم اكن حتى ذلك الوقت تعرفت على النقود. حرت. ماذا أفعل بها؟ خرجت من البيت رايت صموناً ابيض حاراً، اشتريته وعدت الى البيت. ضحك اهلي مني. قالوا: يوجد خبز في البيت... لماذا لم تشتر شيئاً أخر؟

☐ متى لبست اول بدلة؟
- كان ذلك عام ١٩٢٠، اواخر ايلول، اشتراها لي أهلي من محلات الخياطين. غسلوها والبسوني اياها من دون كوي فذهبت بها الى المدرسة . لم ألبس قبلها غير الدشداشة.

☐ كنت تلبس السدارة؟
- لم تكن درجت السدارة وقتها. كنت ارتدي «كلاو قوزي» يعني كلاو الخروف؟ او «فيس» (طربوش) من غير حصيرة. كان الفيس كبيراً ينزل حتى مقدمة جبهتي ويكاد يغطي عيني.
كنت في الصف الثاني الابتدائي عندما انتقلت مع اهلي من طويريج الى الكوفة بـ«الكعت»، سفينة شراعية صغيرة. صادف في ذلك اليوم عيد الزهرة (فاطمة الزهراء) وهو اليوم الذي توفي فيه (الخليفة) عمر بن الخطاب. كان بعض) الشيعة وقتها يعتبرونه يوم فرح! كنا نلبس الطرابيش ونجلس في الكعت. كنا في الجانب الايمن للفرع الرئيسي لنهر الفرات على الهندية أو طويريج. كان هناك كرود تجرها الثيران تسحب الماء من النهر لسقي المزارع. عندما رأوا (الفلاحين) الطربوش إستنتجوا اننا من السنّة من ابناء الافندية البيروقراطية. بدأوا يصرخون (يقلدهم ضاحكاً): نعلة على... شيبة ابو ووووو» (يوضح) يقصدون عمر بن الخطاب كرصنا (إختبأنا) نصحنا الملاحون الذين أضحكهم منظرنا ان نخلع طرابيشنا حتى ننجو من الشتائم...

في وداع ابو يحيى*

د. رحيم عجينة

لم يدر بخاطري ان أقف مؤبناً الرفيق زكي خيري (ابو يحيى) ولا انا فاعل ذلك الآن، لا لأنني لا أرى ولا اعترف برحيله الخالد. فليس هناك اليوم من لا ينحني لقانون الرحيل الخالد ولا يستسلم له. حتى ابو يحيى، العنيد الصلب، التزم وانصاع. أريد ان أكرمه باسم الشيوعيين العراقيين وباسم محبيه، باسم اجيال منهم، على ما قدمه لهم وعلى خدمته الشعب العراقي لتحقيق اهدافه في وطن حر وشعب سعيد.

سيكمل ابو يحيى في نيسان القادم الرابعة والثمانين، وخلال السبعين منها، منذ ان تلقف بذرة الشيوعية عام ١٩٢٥، وهو ابن الرابعة عشرة، عاش حياة زاخرة بالتجارب والنشاط المتنوع. وهذا هو عزاؤنا.

تظاهر في بغداد عام ١٩٢٧ وعام ١٩٢٨، تعرض لهراوات الشرطة، والتوقيف. ثم قرأ وكتب، وبلغة الحكام «تآمر وخان». وسجن وهرب، وسجن ثم تحرر في تموز ١٩٥٨ فناضل في كل الميادين، في السياسة والفكر، في داخل الوطن، في شماله في كردستان، ووسطه وجنوبه، وفي خارج الوطن، في الحركة الشيوعية في البلدان العربية، وفي الحركة الشيوعية العالمية، منتظماً في صفوف الحزب، وقائداً فيه، نجح واخفق، اتفق واختلف، وحاد

* كلمة القيت في الحفل التأبيني الذي اقامته منظمة الحزب الشيوعي العراقي في بريطانيا في ٤ آذار ١٩٩٥.

حيناً عن العرف الحزبي لكنه لم يتراجع عن عقيدته. وجدتُ في هذا ظاهرة يمكن ان تحدث لأي مناضل مثابر لم يتوقف في مسيرة طويلة مثيرة. وبعد ذلك تشرد في المنافي، وودع وهو في غير تربة وطنه. وهنا مصدر ألمنا. ومن مشاعر الألم هذه، اسمحوا لي ان أعبر عن التفاؤل والثقة في ان الألوف منا سيعودون ويبنون العراق، الذي خربت الدكتاتورية الفاشية كل مناحي الحياة فيه وهدمته دول التحالف، قبل ان يودعوا.

قرأت لأبو يحيى، عملت معه، سمعت وتعلمت منه، وكذلك قرأت عنه.

فهو أحد مؤسسي «لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار» عام ١٩٣٤، لتصبح الحزب الشيوعي العراقي في تموز ١٩٣٥، عند ما توحدت المجموعات الماركسية في بغداد والبصرة والناصرية. ففي البصرة كان يعمل فهد وغالي زويد، وفي بغداد تمثلت المجموعة الأولى بعاصم فليح وقاسم حسن ومهدي هاشم، والثانية بيوسف اسماعيل، ونوري روفائيل وجميل توما، والثالثة بزكي خيري ويوسف متى، ومساهمته هذه مأثرة مجيدة له. فالحزب لم يكن اداة نضالية فقط، وانما ايضاً مدرسة تخرج منها العديد. اسمحوا لي ان انقل اليكم ما نقلته مرة الى ابو يحيى:

في اوائل السبعينات وجه حزب البعث دعوة لوفد من الحزب الشيوعي الايطالي. وصل بابيتا، القائد الأممي الى بغداد. والتقى الحزب في بداية زيارته وفي نهايتها، وكان هذا شرطه لتلبية الدعوة. حدثنا بابيتا عن لقاءاته ومن بينها انه سأل احد الوزراء الكرد عن تقييمه للحزب الشيوعي العراقي.

رد الوزير الكردي: لكي لأ أطيل عليك، ان العديد من رجال الفكر والسياسة والصحافة والفن والادب، وبعض الوزراء، مروا في مسيرتهم في تنظيمات الحزب. منهم من واصل وآخر انتقل الى صف آخر.

سألنا بابيتا هل هذا الكلام صحيح ام مجاملة لشيوعي اجنبي زائر؟ واذا كان صحيحاً فما السبب؟

قلنا له، بتواضع: هذا تقييم موضوعي. اما السبب فيرجع الى عوامل عدة، منها انه الحزب الوحيد الذي بقي في الساحة العراقية منذ تأسيسه حتى عام ١٩٤٦، ولم يجد المناضلون غيره ليحققوا امانيهم.

ليسعد ابو يحيى من جديد فالبذرة التي ساهم في زرعها في الثلاثينات ورعاها مع غيره بعد ذلك، قد رسخت جذورها واثمرت غزيراً للشعب وللحزب ولغير الحزب. بالرغم من انها تعرضت للعواصف والكوارث. لكنها صمدت.

* * *

لا أريد هنا ان أسرد السيرة الذاتية للرفيق زكي. فهذه مهمة شاقة، وليس

باستطاعة مثلي اداؤها. لكني مهتم بالتوقف عند بعض المحطات في سفره.
بدأ اهتمامه بالشيوعية في سن مبكرة، عندما كان تلميذاً بالمدرسة الأبتدائية عام ١٩٢٥. هكذا يحددها هو في لقائه، وهو مقيد المعصمين والقدمين بالسلاسل، مع حنا بطاطو، المؤرخ الضليع في حياة الحزب الشيوعي العراقي، وذلك في حزيران ١٩٥٨ في سجن بعقوبة. بجملة معترضة قصيرة اقول: حدثني زكي انه تردد اولاً في الموافقة على اللقاء مع بطاطو وشكك في نواياه. عند تمعنه بكلمات الرجل عاد وجلس اليه. وبالمناسبة ابو يحيى لا يتشبث برأيه وموقفه اذا ما وجد من يقنعه بغيره، وكثيراً ما حدث ذلك.
قال لبطاطو: «ما ازال اذكر درس القراءة حين انهينا مقاطع من مقالة لعبد القادر وجدي الذي قدم فيها صورة كالحة عن البلشفية. وهنا اوقف معلمنا القراءة، وهو رجل متواضع من محلة ألبو شبل، وقال: ان الحكومة البلشفية هي حكومة الفقراء. ولهذا السبب ينظر اليها بالكراهية. انطبعت تلك الكلمات في فكري وانا في دور التكوين وفي مرحلة تقبل الآراء والافكار». كان زكي فقيراً، وأبوه موظفاً في الدرجات الدنيا في سلم الدولة، لم يستطع اعاشة العائلة على الرغم من نكران ذات زوجته الكردية البدراوية. في تلك السنة توفي والده، وتكفل عمه بالعائلة، لكن زكي لم يستطع مواصلة دراسته.
هل كان ابو يحيى يعتبر الحكومة البلشفية حكومته؟ هل هذه المعلومة التي تلقفها في الصغر تفسر، في جانب ما، تعلقه بالاتحاد السوفييتي والمركز الاممي، هذا التعلق الذي لازمه الى آخر يوم من ايام حياته، ودفعه الى الاعتراض على القول ان الاتحاد السوفييتي انهار اخيراً؟!

* * *

حسين الرحال الداعي لاصدار «الصحيفة» و«نادي التضامن» الذي اسسه مع يوسف زينل، هما اللذان اسعفا ابو يحيى بالفكر الماركسي والمنحى الوطني والموقف القومي التقدمي، وهيأ له الفرص للقاء والعمل مع الآخرين. فكان من رواد النادي عام ١٩٢٦ مع عزيز شريف وعاصم فليح وحسين جميل وجميل توما.
وعند قراءته الحركات الثورية في العالم، سحرته شخصية مارا. وكان يتحدث الينا ويشيد باليعاقبة، لا بالجيرونديين. ماذا استلهم ابو يحيى منهم؟
مارا كان طبيباً، من اصل سويسري، هجر الطب الى الصحافة الثورية العنيفة. واصدر صحيفة «صديق الشعب» في باريس عام ١٧٩٢، ثلاث سنوات بعد الثورة، ولنسمها صحيفة «الصحيفة»، وأسس «نادي الرهبان» الثوري، ولنقل مجازاً «نادي التضامن» الذي لاحق لويس السادس عشر الى ان اوصله الى المقصلة.
وصل مارا الى الجمعية الوطنية عام ١٧٩٢. وجده الجيرونديون محرضاً

خطراً لرعاع باريس. حاولوا وضع عنقه تحت المقصلة، لكن روبسبير واليعاقبة خفوا لنجدته وقضوا على الجيرونديين.
أما اليعاقبة فهم عبارة عن نواد يسارية تأسست عام ١٧٨٩، وصل عددها الى ٤٠٠ في فرنسا، وهي بالنسبة لزكي، حزب له فروعه وتنظيماته. هذه النوادي كانت تبشر بالطاعة الحزبية، والمساواة الكاملة، والعنف الثوري، ومركزة الدولة ورقابة اقتصادية صارمة، وبذلك يقفون بالضد من الجيرونديين، المحامين الشباب الداعين الى سياسة ال- Laissez Faire، عدم تدخل الدولة في الاقتصاد، والى فرنسا فيدرالية، يؤيدهم التجار واصحاب الاعمال والصناعيون الناشئون، حاولوا ان ينقذوا لويس السادس عشر، لكنهم لم يفلحوا، ولم يستطيعوا انقاذ انفسهم.
شكل تحرير المرأة احد الاهتمامات الاساسية للرواد الماركسيين في عراق العشرينات. وخاضوا معارك فكرية قاسية من اجله. وتواصل هذا الموقف. فكتب فهد في ٨ آذار يوم المرأة العالمي في عام ١٩٤٤، في جريدة القاعدة: «حركة تحرير المرأة جزء مرتبط بحركة القطر العامة وبالحركة التقدمية». لا بد ان ابو يحيى التقط هذا الموقف مبكراً ليصبح من بين هؤلاء الذين يقيسون اصالة التقدميين والديمقراطية، مع معايير أخرى، بالموقف من حرية المرأة وحقوقها المتساوية مع الرجل.
واذا سمحتم، (وارجو ان لا اخرج كثيراً عن سياق المناسبة) اضيف ان الموقف من القضية القومية وحق تقرير المصير للشعوب، وفي ظروفنا الاعتراف بحق الشعب الكردي فيه واحترام ارادته وحقوق الاقليات القومية، هو مقياس آخر لاصالة الديمقراطية واحترام حقوق الانسان.
حين دعا نادي التضامن طلاب ثانوية بغداد الى التظاهر عام ١٩٢٧ انتصاراً لحرية الرأي، ومرة أخرى عام ١٩٢٨ احتجاجاً على زيارة الداعية للصهيونية الفريد موند لبغداد، كان زكي من الملبين للنداء. وسار مع ٦٠٠ آخرين من جسر الخر الى شوارع بغداد وليتلقى هراوات الشرطة التي كان يقودها المقدم برسكوت، وليلقى في مركز شرطة السراي مع عاصم فليح ومهدي هاشم.

* * *

ان الاحداث والتطورات اللاحقة: كتحركات فلاحي الناصرية، والفرات الاوسط، والازمة الاقتصادية العالمية في اوائل الثلاثينات، واضرابات العمال، وخلو الميدان السياسي من الاحزاب السياسية بعد تجميد الحزب الوطني نشاطه، دفعت كلها الى ان يتنادى ممثلو المجموعات الماركسية الى الحوار والتوصل الى تأسيس لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار كما سبق ذكره. اصبح زكي خيري عضواً في اول لجنة مركزية للحزب، ومسؤولاً عن

تنظيمات الحزب في البصرة والناصرية. لكنه اولى اهتماماً استثنائياً للعمل بين افراد القوات المسلحة، وبخاصة الجيش.
لم يمر وقت طويل حتى ألقي القبض عليه في كانون الأول ١٩٣٥ وسجن في كركوك، الى ان حرره انقلاب بكر صدقي المتحالف مع جماعة الاهالي في ٩ تشرين الأول ١٩٣٦، وتشكيل «جميعة الاصلاح الشعبي» التي دعمها الحزب ودعا الى الانتماء اليها، والى التظاهر بأسمها تحت شعارات «الخبز للجياع»، و«الارض للفلاحين»، و«الموت للفاشست المجرمين»، وعند تفكك تحالف بكر صدقي مع «جماعة الاهالي»، تحول الأول الى ضرب الحزب الذي تبعثرت قواه، الى أن تم اغتيال صدقي في ٧ آب ١٩٣٧.
وفي آب ١٩٣٧ اصبح ابو يحيى على رأس الحزب، وكرس جهداً كبيراً لقواعد الجيش وتشجيع انتمائهم. ونجح في ضم حوالي ٤٠٠ من منتسبي القوات المسلحة، جنوداً ونواب ضباط وهو عدد نوادي اليعاقبة أسري قلبه. لم يعط اهمية للضباط الكبار، بل كان يخشاهم، على مصير الثورة، ونجد من يؤاخذه على ذلك.
تسربت المعلومات الى السلطة عن النشاط الحزبي الجديد.فشددت حملتها، ونجحت في توجيه ضربة جديدة للحزب الوليد، وقائده، وذلك في اواخر ١٩٣٧. فوجد ٦٥ منهم انفسهم في قبضة السلطة، وحكم على عشرين، ثلاثة بالاعدام وهم العرفاء علي عامر، عبد الرحمن داود وضاحي فجر. توسط جعفر ابو التمن لصالحهم وخفف الحكم الى ١٥ سنة سجن. أما الآخرون فحكموا بالسجن لمدد تتراوح بين ٣ و١٠ سنوات. كان نصيب ابو يحيى سنتين ونصف سجن وسنة ابعاد في عانة. ولم يفرج عن الجنود الا في ايار ١٩٤١ بعد ان ارسل فهد مذكرة الى رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني تضمنت، بالاضافة الى القضايا السياسية الهامة المتعلقة بحركته، المطالبة بتحرير العسكريين المسجونين منذ عام ١٩٣٨.
في هذا الجانب من نشاط الرفيق زكي تجدر الاشارة الى ثلاث ملاحظات:
الأولى: ان نشر الفكر الماركسي بين القوات المسلحة يعتبر مأثرة أخرى له، اذ دلته سعة قراءاته واطلاعه على الأدب الثوري الى اهمية القوات المسلحة في انتصار الثورة وتطورها اللاحق.
الثانية: ان نشاطه في الجيش ارعب السلطة، فاضافت الى قانون العقوبات البغدادي المادة ٨٩أ في ايار ١٩٣٨ لتحريم الشيوعية واعتبارها جريمة تعرض معتنقيها ومروجيها بين افراد الجيش والبوليس الى عقوبة الاعدام...
الثالثة: لم اسمع ولا اعرف عن ابو يحيى انه كان يهدف الى تغيير النظام السياسي عن طريق الانقلاب العسكري الفوقي. وعندما نشب الخلاف في الستينات حول دور القوات المسلحة، في التغيير المنشود، كنا معه من

المعـارضين للانقلاب الفوقي. والموقف الذي تبنيناه هو ان الجيش داعم اساسي، وجزء من حركة شعبية أو انتفاضة شعبية، تنضم اليها القوات المسلحة، ولا سيما قواعدها. وبقيت كلمة نواب الضباط والجنود تتردد على لسانه حين يتكلم عن دور الجيش.

* * *

يمكننا ان نقدر الوضع المعقد الذي كان يواجهه الحزب ذي الثلاث سنوات من العمر ويواجهه زكي خيري في قيادته. فالخبرة العملية لم ترق الى مستوى المتطلبات. والمعرفة بأحوال القطر شحيحة والدراسات عنه قليلة. فالعراق لم يكن عصياً على الحكام فقط، وانما كان صعباً جداً ايضاً على المتصدين للعمل السياسي والهادفين الى تغيير جذري. ويكفي ان نذكر ان بلادنا شهدت منذ الاحتلال الانكليزي حتى عام ١٩٦٨، ٤٦ انتفاضة وانقلاباً، وان نشير الى الموزائيك العراقي الاجتماعي الديني السياسي القومي، والطائفي، والى المصالح والمطامع الاستعمارية في الثروات والموقع الاستراتيجي، وحكومات مرتبطة بتلك المصالح، وشعب محروم من حرياته وحقوقه، وخارج من تخلف اقتصادي-اجتماعي دام اربعة قرون من الحكم العثماني.

في مثل هذا الوضع استلم فهد عام ١٩٣٨ قيادة تلك التركة من التنظيم المحكم والمبعثر ليشيد البناء من جديد على اسس متينة بعد عودته الى العراق من زياراته للتعرف على فلسطين وسورية ولبنان، وبعد دراسته في الاتحاد السوفييتي، وبقائه في فرنسا وبلجيكا مدة سنة واحدة. وخلال سنوات قليلة استطاع ان يبني حزباً وحركة جماهيرية ليلعبا دوراً بارزاً في حياة العراق.

أما الرفيق زكي فبعد ان انهى مدة سجنه، واقامته في عانة، اقام علاقة تنظيمية جانبية مع شريف الشيخ لتتبلور لفترة قصيرة، وبعضوية لا تتجاوز العشرات، في اللجنة الثورية الوطنية.

ولكنه انصرف بالاساس للدراسة والتثقيف الذاتي. فأصبح زبوناً مواظباً لمكتبة مكنزي، في بغداد، ليحصل منها على مجلة Labour Monthly الشيوعية البريطانية والكتب الماركسية باللغة الانكليزية.

لم تعمر هذه اللجنة طويلاً. اذ القي القبض على زكي من جديد. واستضافه سجن الكوت عام ١٩٤٧، ليلتقي ويتحاور مع فهد، وليدرك ويقتنع بقدرات فهد القيادية، التنظيمية والسياسية والفكرية، ويهجر تشبثاته السابقة، وينتقدها، ويعلن عن ثقته بالحزب وبقائده الموهوب، وليدعو رفيقه شريف الشيخ والآخرين الى الانضمام الى الحزب، وتحويل جريدة الاساس التي حصل على ترخيصها الى ناطق بأسم الحزب. وبعدها يخرج من السجن عام ١٩٤٨، عضواً في الحزب.

وبعد فترة قصيرة لم تتجاوز السنة، عاد الى السجن عام ١٩٤٩، متنقلاً بين سجون الكوت ونقرة السلمان وبعقوبة ومحاولة فاشلة للهروب عام ١٩٥٢. في تلك الفترة القصيرة انصرف عن التنظيم، ربما بسبب ادراكه ان مجال وميدان تأثيره ينبغي ان ينصب على القضايا الفكرية، سواءاً تلك التي يتوصل اليها أو الأخرى التي يترجمها، وبهذه الوجهة نصحه فهد حينما غادر زكي السجن.

ويتضح اهتمامه هذا من مستمسكات تجريمه في محاكمته في نهاية الاربعينات، والتي عثر عليها في البيت الذي هرب منه في سوق الغزل، عند مداهمة البوليس له. وقدر تقرير الأحالة المخطوطات بمئات الصفحات. وذكر منها:

- الى فقراء الريف، ١٨٠ صفحة، مترجم عن لينين.
- حول القضية الفلسطينية، ١٧ صفحة.
- حول وقف القتال في فلسطين، ١٤ صفحة.
- بحث حول الوضع الداخلي في العراق يهاجم فيه نوري السعيد ومزاحم الباجچي.
- بحث حول المسألة الزراعية ١٠٢ صفحة.
- بحث مترجم عن القضية القومية لستالين.
- رجل آسيا، ماوتسي تونغ.

في نشاطه الفكري السياسي، في تلك الايام، اضطلع ابو يحيى أو عهد اليه، بمهمة شاقة جداً، واستدرك لأؤكد، بمهمة مستحيلة. تلك هي موضوعة الدفاع عن اقامة دولة اسرائيل من الناحية المبدئية. جريدة الاساس الناطقة بأسم الحزب ابرزت في صفحتها الأولى، ١٨ آذار ١٩٤٨، شعار الحزب المركزي: «يا ابناء شعبنا ناضلوا من اجل الحفاظ على عروبة فلسطين واحباط مشروع اقامة دولة صهيونية». ثم تراجعت عن ذلك تدريجياً، وصارت تدعو الى قبول قرار التقسيم، وكذا بيانات الحزب وشعاراته. كان نصيب ابو يحيى في هذا الموضوع كبيراً. ونجد فيما كتبه التشوش والخلط بين ما هو صحيح وتبرير ما لا يصمد امام التحليل العلمي.

كان باستطاعته أن يتمسك بتشخيصه الصائب للتواطؤ الامبريالي الصهيوني الرجعي على الشعب الفلسطيني وعلى الشعوب العربية، والاخطار المحدقة بالقوى الديمقراطية والتقدمية والشيوعية من العرب واليهود، وكان بوسعه القول ان قرار التقسيم واقامة دولة اسرائيل مشروع مفروض بقوة القهر والتآمر، وقد فعل ذلك، وهو مرفوض لهذا السبب من الناحية المبدئية، مثلما فرضت موازين القوى الحالية اتفاق غزة اريحا اولاً وتباينت المواقف بشأنه. لكن ابو يحيى راح ينهك فكره ليقدم دليلاً لا يصمد ليبرهن على ان قيام تلك

الدولة بشكل تجسيداً ملموساً لمبدأ حق تقرير المصير. وهنا كان قاسياً في معالجاته وحواره مع المختلفين والمعارضين.

هل كان هذا موقف الحزب الشيوعي العراقي وحده؟ الأحزاب الشيوعية كلها غيرت مواقفها عندما اعاد الاتحاد السوفييتي النظر وتراجع عن المطالبة بإقامة كيان ثنائي مستقل للعرب واليهود في فلسطين، ودعم قرار التقسيم.

المركز الأممي يقرر، والمركزية الديمقراطية تعبر الحدود وتفرض الطاعة والانقياد الواعي، حتى بعد حل الكومنترن ولما يجرؤ بعد من يدعو الى امكانية الاختلاف والموقف المستقل. ففي هذا العقوق.

واذا اوجزنا مرحلة الثلاثين سنة الأولى من حياة زكي النضالية، من ١٩٢٨-١٩٥٨، نجد انه امضى في السجون الفترات بين:

١٩٣٥-١٩٣٦،

١٩٣٧-١٩٤٠،

١٩٤٧-١٩٤٨،

١٩٤٩-١٩٥٨.

كانت هذه الفترات شاقة، فمن ناحية لم تبرزه كطاقة وكفاءة تنظيمية مثلما ابرزت الرفيق فهد، ومن ناحية أخرى لم تساعده على توظيف امكاناته الفكرية، وهذا ينطبق على العديد من الشيوعيين في تلك الفترة.

* * *

أما في المرحلة الثانية، اي بعد ثورة تموز ١٩٥٨ فنجد ابو يحيى بين:

١٩٥٨-١٩٥٩ عضواً في اللجنة المركزية.

١٩٥٩-١٩٦٢ عضواً في المكتب السياسي

١٩٦٢-١٩٦٤ عضواً في الحزب، وقد حمته منظمة الفرات الأوسط من حملات ٨ شباط الدموية ١٩٦٣

١٩٦٤-١٩٦٥ عضواً في المكتب السياسي.

ومنذ ١٩٨٥- حتى رحيله عضواً في الحزب.

هنا توفرت له الفرص، الوقت والعمل والميادين الداخلية والعربية والعالمية، لكي يحول افكاره ومنطلقاته الى واقع معاش، ولم يقصر في ذلك.

اصبحت اراؤه في المسألة الزراعية والاصلاح الزراعي سياسة حزبية مقرة، نشرت ووزعت على اعضاء الحزب والكادر الحزبي العامل في الريف للاسترشاد بها وتطبيقها. كما وجدت صحافة الحزب، العلنية، اتحاد الشعب، طريق الشعب، الفكر الجديد، الثقافة الجديدة، وكذلك الصحافة الشيوعية العالمية، مساحات رحبة لمساهماته، مثل الرفاق الآخرين ذوي الكفاءات الفكرية والحزب غني بهم.

مثّل الحزب في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» وفي العديد من المؤتمرات

والمناسبات في الحركة الشيوعية العالمية، وزار بلدان اشتراكية عديدة بضمنها الصين ومنغوليا، ودرس تجاربها المشغوف بها.
كان مساهماً فعالاً في وضع سياسة الحزب بكل ما فيها من انجازات واخفاقات. وكلنا نشاركه في المسؤولية، كلٌ من موقعه. ولسنا الآن بصدد تقييم سياسة الحزب ولا تناول تأريخه، فلقد كُتب الكثير في ذلك، والمهتمون ينتظرون المزيد. ومثلما قلت في بداية حديثي، فانني اروم التوقف عند بعض المحطات.
يهاجم البعض ابو يحيى بسبب طموحه، ولا اردد كلمة اتهامه كما يقولون، ليكون القائد الاول في الحزب. ولي هنا ملاحظتان، الاولى: في الفترة التي عملت فيها معه وبقيادته، وهي حوالي ٣٠ عاماً، منذ ١٩٦٢، لم ألمس منه أية اشارة او تلميح الى تطلعه الى ذلك. الملاحظة الثانية: اني اعتقد بقناعة تامة ان ليس محرماً على زكي، وعلى غير زكي ان يطمح الى ان يكون قائد الحزب، بل ارى انه طموح مشروع. وما ازال اتذكر كلمات الرفيق عزيز محمد عندما جاء دوره لالقاء كلمته في مراسيم توقيع ميثاق الجبهة مع رئيس الجمهورية في القصر الجمهوري في تموز ١٩٧٣. قال الرفيق عزيز: «ان للشيوعيين طموحاً كبيراً، ونعتبر هذا طبيعياً وضرورياً. فما ان ينتهي طموح الشيوعي، حتى يكف ان يكون ثورياً».
ولكن ما الذي يجب ان يكون عليه محتوى هذا الطموح؟ وهنا اقتبس كلمات مؤثرة لزعيم حزب العمال البريطاني الراحل جون سمث في خطاب له ليلة وفاته وذلك في حملته لان يصبح رئيساً للحكومة البريطانية القادمة: «ان كل ما نطمح اليه هو ان تتاح الفرصة لنا لخدمة وطننا». ومن الطبيعي اننا نتفق على ان الوصول الى موقع تقديم الخدمة القصوى للحزب والشعب ينبغي ان يتم بالديمقراطية الحقة وليس بالكولسة وما ينشا عنها من اجواء وممارسات غريبة ومدانة.

* * *

الأممية، أو المركز الأممي، عند ابو يحيى نقطة قوة وضعف في آن واحد. ولربما ليس عنده فقط، بل لدى العديد منا، أو كلنا.
روحه الأممية أصيلة، حبه للشعوب الأخرى حقيقي، واستعداده لخدمة الاحزاب الشيوعية الأخرى لا يتوقف عند حد. موقفه من المسألة القومية لا يتزحزح. ولكنه خاضع للقضية التقدمية الاكبر. ثقته بالاتحاد السوفييتي وحزبه الشيوعي تتجاوز الوقائع المعاشة احياناً. فيعترض حين تقول ان الاتحاد السوفياتي انهار، وروسيا اختارت الرأسمالية. يتمسك بتفاؤله الاستراتيجي الثوري ليقفز على حقائق الحياة الملموسة، يخضع الجزء للكل دائماً، والكل بالنسبة له هي قضية الشيوعية وستراتيجيتها، السلام العالمي

اليوم، وهذا ما نذر نفسه له. ويخيل لي احياناً، أو أرغب في ان اتصور، انه يتكلم بغير قناعة امام ما يقترحه المركز الأممي.
اسمحوا لي ان اقدم لكم شيئاً من نشاطنا الداخلي في هذا الصدد. حينما كنا نعد وثائق المؤتمر الوطني الثالث للحزب في لجنة يرأسها ابو يحيى، اتفقنا على تأكيد موقفنا المعارض لموضوعة التطور اللارأسمالي اولاً ورفض تطبيقها على العراق ثانياً. ولا سيما ان موقفنا في الستينات كان هكذا رغم تبني الموضوعة من احزاب عديدة. وعندما كنا نعمل سوية في لجنة تنظيم الخارج عام ١٩٦٤، كنا موحدين في رفضها
انجزنا مشروع البرنامج، وتشاورنا مع بعض الاحزاب الشقيقة حوله. وعقدنا جلسة عمل طويلة مع بعض الباحثين الأمميين. واقترحوا علينا بلباقة ان نفكر جدياً في ان العراق يسير على طريق التطور اللارأسمالي.
ثم تناقشنا بيننا واستعرضنا مواقفنا السابقة التي زكتها الحياة، ولاحظنا ان العديد من الاحزاب تخلت عنه عام ١٩٧٦، العام الذي انعقد فيه المؤتمر.
كان لا مناص، بالنسبة له، من ان نقول شيئاً. وارجو ان لا اثقل عليكم ببعض تصوراتنا وتعابيرنا، كشيوعيين عراقيين، فقلنا: «ان الانجازات والتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحققت خلال مسيرة الثورة الوطنية الديمقراطية، مكّنت العراق من دخول طريق التطور اللارأسمالي».
لم يكن هذا مقبولاً لدى جميع اعضاء اللجنة. فتناقشنا من جديد. واردنا ان نقول شيئاً عن احتمالات مآل النظام القائم، الذي ادعى انه يبني الاشتراكية فاتفقنا على ان نستدرك، حتى وان بدونا متناقضين مع انفسنا. فاستكملنا الموقف بفقرة طويلة فقلنا: «ان طريق التطور هذا لا يعني بعد، فترة الانتقال نحو الاشتراكية التي لها قوانينها العامة (ودرجناها في مكان آخر من الوثيقة). وواصلنا القول: «ان خطر محاولات القوى الرجعية، لارجاع العراق الى طريق التطور الرأسمالي، والتبعية للامبريالية، لا يزال قائماً وهو ما برهنت عليه تجربة اقطار أخرى. فالقوى الرجعية في المجتمع ما تزال تتمتع بنفوذ كبير، وتسعى لعرقلة تطور الثورة. والرأسمال الخاص لا يزال ينمو في المدينة والريف، ويتمتع بنفوذ اقتصادي وفكري وسياسي في المجتمع وفي اجهزة الدولة. ويستمد القوة من القاعدة الواسعة للانتاج السلعي الصغير، ومن صلاته المتشعبة بالرأسمال العالمي، ودعم الأخير له، ومن اعتماد البلاد على السوق الرأسمالية العالمية. وهو يسعى للاثراء المفرط على حساب القطاع العام، واستنزاف حيويته وافراغه من محتواه التقدمي، تمهيداً لتصفيته، والعودة الى طريق التطور الرأسمالي، كما تنمو فئة جديدة من البرجوازية في اطار القطاع العام، من مقاولين ووسطاء وبيروقراطيين، وهي خطر كامن عليه».

وجد بعض الباحثين والمتخصصين، ان هذه الفقرة الطويلة تطور النظرة الى موضوع التطور اللارأسمالي وتعزز اليقظة والحذر من الاستسلام للعفوية. بينما وجد فيه آخرون تبريراً غير مقبول، أو تحفظاً مرفوضاً. ابو يحيي كان فرحاً بهذا الاستنتاج الذي توصلنا اليه بمساهمته النشطة.

* * *

امتلك الرفيق رحي فكراً جوالاً متقداً لا يهدأ. كان يتصدى للتغيرات والتحولات الجديدة، يبحث ويتقصى للوصول الى رأي، يراجع ويصارع مع نفسه، كان حريصاً على الاستنجاد بالمواقف الأممية ويصغي اليها باهتمام وانتباه، وتؤثر على مواقفه، وعندما ينتهي الى رأي، يتملكه. ولا يفوت موقعاً أو مناسبة، الا ويعلن عن مواقفه، ويتخطى كل الصعاب ويتحمل كل المشاق والتبعات من اجل ذلك، هذا ما لمسه العديد من الرفاق والاصدقاء وقوى المعارضة العراقية في موقفه من الحرب العراقية-الايرانية والتغيرات التي طرأت عليها.

لقد قدم تحليلات عميقة وساهم اسهاماً هاماً في صياغة جوانب من مواقف الحزب الصائبة من الحرب وشروط انهائها، ثم تبنى موضوعة الدفاع عن الوطن، بعدما دخلت القوات الايرانية الاراضي العراقية عام ١٩٨٢. ورأى ان ينخرط الحزب وقوى المعارضة في مقاتلة القوات الايرانية حتى وان استلزم ذلك العمل تحت قيادة الدكتاتورية، وليس هنا المجال لاعادة تلك المنطلقات، والمؤيدين والمعارضين لها. فهي منشورة في الصحافة والكراريس. لكن الذي اود ان أكبره في الرفيق زكي وهو على وشك اكمال الرابعة والسبعين، انه وجد من واجبه التوجه الى كردستان حيث ينعقد المؤتمر الرابع للحزب خريف ١٩٨٥، لكي يطرح رأيه ويقنع المؤتمرين به.

جاءنا ابو يحيى، ومعه أم يحيى منهكاً من مشاق الطريق، حمله مرافقه الرفيق حسن خدر على ظهره احياناً، ليقطع به وادياً، او يجتاز قمة جبل، أو يخوض روباراً - نهراً. أصيب عند وصوله الينا بنزيف دموي معدي. قلقنا عليه. لكنه اثار حميتنا وعزز حماسنا واعتزازنا به بعدم اكتراثه للمرض وبحيويته وحين طرح فكره في اجتماعات اللجنة المركزية التي سبقت جلسات المؤتمر وفي المؤتمر نفسه. وعندما حن الرفاق على شيخوخته انتفض واحتج، وأكد شبابه بفكره النشط المتوثب للجديد.

لكنه لم يستطع ان يقنع المؤتمرين بوجهة نظره. أسفت مثل غيري، لاننا اختلفنا، كثيراً. لم يكن لدي اختيار آخر حول موضوعته.

لم يثنه ذلك عن موقفه بل أنه اصبح اكثر تشدداً فيه، فأرجأ انهاء الدكتاتورية لما بعد الدفاع عن الوطن وانهاء الحرب.

واعتمد على منطلقات «التفكير الجديد» لدعم رأيه، لاحقاً. فكتب: «المرحلة

العالمية الجارية مرحلة النظامين العالميين المتكافئين استراتيجياً، الاشتراكي والرأسمالي، وتعني خضوع الثورة في القطر المعني لقضية السلام العالمي».
وكتب:«ان الحزب الذي يعي مسؤوليته ازاء شعبه ووطنه وطبقته لا يستطيع ان يصوغ استراتيجيته بمعزل عن استراتيجية السلام العالمي التي صاغها المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي. وهي من اعظم الانجازات التأريخية للعلم الماركسي-اللينيني والمبادئ الانسانية».
وقع غزو الكويت، بعد نهاية الحرب العراقية-الايرانية وحملات الانفال، مع استمرار النظام الدكتاتوري الذي اثبت انه خطر حقيقي على الشعب والسلام، اللذين لا يمكن الحفاظ عليهما مع بقاء الدكتاتورية في العراق. ومن الطبيعي ان لا يجد الرفيق زكي حلاً إلا بأزالة الدكتاتورية الفاشية واقامة البديل الديمقراطي.
ان زكي، إذ ينظر الى النتائج المريعة لغزو الكويت، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، والى الحيرة التي سيطرت على قوى المعارضة، وعدم قدرتها على العمل المثمر، اذ ينظر الى كل ذلك لم تفته هذه اللقطة. حينما كان يستمع الى تلك الحيرة فيما الوطن يغتصب من قيادة الدكتاتورية وقيادة دول التحالف، قيل له ان بعض قوى المعارضة يريد الاتجاه الى احضان الدكتاتورية وبعضاً آخر الى احضان التحالف، اطلق تعليقاً لاذعاً بقوله: «ينبغي ان تكون الوجهة الى حيث الأمان وسلامة العاقبة»!! دون ان تفارقه مسحة الجد، وهذا طبعه.
وشهدت الأشهر الأخيرة موقفاً متميزاً توصل اليه ابو يحيى حول الحصار الاقتصادي أو التجاري على العراق وضرورة انهائه دون قيد أو شرط، بالاضافة الى مواقفه الأخرى من دول التحالف والسياسة الامبريالية والموضوعات الأخرى المعروفة والمنشورة عن قوى المعارضة.
ومن جديد أصر على حضور المؤتمر الخامس في شقلاوة في خريف ١٩٩٣ لحث المؤتمر على تبني وجهة نظره، ولكنه لم ينجح كل النجاح.

* * *

الرفيق زكي خيري لم يهدأ ولم يعش دون كتب واوراق وقلم، ودون حوار ونقاش. يستمع للرأي الآخر، وفي بعض الاحيان ينفجر ويضيق صدره، ويحترق داخله. الحزب والحركة والثورة هي زاده ومهنته وهوايته، تتقاسم معه في ذلك شريكة حياته أم يحيى. تأنس اليه حين ينطلق، وقد تجلس معه وقتاً غير قصير دون ان تسمع منه كلمة. عنده قصص ممتعة، ويقدم على عمليات مسلية.
تشاورنا مرة في براغ عام ١٩٦٦، حول عزيزنا الجواهري، اذ مرت فترة طويلة من غير ان نلقاه، وقد يفسر أبو فرات ذلك اهمالاً منا، وهذا من كبائر ذنوبنا. فاتفقنا ان نزوره في داره، واقترح ابو يحيى ان يتم السير اليه دون

انذار مسبق. لم يخلُ ذلك من مجازفة فللجواهري أوقاته المخصصة لنشاطه المتنوع.
قاد ابو يحيى العملية، وعندما وصلنا وطرقنا باب شقته، لم يرد علينا. قال ابو يحيى اتبعني. والتقط حجراً من الارض وقال هذه هي كلمة السر بين الجواهري وبعض اخصائه الحسان. رمى الحجر على زجاج الغرفة. فانفرجت الستارة واطل الجواهري علينا مبتسماً واستقبلنا!
لم يعر ابو يحيى اهتماماً لحياته الخاصة، لا لبيته أو اكله أو راحته. لم يشغلْ فكره أمر آخر غير الحزب، والشيوعية، وكدت اقول حتى الآن، ومن المستحيل ان يتذكر الانسان زكي خيري دون ان يقترن ذلك بحياة الحزب الشيوعي العراقي ونضاله من أجل الاستقلال الوطني والاقتصادي والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتقدم.
حرمته الدكتاتورية من وطنه، سجنته وعذبته واسقطت عنه الجنسية العراقيه عام ١٩٥٥، ونفته داخل بلده. وشردته من بلد الى آخر. عند مغادرته سوريا ووصوله الى براغ عام ١٩٩٠، همس في أذني، ان يوم سفري من سوريا كان من اصعب أيامي..
أبو يحيى خلف ثروة فكرية، نتفق مع بعضها ونختلف مع البعض الآخر. علينا ان نجمعها وننشرها، والعناية مطلوبة بمخطوطاته. وقد كتب شيئاً حتى ليلته الأخيرة، كما سمعت على الهاتف من أم يحيى حين واسيتها صباح رحيله. أبو يحيى اعطى كل شيء للحزب ولم يأخذ شيئاً.
الى عائلة الرفيق زكي خيري كل الاحترام والمشاعر القلبية، والعواطف الحارة الى الرفيقة أم يحيى ووداد ويحيى!!

* * *

عاش مناضلاً ومات معلماً

هادي العلوي

عمر من النضال يستغرق القرن العشرين، قرن التحولات الكبرى، منتظم لا هدنة فيه.. بين ساحات المعارك والسجون والمخابئ والمناقي: حياة هي المعنى المندمج في الذات، ترى السعادة تحت الرايات المشرعة والاستراحة فيها هي العناء، والفارس اذا استراح فعلى صهوة جواده. واذا نام فبعين واحدة. تقطعت السبل بالعديد من اقرانه ولم ينقطع به سبيل. ناموا ولم ينم. ران على قلوبهم الريب ولم يرتاب، لان يقينه هو يقين التراب المشبع بماء الرافدين، وصموده صمود النخلة اذا انفردت: جذعاً لا تهزه الرياح وجذوراً متوغلة في الاعماق. يستقبل ريح السموم بوجه سفعته شمس بغداد الحرة لكي يهب ارضه وناسه نسيم الحرية.

عندما تلقى الضربة الاولى من شرطة الانتداب في المظاهرة ضد الصهيوني البريطاني الفريد موند كان في السابعة عشرة، سن اللعب والصبوة والدلال، لكنها كانت معركة لا مباراة في ملعب للصبيان.. عرف يومها ماذا تعني بريطانيا. وكانت ذكريات ثورة العشرين لا تزال غضة وحكاياتها تملأ الفراغ السياسي الذي تركه رحيل قادتها... ذلك الصبي الذي حمل أثر الضربة في معركة لا في ملعب كي تتفتح مواهبه النضالية المبكرة عن وعي متوحد لقضية الوطن وقضية الشعب... قال لي يوماً: انا وطني قبل ان اكون شيوعي وقد دخلت الحزب لكي اناضل ضد بريطانيا اولاً. فأنا من بيت برجوازي متوسط لا بيت بروليتاري. لكنه كان شيوعياً بقدر ما كان وطنياً. وهو لم يدخل الحزب

* القيت الكلمة في الحفل الذي اقيم بدمشق في اربعينية الفقيد.

وانما شـــارك فـي تأسيســه. وفـي تجربتــه يتبلور ذلـك المزج بـين الوطني والشـيوعي ليرد على القول الكاذب بـأن الشيوعي لا وطن لـه.. كنت اطالع في كلماتـه حبات الرمل حينما ينحسر عنها ماء دجلة، واذا ذكرت له بغداد سطع وجهـه بالكبرياء. كـان عراقي المادة والـروح وكـان في نفس الوقـت يتحسـس عمق انتمائه الى هذا المحيط الحضاري الكبير الذي تتداوله شعوب تلتقي في شـعب وبلدان تجتمع في بلد.. كتب الي وانـا في الصين: متى تعود الى وطننا الثاني سـوريا؟ وكـان قد اسـتقر في منفاه السـويدي فلم يرى فيه وطنـاً لمثله، وهـو أممي لا يفرق بين البشـر ويرعى اصول الضيافـة ويحـترم حقوق أهلها. لكن امميته ترعرعت في وطنيته فلم تتزاحما ولا جارت احداهما على الأخرى. وكـان فـي هـذا التـأصل مـا بـين الوطنـي والاممـي، وقبل ذلـك بـين الوطني والشـيوعي يحمل سـر الصمود وسر المواصلـة وسر الوعي.. الاسـرار الثلاثة التي يتشـكل منها تاريخـه وتنتظم فيها سـيرته. وكـانت سـيرة مناضل بمعنى الصمود والمواصلـة والوعـي. ومن تكـامل هذه الاسـرار يكون الصـدق.. ماذا اريد بـالصدق؟ اردت ان اقول انه كـان صادقاً مع النفس والآخر فيمـا حمله من مبادئ وما تحملـه من اعباء. فجاءت حياتـه النضاليـة وحياته الشـخصية نسيجاً واحداً. كـان شـيوعي الفكر شـيوعي السيرة فـي آن، وعاش كما عاش انبيـاء الشــيوعية واتباعهم فـي كل مكـان وفي كل عصـر من ايام يسـوع الى مزدك الـى جندب الى حمدان.. لم يبحث عـن مغنم يسـتأثر به ثمنـاً لنضـال أو صدارة. تساوت عنده الاشـياء امام الهدف الاكبر، وطنـه وشعبه وأمته: التعب والراحـة، الجوع والشـبع، وكـان يناضل في المقدمـة كما ينـاضل في المؤخرة بريئـاً من وسـاوس الزعامـة براءة الحكيـم يأو مـن العرش الامبراطوري... ولم يكن منزله ليختلف عـن سجنه أو مخبئه.. تواضـع كثيراً حين قال لي انه ليس مـن بيت بروليتـاري، فقد كـان الفقـر من مقومـات شـخصيته التـي تأنسـنت بالنضـال الطبقـي. وبالفقر يكون الشـيوعي شـيوعياً ويشتد عـود المناضل كما تشتد الشـجرة البرية بالعطش فتسـتعصـي على الكاسر.

بهـذا الصـدق، حيث يتجوهر الفكر فـي الذات، كان اكتنانـه للثوابت حين بدأت تهتز مع اهـتزاز المركز. ومع انـه بـدا للناس فـي المـاضـي واحداً من المركزيين الخلـص فقد كان له من سـر الاصالة ما يكفي للثبـات وسط الزعازع فلم تهتز منشـآته بـالزلزال. وهكذا حمـل الرايـة التـي تخلى عنهـا الكثيرون ان لم اقل الاكثرون. وتبوأ موقعـه في الساحة الجديدة القديمة ليكون معلمـاً.. فقد واصـل حمـل الرايـة حتى سـاعاته الأخيرة لانـه يعلم انهـا رايـة الوطـن ورايـة الناس، وسيأتي بعده من يحملها حتى تصل الى مستقرها.

عـاش مناضلاً ومات معلمـاً. ومع بشائر عودة الوعي سـتكون كلماته مصابيح طريـق يهتـدي بهـا الوطنيون. فهـي فـي ذلـك الارث الـذي يمكـث فـي الارض

ويذهب غيره جفاء.
بيّن لنا الاشياء حين وقعت البلبلة اشار بيده الى الطريق وحدد معالمه، فكان المرشد لمن يناضل في سبيل وطنه ضد العدو الامبريالي القديم الجديد، لمن يناضل في سبيل شعبه ضد العتاة المحليين وسارقي خيراته بالاشتراك مع قوى النهب الامبريالي، لمن يريد ان يكون وطنياً صادقاً وشيوعياً صادقاً، لمن لا يفصل النضال ضد الدكتاتورية والبلطجة عن النضال ضد الامبريالية ومخططاتها واطماعها الثابتة في الوطن ومحيطه، ولمن يوحد الوطن في الشعب لئلا يكون وطناً للسماسرة والطفيليات. وسيأتي اليوم الذي تصبح فيه راية زكي خيري راية العراق ويرتفع فيه تمثال زكي خيري وسط النخيل ليحرسها وتحرسه من لصوص الاوطان ومستعبدي الشعوب.
قال ابن عطاء السكندري: الكون كله ظلمة، وانما اناره ظهور الحق فيه.. والحق هو الباري ممشوجاً بنور الانسان لان الباري والانسان ولدا في ساعة واحدة ومن بطن واحد، ومن هنا سريان الحق في الموجودات واستضاءتها به. وكلما اظلم وجود ظهر الحق بشبحه الالهي البشري ليرفع عنه الظلمة ويفتحه للحياة.. وقد اظلم وجودنا منذ سنين فكان لا بد من ظهورات للحق هنا وهناك تنبعث على شكل وميض خافق كالذي ترسله السحب الماطرة قبل ان تسقي البقعة بمائها. وكنت اخشى ان لا تصح على العراق امثولات ابن عطاء. لكن زكي خيري حمل الناموس الشامل للسريان الوجودي فكان ثباته في موقعه واحداً من تجليات الحق في قيامة الظلام. اقول هذا واترك التفاصيل للمؤرخ. والناقد فالحق في ظهوراته يعلو ويهبط، يستقيم ويميل، يصيب ولا يصيب، الا انه يبقى هو الحق في مداره المستقل عن مدارات الظلام.

سلام على الزهرة الفارد تستأنس بالوحشة لتحتفظ بالعطر واللون
سلام على الحروف العاليات يحملن الرجاء ولا يسترقن الصدى
سلام على الزكي نفساً والزكي فكراً والزكي وطناً

من لم تزده النكبات الا يقيناً، وتوالي الخيبات الا عناداً، وهو في صفواه يجدد نداء المعاندين من ايام حكيم المعرّة لينتظموا في سلك السائرين في الدروب البعيدة نحو الغايات القصوى.

ارى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تريد له العنادا

دمشق الشام
٢٧ آذار ١٩٩٥
٢٦ شوال ١٤١٥

اذن فقد غادرنا ابو يحيى*

محمد سعيد الصكّار

إذن فقد غادرنـا (أبو يحيى) الى الأبد، وغـاب ذلك الرجـل الذي مـلأ اجواء الوطن بأمثولة الصفـاء والوفـاء والمسـؤوليات الجسـيمة والعنـاد المرير على مواصـلة المسيرة التقدمـية في عراقـنا المحاصر. وهو إذ يغادرنـا حميداً، يسحب وراءه تاريخاً حافلاً من الحضور الإنسـاني والفكري والسياسـي في ذاكرة الحركة التقدمية وفي قلوب عارفيه ومحبيه.

كـان اسـمه، وهو فـي السـجن، يرنّ في قلوبنـا، ويملأ نفوسـنا هيبـةً واعتزازاً. وفي واحـة (إتحاد الشعب)، حيث كنا نسميه (أبو غـايب)، كانت هيأته وهيبته ووداعته وتاريخـه العريق يركّز فينا إحساسـاً بأبوته الروحية لنا، نحن شباب ذلك الوقت. ولـم نكن نعلم ان فـي قرارة هذه الهيـأة المهيبـة، والقامـة الفارعـة، والوجـه الصـارم، روحاً شـفافة من الفكاهـة والنكتـة والدعابـة، وذاكرةً تختزن الكثير الكثير من ملامح المجتمع العراقي.

كـان الوضع في الجريدة وضعاً خاصاً ونـادراً. ففي حين كنا، قبل ذلك، ننظر الى الحـزب نظرة جلال لا يقهر، بعيدين عن قيادتـه وقراراتهـا، صرنـا في الجريـدة نعيش في صميم الحـزب، بين الوجوه الأسـطورية التي تسـيّر دفّتـه، والمسودات المشطبة والمعدلة، والحبر الطري لخطوط سياسته وقراراته المكتوبة على اوراق من نوعيات وحجوم متنافرة، وكتابات أنيقة تارة، ووعرة لا تُقرأ

*كلمة في الحفل التأبيني الذي اقيم في باريس للفقيد زكي خيري بتاريخ ١٩٩٥/٣/١

تارة أخرى.
وكان اللقاء اليومي بتلك الشخصيات، يجعل نفوسنا تكتنز بالبهاء، وتعزز فينا هيبة الفكر، وتملأنا زهواً بأننا نساهم معها في بناء الوطن.
كنا نتغدى مجتمعين في مكاتب الجريدة في باب الشيخ وفي شارع الشيخ عمر. وعلى مائدة الغداء كانت النفوس تتخفف قليلاً من ضغط العمل. أما اذا كان (أبو غايب) بيننا، وغالباً ما يكون، فتستحيل الجلسة الى احاديث وطرائف ممتعة في التاريخ والسياسة والإقطاع والصحافة، وما تشع به ذاكرته المتوهجة.
حدثنا ذات يوم عن دور الصحافة الهزلية، وكان كثير التوكيد على اهميتها، قال: «عندما نوى أحد سياسيي العهد الملكي، تأسيس الحزب الفاشي في العراق، انصرفت الصحافة الوطنية الى التنديد به، وشرحت في مقالات كثيرة مخاطر الفاشية، وخطورة وجود حزب فاشي في العراق. ولكن كل تلك المقالات لم تنفع، وظلت لافتة الحزب معلقة على واجهة مقره، الى ان تصدت لها جريدة (حبزبوز)، وكتبت مقالاً طريفاً بعنوان (الحزب الفاشوشي)، سفهت فيه هذا الحزب وافكاره، ودعت الى الغائه. في اليوم التالي رفعت اللافتة، وانتهى أمر الحزب الفاشي نهائياً».
وذات يوم كنا نتمشى معاً في الرواق الطويل أمام مكاتب الجريدة في الشيخ عمر، وكان يشرح لي باسهاب بعض القضايا التي سألته عنها. وكنا نقطع الرواق جيئة وذهاباً مرات عديدة، حتى كلت قدمي، ولم اعد قادراً على مواصلة المشي، في حين كان هو يخطو خطوته الواسعة بلا كلل. وبعد تردد واستحياء من هذا الرفيق الكهل الذي يعلمني، قلت له: «يا رفيقي اعذرني، لم أعد قادراً على المشي، فهل لنا أن نستريح قليلاً في المكتب ونواصل الحديث؟» فانتبه مرتبكاً، وقال: «عفواً رفيق، لم أنتبه الى ذلك، اعذرني، فالمشي الطويل عادة تعلمتها من السجن، وما زالت عالقة بي».
وانني إذ استعيد هذه الذكريات عنه، أدري ان الآخرين سيتحدثون كثيراً عن دوره المرموق في قيادة الحزب، وعن مكانته في تاريخ الوطن، وعن فكره وثقافته الناضجة، وأنا لا أريد ان ازاحمهم في ذلك فهم أكفأ مني عليه، ولكنني أحب ان أشير بهذا الى ما كان يتمتع به هذا الرفيق الراحل من حاشية رقيقة ومعشر لطيف، وبساطة لا يوحي بها مظهره الجاد.
على ان أعز ذكرياتي مع (أبو يحيى) كانت عام ١٩٧٤، عندما كتب أحدهم، ولا أريد ذكر اسمه هنا، مقالاً في جريدة (الثورة) بتوقيع (أبو ريّا)، يرحب فيه بمقدم ميشيل عفلق الى بغداد، ويضفي عليه صفات النبوة، وهو مقال مليء بالمداهنة والتملق. فظن الناس انني انا كاتب المقال. ودار الحديث عن المقال وعني في الأوساط الثقافية بشكل حاد لعدة أيام، وقامت تساؤلات عن صحة

نسبته الي، وخاصة في محيط التقدميين، وبولغ في الضجة والمناقشات الى حد جعل الحزب يتخذ قراراً بإيقاف مناقشة الموضوع.
جرى كل ذلك وأنا لا أدري، لأنني كنت طريح الفراش في البيت. ولم اعلم به الى ان عادني صديق بعد ايام، ونقل اليّ ما يدور في الوسط الثقافي.
كانت اللعبة دنيئة، أغضبتني، فحملت نفسي الى الجريدة، وعرفت كاتب المقال، وعنّفته امام سكرتير التحرير، ثم رحت الى ((طريق الشعب) لتوضيح الموقف، واذا بالرفاق يعلمونني بوجود أبو يحيى في الجريدة، فذهبت اليه فاستقبلني بحفاوة بالغة، ولاحظ وضعي المتوتر، فبادرني بالسؤال:
«أشو وضعك موطبيعي»؟
قلت: أما سمعت بالموضوع؟
قال: سمعت؛ وأصدرنا قراراً بوقف مناقشته، وانتهى الأمر.
قلت: هذا جميل، اشكركم. ولكن لست أنا من كتب هذا.
قال بهدوء وأبوة: ولماذا انت منفعل الى هذا الحد؟
قلت: لأن هذه كذبة لئيمة.
قال: انت معروف ومواقفك واضحة، وهذا المقال لا قيمة له.
قلت: ولكن عليّ إيضاح الموضوع للناس.
قال: (طريق الشعب) جريدتك، اذا شئت نجري لك مقابلة وننشرها فيها. واذا شئت فاكتب ما تشاء وسينشر، ويكون ذلك أفضل ايضاح، ألا يرضيك ذلك؟
قلت: لتكن مقابلة.
قال: مثل ما تحب. اشرب شايك براحة، وانسَ الموضوع، واسمع هالسالفة:
«فد يوم المرحوم شعلان أبو الجون راد يخطب بالعشيرة. فنصبوا له منبر، وجاء بيده عوجيه، واثنين من جماعته يتجّوله، وهو يرعش من الكبر. شافته العشيرة، كلهم قاموا له. واحد من الكاعدين كدام قال للبصفة: شوف الشيخ يرعش.
فسمعه الشيخ شعلان، فخزره، ونفض ذراعه من الاثنين اللازميه، وضرب عوجيته بقوة عالكاع، وقال: أرعش موش أرعش ذاك آنه»!
لقد اغرورقت عيني بالدموع، فقمت وعانقته وودعته، ولم أره بعدها الا حين جاء الى باريس قبل سنين.
وها هو اليوم يودعنا، غريباً عن الأرض والناس الذين نذر لهم عمره. وعذراً لكم وله على أنني خرجت عن جو الرثاء الى اجوائه الانسانية، فلو كان حاضراً الآن لعقّب على قولي بسالفة أخرى. فسلام عليه في حضوره وغيبته، وسلام عليه مناضلاً ومثقفاً وانساناً رائعاً من هذا الوطن الرائع. وعزاءً جميلاً لوطنه ومواطنيه وحزبه المناضل ورفاقه الشرفاء، وسلام عليكم.

زكي خيري والمسألة الزراعية في العراق

نصير سعيد الكاظمي

لم تتركز الأنظار يوماً على الوضع الزراعي في العراق وما يحيط به من مشكلات قدر تركزها الآن حين بات تأمين لقمة العيش اليومية الشغل الشاغل لكل عائلة عراقية، وحين غدا الفرد في العراق لا يأمل في الحصول الا على جزء يسير من احتياجاته الغذائية، ويموت الأطفال بالالوف لأنه بات يتعذر توفير ما يحتاجونه من حليب ومواد غذائية أساسية أخرى جراء سياسات النظام الدكتاتوري الحاكم المدمرة التي اوقعت الشعب بين كماشة الحصار الاقتصادي الدولي والتبعية الغذائية.
لقد ظل التخلف الزراعي العام في العراق والحياة البائسة التي يحياها الفلاحون العراقيون، والمشكلات المنوعة التي أحاطت بالريف العراقي طوال العقود الماضية، والتي يمكن حصرها بمصطلح المسألة الزراعية، موضع انتباه القوى السياسية في العراق، وطورت كل منها، من منظورها الطبقي، سبيلها الخاص لمعالجة هذه المسألة. لكن أياً منها لم يبزّ الحزب الشيوعي العراقي في أسبقية وشمول وعمق الموقف الذي وقفه منها. ولقد ظل هذا الموقف لدى الحزب الشيوعي يتطور منذ نشأته الأولى، وتغتني وتتضح مضامينه في مجرى الصراعات السياسية والفكرية التي خاضها. وحين يعود المرء الى دراسة السبيل الذي سلكه الحزب لمعالجة هذه المسألة سيجد نفسه وجهاً لوجه أمام الدور الخاص والرائد الذي لعبه زكي خيري في الانتقال بهذه المعالجة الى مرحلة أعلى اقترنت بالاصلاح الزراعي في العراق منذ ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨.

إنتبه الحزب الشيوعي العراقي، منذ انبثاقه، الى الوضع المتردي الذي يعيشه الفلاحون وأثره على الأوضاع العامة للبلاد. ففي اول بيان يصدره في ١١ آذار ١٩٣٥ وذيله بتوقيع اللجنة المركزية لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار (وكان هذا هو الأسم الذي اطلقه مؤسسو الحزب على حزبهم في سنته الأولى قبل ان يستبدلوه بأسم الحزب الشيوعي العراقي) جاء، وفي مقدمة المطالب: «الغاء جميع الديون في ذمة الفلاحين، وأنقاذهم من جميع الضرائب الباهظة وتوزيع أراضي الدولة على الفقراء منهم، وضمان القروض الضرورية لهم». وعاد في بيانه التالي الذي اصدره في ٣١ آذار ١٩٣٥ الى تأكيد مطالبته بتوزيع جميع الأراضي الأميرية على فقراء الفلاحين والغاء جميع الديون المتراكمة على الفلاحين». وكتبت جريدة (كفاح الشعب)، اول جريدة له، بعد أشهر من ذلك، داعية الى توزيع الأراضي على الفلاحين، والغاء جميع القروض والرهنيات التي تتعلق بالأرض، ومصادرة الأقطاعيات الزراعية. ونشط في ايار من ذلك العام، بوجه خاص، لمساندة فلاحي منطقة سوق الشيوخ حين تحركوا للمطالبة بالغاء ملكية آل السعدون والغاء ما يعرف بحق «السركلة»(١). وفي المظاهرة التي نظمها وقادها الشيوعين في بغداد في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ (بعد انقلاب بكر صدقي)، كانت الجماهير المتظاهرة تردد شعار الشيوعيين «الأرض للفلاحين».

ومنذ ان استأنف الحزب نشاطه عام ١٩٤١ بقيادة الرفيق يوسف سلمان (فهد) أعار انتباهه الى أوضاع الفلاحين، وشرعت نتشر صحيفة (الشرارة) اولاً ثم (القاعدة) من بعد، الأخبار والتقارير عن مشاكل الفلاحين والأرض، وانصرف الى جمع البيانات عن الريف وتوصل الى ان علة التخلف الزراعي وبؤس الفلاحين ناجم عن نهب الشركات الاجنبية التي كانت تحتكر تجارة تصدير المحاصل الزراعية، لا سيما الحبوب والتمور، وفرضها الاسعار الاحتكارية للصادرات والنقل البحري، والنهب الذي يمارسه الشيوخ ورجال الدولة المتنفذون والملاكون والآخرون للأرض وارهاق الفلاحين بالديون والربا الفاحش إضافة للضرائب المباشرة وغير المباشرة، وتابع عملية تجريد الفلاحين من اراضيهم باسم الطابو واللزمة، ونبه الى ان الفلاح أصبح يرتبط اكثر فأكثر بالسوق الرأسمالية المحلية والأجنبية كمنتج وكمستهلك، وأن العلاقات الرأسمالية تزحف الى الريف عبر مسالك مختلفة، ودعا لذلك النظام السائد في الريف بالنظام شبه الاقطاعي، وان هذا النظام يتحمل، بعد العامل الاستعماري، مسؤولية التخلف في التطور الصناعي في البلاد(٢).

وفي العقد التالي دخلت الحركة الفلاحية طوراً جديداً تميز بارتفاع الوعي الطبقي لدى الفلاحين، وبتمايز طبقي اكبر بين فئات الفلاحين، وبأمتداد تأثيرات وشعارات الحزب الشيوعي الى تجمعات الفلاحين في عدد من

مناطق البلاد لا سيما في ارياف العمارة والديوانية والسليمانية واربيل.
وخاض الفلاحون نضالات عديدة إصطدموا فيها بالسلطة الحكومية التي سارعت في جميعها الى الوقوف بجانب الملاكين، وكان لهذا الأمر أهميته الكبيرة في تفهم الفلاحين طبيعة السطة مما هيأهم الى الوقوف بجانب الثورة التي اندلعت في الرابع عشر من تموز.
ولكن رغم ان الحزب الشيوعي، في تحديده لطبيعة النظام القائم في الريف العراقي، والعوامل الأساسية التي افضت للتخلف في الزراعة وللبؤس الذي يحيق بالفلاحين، لا سيما الفقراء منهم، والمطالب الملحة التي يتطلبها العمل لأنقاذ الفلاحين من هذا البؤس، كان يسبق كل القوى السياسية القائمة في البلاد عهد ذاك، ورغم انه سبقها جميعاً كذلك في اقامة الروابط الوثيقة مع الفلاحين في عديد من المناطق الريفية، وفي اقامة ركائز تنظيمية متينة في عدد منها وتنشئة كادر فلاحي تمرس في قيادة النضالات الفلاحية، الا ان فهمه للمسألة الزراعية ووعيه بدقائقها وتعدد وتنوع أوجهها ظل في حاجة الى اجراء دراسات معمقة وشاملة وصياغة شعاراته العملية الخاصة بكل جانب منها. وكان يرجع هذا القصور، في الاساس، الى تواصل الأضطهاد البوليسي الذي ظل يصب عليه دو انقطاع، والذي كان يمنعه دون تطوير وتكريس الطاقات الضرورية لمعاينة وتدارس المشكلات الزراعية المنوعة والواسعة، ولهذا السبب تأخر طويلاً اقدام الحزب على وضع الدراسات الضافية للمسائل ومناقشتها مع اصحاب العلاقة من الفلاحين وغيرهم على نحو ما فعل بعد ثورة ١٤ تموز. ولا يفوتنا ان ننبه هنا ان هذا القصور لم يظهر في عمل الحزب الشيوعي وحده. فلا القوى السياسية المعارضة الأخرى كانت قد توصلت الى دراسات جدية، ولا الحكومة ذاتها، بما كانت تمتلك من امكانات، قد تناولت هذه المسألة بالدراسة الشاملة، وفي افضل الأحوال لم تقترب منها الا في اطار تقارير إدارية عن بعض المناطق الزراعية.
وقد اتضح للحزب المصاعب الجدية التي تعترض سبيله في هذا حين عجز اثنان من رفاق الحزب كُلفا بمهمة دراسة الأمر في اوائل الخمسينات لتعذر المصادر الضرورية(٣).
من الضروري الانتباه هنا الى ان المسألة الزراعية في العراق كانت ذاتها تتسم بالتعقيد الكبير الذي نشأ ليس فقط عن تنوع الزراعات والظروف الطبيعية التي تحيط بها، وانما ايضاً عن التنوع الكبير في طبيعة الملكية الزراعية التي هي اساس المشكلة، ويكفينا هنا ان نتوقف عند الحقائق التالية:
- حتى مطلع القرن العشرين لم تزد الأراضي المزروعة في العراق عن ٥٪ فقط من الأراضي الصالحة للزراعة، ويقدرها داوسن في تقريره ب٩٣٦٥٠٠

دونم عام ١٩١٣، وكان أغلب سكان الريف ينصرف الى الرعي ويسود نظام «الديرة» أي التصرف المشترك في أرض العشيرة.
- كانت الأرض المزروعة وغير المزروعة ملكاً للدولة على مر العهود، وانحصرت الملكيات الخاصة للأرض في مساحات محدودة لم تزد حتى عام ١٩٣٨ عن بضعة عشرات الألوف من الدونمات(٤).
- عملت سلطات الانتداب البريطاني، والحكم الملكي من بعد، على تمليك شيوخ القبائل ورجال الدولة المتنفذين وأثرياء المدن الأراضي الزراعية بوسائل مختلفة، وابتدعت لذلك القوانين التي تؤمن نهب الأراضي الزراعية وحرمان فلاحي القبيلة من حقوق التصرف المشتركة التي توارثوها من قبل وأخذت بها الأعراف وقوانين الأرض العثمانية. وعلى هذا النحو أصبح هؤلاء الملاكون يمتلكون طبقاً لقانوني التفويض بالطابو والمنح باللزمة حوالي ٢٣ مليون دونم، ويتصرفون تصرف المالك بحوالي خمسة ملايين دونم أخرى من الأراضي الأميرية الصرفة بأسم الإجارة.
- ان كثيراً من الأراضي الزراعية والصالحة للزراعة هي أراض ديمية، أي تعتمد زراعتها على الأمطار التي يتفاوت سقوطها بين سنة وأخرى، وتتراوح معدلاتها بين ٢٥٠ و٨٠٠ ملم في السنة، والزراعة الشتوية المضمونة فيها تنحصر في تلك الأراضي التي يزيد سقوط المطر فيها عن ٤٠٠ ملم مكعب، أي تلك التي تقع وراء ما يعرف بالخط المطري. اما الزراعة في ما دون هذا الخط فهي معرضة للفشل مسببة خسارة الزراع. اما في الصيف فلا يزرع من هذه الاراضي إلا تلك التي تقع بمحاذاة الجداول والعيون.
- على هذا النحو اصبح العامل المحدد الأول توفر الماء. لذلك فالزراعة المضمونة تتم في المناطق الأروائية، وهذه تروى اما سيحاً عن طريق المشاريع والجداول الاروائية التي انشأتها الدولة وتبلغ مساحاتها حوالي ستة ملايين و٧٤٠ ألف دونم عام ١٩٥٨، أو تروى بالمضخات والوسائط الأخرى المنصوبة على الأنهار وكانت تبلغ آنذاك أربعة ملايين و٩٠٠ ألف دونم.
- وفي الريف العراقي هناك تفاوتات تفاضلية كبيرة في الاراضي الزراعية تبعاً لقربها من المياه والمدن وطرق المواصلات ونوع المحصولات ونوع التربة.. الخ.
الى جانب هذه العوامل نضيف عاملين آخرين أسهما في عرقلة الجهود لأجراء الدراسات العلمية الشاملة للمسألة، اولهما: الافتقار الى الاحصاءات الدقيقة والشاملة لأوضاع الزراعة والريف عامة، ولم تشرع الدولة في اجراء مثل هذه الاحصاءات الا في السنوات القليلة الأخيرة التي سبقت ثورة ١٤ تموز. وثانيهما التخلف العام في الحياة الاجتماعية والافتقار الى طرق المواصلات المنظمة والأمن مما لا يسمح باجراء دراسات عيانية للمناطق

المختلفة، وعلى هذا بات فهم الأوضاع الملموسة للريف رهناً بالأمكانات الخاصة للقوة السياسية المعنية ونفوذها بين جماهير الفلاحين هنا أو هناك.
في هذا الاطار العام من الصعوبات التي تكتنف البحث في المسألة برزت مساهمة الرفيق زكي خيري في البحث بشأن الاصلاح الزراعي. ويعود اهتمامه بالمسألة الرزاعية الى أواخر الاربعينات. وقد حفزه للأمر ما كان يجري في الصين، والدور الذي لعبه الفلاحون في الثورة الصينية. وتوصل الى القناعة بأن الثورة في البلدان الزراعية كالعراق تتقرر بمدى مساهمة الفلاحين فيها. وبدافع من هذا الحافز اقدم في عام ١٩٤٨ على ترجمة ونشر كتاب (أدجار سنو) عن ماوتسي تونغ. وفي ربيع العام ذاته نشر مقالاته عن (بدل الملاكيّة) في جريدة الأساس لصاحبها شريف الشيخ(٥). كانت مقالات (بدل الملاكيّة) هذه من أهم ما نشر في الصحيفة، وقد اظهرت مدى الاجحاف الذي كان يلحق بالفلاح بأسم حصة الملاك. كان الملاكون وأصحاب الضخاتوالمرابون (وكثيراً ما كان الملاك يؤدي الادوار الثلاثة المذكورة مجتمعة) يستحوذون على معظم الحاصل الزراعي ناهيك عن الأتاوات المختلفة التي كان يتعين على الفلاح ان يدفعها للشيوخ طبقاً للإعراف. ان الفلاح ما كان يحصل لقاء السماح له بزراعة قطعة الأرض التي تخصص له الا على نصف الحاصل في أفضل الأحوال، أما في حالات كثيرة فدون ذلك بكثير، هذا الى جانب ما كان يتعين ان يدفعه لقاء تزويده بالبذور وبالمعدات الزراعية الأخرى اذا كان لا يملكها، والماء اذا كانت الأرض تسقى بالواسطة، والاتاوات الأخرى التي أشرنا اليها.
بيد ان مساهمات زكي خيري الأساسية جاءت بعد أن حررته ثورة الرابع عشر من تموز هو ورفاقه الآخرين من السجون بعد ان أمضى فيها عشر سنوات حرمته من فرصة مواصلة ما كان قد بدأه في مقالاته تلك، وبعد ان غدا الاصلاح الزراعي يواجه الثورة وجهاً لوجه، وتعين على الحزب أن يتخذ موقفاً محدداً يتفق والمرحلة الجديدة في حياة البلاد، وكان عليه ان يحقق ذلك في أيام معدودات اذ شرعت السلطة الجديدة في العمل لوضع التشريع الخاص بالاصلاح الزراعي فور انتصارها. ولم تكن السلطة الجديدة على دراية كافية في هذا الميدان مما دفعها الى الاستعانة بالخبرة المصرية في الاصلاح الزراعي رغم ان الأخيرة كانت نابعة من أوضاع مغايرة سواءاً في جانب الملكية الزراعية أو في الأوضاع الطبيعية، او في التقاليد الزراعية، ناهيك عن التباينات في طبيعة الوعي الذي يشيع في ارياف البلدين. كانت نظرة البورجوازية الوطنية التي اخذت بزمام السلطة تتحدد بثلاثة أمور: الاقرار بالملكية الخاصة للارض في صورة ملكية كبيرة للملاكين وملكية صغيرة للفلاحين؛ حاجتها الى ايجاد القاعدة الاجتماعية العريضة في الريف

من خلال توفير الأرض لبعض الفئات الفلاحية؛ ضمان السقف الكافي من الأرض لتحفيز الملاكين على التحول نحو الاستثمار الرأسمالي في الزراعة وتوسيع سوقها في الريف عامة. وقد لعب عاملان اساسيان تأريخيان في تأكيد هذه المحددات: القرابة الطبقية التي جمعت بين رموز البورجوازية الوطنية التي استلمت الحكم بصفتهم ممن يملكون اراضي واسعة مع الملاكين الكبار الآخرين؛ خوف الطبقة الحاكمة الجديدة من تعاظم نفوذ الحزب الشيوعي بسرعة بين الفلاحين.

بعد أسبوعين من اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز صدر الدستور المؤقت متضمناً في مادته الرابعة عشرة ما يفيد بأن الملكية الزراعية تحدد وتُنظم بقانون، وان حقوق الملكية الزراعية مصونة وفقاً للقوانين المرعية حتى تصدر التشريعات التي تحدد هذه الملكية. وفي ذات الوقت (٢ آب) صدر امر وزاري بتشكيل لجنة لوضع قانون الاصلاح الزراعي، وكانت اللجنة تتألف قانوناً من رئيس الوزراء، رئيساً، وعضوية وزراء الزراعة والداخلية والمالية والشؤون الاجتماعية والأعمار والأقتصاد والاشغال، وآخرين متفرغين من زراعيين وقانونيين، وضم للجنة سيد مرعي الذي هندس الاصلاح الزراعي في مصر. وفي مساء الثلاثين من أيلول ١٩٥٨ اعلن رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، من راديو بغداد، اصدار القانون رقم ٣٠ ووضعه موضع التنفيذ فوراً.

كان يتعين على الحزب الشيوعي، لكي يكون فاعلاً ومؤثراً في هذه العملية التي كانت تجري بسرعة ان يعجل من جانبه بتحديد تصوراته بشأن الاصلاح الزراعي وبتدقيق وتفصيل كبيرين. على هذا الأساس، عهدت اللجنة المركزية للحزب الى الرفيق زكي خيري مهمة اعداد تقرير عن الأمر كما عهدت الى لجنة ألفتها من رفاق الحزب مهمة جمع البيانات الضرورية لأعداد التقرير ومناقشته من بعد ليأخذ صيغته الختامية، وقد انصرف الرفاق بنشاط كبير لتحقيق المهمة وانتهى الرفيق المكلف باعداد التقرير، وبعد مناقشته قدم الى الحكومة قبل ان يصدر القانون. وقد نشر هذا التقرير لاحقاً تحت عنوان «ملاحظات أولية عن الاصلاح الزراعي المنشود في العراق»(٦) في مجلة (الثقافة الجديدة)، التي عاودت صدورها غداة الثورة بعد ان كانت قد منعت عام ١٩٥٤.

يلاحظ التقرير، بوجه خاص، ان الجيش الذي بادر الى الثورة هو من حيث جوهره يمثل مختلف طبقات الشعب الوطنية الديمقراطية وان القسم الرئيس منه هم فلاحون، وان الشيء الرئيسي من الثورة هو الاصلاح الزراعي وتصفية بقايا الاقطاع. وبعد أن يستعرض التقرير تاريخ نهب الأرض ويناقش مسألة توزيع الأرض على الفلاحين يخطئ الدعوة الى حصر التوزيع في الاراضي الاميرية الصرفة، اذ ما بقي من هذا الصنف من الاراضي لا

يفي الا بالقليل من احتياجات الفلاحين، ويوضح ان الاصلاح الزراعي الجذري والشامل يعني «ان يكون لكل فلاح الأرض التي يزرعها الآن فعلاً بالمستوى الذي تسمح به أدوات العمل السائدة الآن»، وهذا يعني الغاء الملكية الكبيرة للارض واجرة الارض القائمة على هذه الملكية (بدل الملاكية). واعطى التقرير الأمثلة التالية ليوضح مضمون الاصلاح الزراعي الجذري والشامل:

– ان تصفية ملكية ١٠٤ ملاكين فقط يملكون عشرين ألف دونم فما فوق وتوزيعها على فلاحيهم تعني تحرير اكثر من ربع الفلاحين عهدذاك من نير العبودية الاقطاعية؛

– وان تجريد من يملك ألف دونم فما فوق (وهم أقل من نصف الواحد بالمئة من سكان الريف) من الأرض وتوزيعها على فلاحيهم أنفسهم سيحرر ثلثي الفلاحين يومذاك.

– أما اذا هبط الحد الأعلى للملكية الزراعية الى ٤٠٠ دونم فقط من الاراضي الديمية أو ما يعادلها من الاراضي الأخرى، ويوزع ما يفيض من الارض على الفلاحين فسيتحرر ثلاثة ارباع الفلاحين. فاذا أضيف الى هؤلاء من كان يملك الارض يومئذ ، ستصبح نسبة الفلاحين الذين يملكون الارض ٩٠٪ ممن يمارسون الزراعة، وبهذا يكون قد انجز الاصلاح الزراعي بدرجة أساسية. وقد بنى زكي خيري تقديره لمساحة ال-٤٠٠ دونم من الأراضي الديمية وما يقابلها من الانواع الأخرى على اساس ان هذه المساحة هي ما كان يتصرف بها الفلاح الغني فعلاً. وبذا يكون قد اتجه الى حصر الأرض بزراعها الفعليين مع الاخذ بالاعتبار التحالفات الطبقية الضرورية للمرحلة.

ورداً على من زعم أن هذا التوزيع لا يسمح بالاستفادة من مزايا الانتاج الكبير، لاحظ ان الممارسة الفعلية القائمة يومئذ في الزراعة تستند الى الزراعة الفردية الصغيرة للفلاح المحاصص. وارتأى التقرير ان يحتفظ اصحاب المضخات بمضخاتهم حيثما يتعذر استبدالها بحكومية أو تعاونية فلاحية لقاء ٢٠٪ من غلة الحاصل كما كان يجري عليه التقليد يومذاك. ودعا التقرير الى عدم التسرع بتكوين التعاونيات الزراعية قبل توفير القناعة بها لدى الفلاحين، لكنه حبذ التوجه الى التعاون في توفير ادوات الانتاج الكبير من مكائن وغيرها. وحتى تتوفر مستلزمات توزيع الأراضي اقترح نسباً معينة، واقعية، في توزيع حاصل الأراضي التي يجري استثمارها: بدل ملاكية ٢٠٪ كحد أعلى، ضخ الماء ٢٠٪ كحد اعلى، الساحبة ١٠٪، مع الغاء جميع الضرائب والأتاوات الاقطاعية، وكانت مثل هذه النسب قد اخذ بها فعلاً قبل الثورة في بعض المناطق التي تصاعدت فيها الحركة الفلاحية. اما بخصوص الاراضي الاميرية الصرفة (كما هوالحال في أراضي العمارة) والتي كانت تؤجر بعقود صورية للملاكين، فدعا التقرير الى الغاء جميع

العقود وتأجيرها للفلاحين مباشرة ابتداءاً من موسم ١٩٥٩ (الذي يبدأ بخريف ١٩٥٨). وأكد ضرورة الشروع بالاصلاح في مقاطعات اكبر الملاكين ومن ثم من هم دونهم، ومصادرة اراضي الخونة من الاقطاعيين والسياسيين الذين كانوا سند النظام السابق. ولما كان الملاكون الكبار قد استحوذوا قبلئذ على الاراضي الزراعية بدعم من الحكم لقاء الخدمات والتحايلات والرشاوى التي كانوا يقدمونها لدعم الاستعمار والنظام الذي اقامه فلا حق لهم بأي تعويض عن الاراضي المنتزعة عنهم، واستثنى من ذلك من لم يثبت تعاونه مع النظام السابق ولم ينهب اراضي الفلاحين على ان لا تزيد الاراضي المستحقة للتعويض عن ١٠٠٠ دونم.

ومع ذلك فالتقرير لم يعامل العوامل التفاضلية في الأراضي والمزروعات بملموسية وتدقيق، ولم ينتبه الى وضع الرعاة الذين كانوا يستخدمون لرعاية قطعان الاغنام التي كان يمتلكها تجار بغداد وغيرهم

في مساء ٣٠ أيلول ١٩٥٨ صدر القانون رقم (٣٠) لتحقيق الاصلاح الزراعي، ولم يأت على النحو الذي كان ينشده الحزب الشيوعي. كان حلاً وسطياً للمشكلة وَيعكس روح التساوم والمصلحة لدى السلطة الجديدة. ومع ذلك فقد أيده الحزب الشيوعي اذ رأى فيه ضربة عنيفة ضد الاقطاع، وانه يحفز تنشيط الحركة الفلاحية ويمكن اتخاذه سلاحاً لتعبئة وتنظيم جماهير الفلاحين، وكونه قد صدر عن سلطة وطنية في حاجة للدعم بوجه ما كان يحاك ضدها. ولذلك دعا الفلاحين منظماته الى العمل الحثيث لتطبيقه، واعتبره منهجاً حزبياً للعمل في تلك المرحلة من الثورة البورجوازية الديمقراطية.

جاء تطبيق القانون ليؤكد روح التساوم لدى الحكم البورجوازي الوطني فمثلما عمل على ان لا يصفي الملكية الكبيرة بذل جهده لابعاد الفلاحين عن المشاركة الواسعة في تطبيقه واوكل امره الى الاجهزة الحكومية التي تربت في خدمة الملاكين الكبار من قبل. لقد ارتعبت الحكومة من اندفاع الحركة الفلاحية الهائل وارتفاع وعيها وتغلغل الحزب الشيوعي في اوساطها، كذلك صار كل ما يشغلها ان تكبح هذا الاندفاع وتقنن نشاط الفلاحين. ومع ذلك فان منطق الاحداث التي تتابعت بعد الثورة والصراعات التي نشبت بين أجنحة البورجوازية الحاكمة من جانب، والسياسة المرتبكة وغير المبررة التي سلكها الحزب الشيوعي في صيف ١٩٥٩ من مسألة مطالبته بالمشاركة في الحكم والتراجع عنها بارتباك، جعل خط الصراع الدائر في الريف لا يسير في مستوى واحد وبسرعة واحدة، وانما ظل يعلو ويهبط لبعض الوقت. لقد شرعت السلطة في التصرف منذ اواسط ١٩٥٩ كما يقول الرفيق سلام عادل، «بما يشبه الاستسلام للقوى السوداء التي اخذت تسترجع المواقع

واحداً بعد آخر، في الجيش والدولة وفي الحياة الاقتصادية للمجتمع. ومنذ ذلك الحين فان الخط البياني لتفاقم التهديد الرجعي، وتفاقم أخطار الردة قد تموج لعدة فترات صعوداً ونزولاً ولكن كخط عام بقي يتصاعد» حتى انتزع الجانب الآخر من البورجوازية الحكم في انقلاب شباط ١٩٦٣ . وكان تطبيق الاصلاح الزراعي احد الميادين المهمة في هذا الصراع.

كان الحزب يدرك ان القانون، على علاته، يوجه ضربة قوية الى النظام شبه الاقطاعي في الريف، وان التعجيل بتجريد الملاكين الكبار من الاراضي الخاضعة للاستيلاء سيقلل من خطرهم على الجمهورية الوليدة، وقد اتضح هذا كثيراً في تمرد الشواف وانحياز كبار الملاكين الى جانبه. لذلك رمى بكل ثقله للاسراع بعملية الاستيلاء. وكان يرى ان لا ضير في ان يتم الاستيلاء وتوضع الاراضي التي يتم الاستيلاء عليها في عهدة الجمعيات الفلاحية لتديرها، موقتاً حتى يتم اعداد مستلزمات توزيعها. وقد استغلت قوى اليمين هذا الموقف لتزعم بمغالطة ان الحزب الشيوعي لا يميل الى توزيع الاراضي وانما ينشد تأميمها فقط. وقد فضح الحزب هذه المغالطة داعياً الى تبسيط عملية التوزيع وايداعها للجمعيات الفلاحية ذاتها بدلاً من تأخيرها كثيراً بما حيطت به من اجراءات روتينية بموجب القانون.

واذ نشط الحزب الشيوعي الى حث الفلاحين على تكوين جمعياتهم الفلاحية فاندفعوا الى تأسيسها بنشاط لم يعهد مثله في الريف، ولعجز البورجوازية الوطنية الحاكمة عن منافسة الحزب الشيوعي في جر الفلاحين رغم تجنيدها كل اجهزتها الادارية وما يتيسر لها من امكانات مادية ورغم المحاولات التي تتناقض والقانون الذي شرعته هي، سارعت الى اصدار قانون يوكل للأجهزة الادارية المحلية سلطة اجازة الجمعيات الفلاحية، وسارع الملاكون والفلاحون الاغنياء الى تكوين جمعيات «فلاحية» مهمتها الأساسية محاربة الجمعيات الفلاحية السابقة والفلاحين النشطين، وعمدت الأجهزة الادارية المحلية الى رفض اجازة الجمعيات التي لا تسير مع الخط «الحكومي». ويكفي هنا ان نذكر ان عدد الجمعيات الفلاحية التي اجيزت طبقاً للقانون الجديد في كل من ألوية العمارة والبصرة والناصرية والحلة وكربلاء لا تبلغ نصف عددها في لواء الديوانية وحده حيث كان لوزير الزراعة، هديب الحاج حمود، نفوذه هناك بصفته واحداً من الملاكين الكبار في ذلك اللواء.

حفلت السنة والنصف الأولى من عمر الاصلاح الزراعي بكثير من الاحداث والصراعات، وكانت في الواقع أوسع واعقد تجربة يخوضها الحزب الشيوعي في الريف، وقد ساعدته كثيراً في تعميق وتطوير فهمه للمسألة الزراعية وللتعامل مع الفلاحين. في ضوء ذلك برزت الحاجة الى تلخيص هذه التجربة واستخلاص الدروس منها وتطوير موقفه من الاصلاح الزراعي.

لذلك ألف لجنة خاصة عهد للرفيق زكي خيري بقيادتها من اجل دراسة هذه التجربة من كل جوانبها. وقد وضع الرفيق زكي خيري تقريراً ضم خلاصة ما توصلت اليه اللجنة، وبعد مناقشات مستفيضة في الهيئات المعنية صدر بعنوان: «تقرير عن مسائل في الاصلاح الزراعي» ونشر تباعاً في جريدة اتحاد الشعب)، الجريدة المركزية للحزب، في أواخر شباط واوائل آذار ١٩٦٠.

منذ البدء تُنبه مقدمة التقرير الى انه يستهدف مساعدة المناضلين على استيعاب الخطوط العامة للقضية، ويتعين ان يقوموا هم بدراسات خاصة للمشاكل المتنوعة التي تجابههم في الواقع الملموس «فليس هناك قضية اكثر تنوعاً وتعقيداً حتى في القطر الواحد والمنطقة الواحدة كالقضية الفلاحية وبقايا الاقطاع»، ويعكس هذا الاقرار خبرة التعامل الحي مع المسألة في عامة البلاد.

يخصص التقرير مقدمة ضافية للتطور التأريخي للمسألة الزراعية في العراق منذ ان ارتبط بالسوق الرأسمالية العالمية، ويتابع التشريعات القانونية التي توالت لتمكن الملاكين من شيوخ ورجال دولة واثرياء في المدن من الاستحواذ على الاراضي الزراعية وحرمان الفلاح من حق التصرف فيها، وما اسفرت عنه هذه العملية حتى ثورة ١٤ تموز، وعزز تحليلاته بالاحصاءات التي شرعت الحكومة بها منذ اوائل الخمسينات، ويلاحظ انه خلال العقود الستة الممتدة من ايام مدحت باشا حتى اصدار قوانين الارض في بداية الثلاثينات من هذا القرن «لم يتحول من اراضي الدولة الى الطابو للافراد الا نحو عشرين بالمئة من مساحة الاراضي الزراعية المستثمرة عهدذاك (أي نحو ١٠٪ من الاراضي المستثمرة الآن). اما في الثلاثين سنة الاخيرة (١٩٢٩-١٩٥٧) فقد بلغت نسبة الاراضي المفوضة بالطابو نحو ٤٠٪ من مساحة الاراضي الزراعية المستثمرة كما أن نحو ٣٠٪ منحت باللزمة (التي لا تختلف كثيراً عن الطابو)، وحتى الاراضي الاميرية الصرفة (كمقاطعات العمارة الجسيمة والغنية) أصبحت تحت تصرف الاقطاعيين عملياً ومن حيث الجوهر (الاستحواذ على الريع)».. مقابل ذلك فان ٨٥٪ من سكان الريف لا يملكون شبراً واحداً من الارض.

ويستعرض التقرير نضال الفلاحين دفاعاً عن حقوقهم، والافكار والبرامج التي تتعلق بالاصلاح الزراعي، ويلاحظ ان الاصلاح الزراعي الجذري يحسن اوضاع الفلاحين من جانب ويوفر من الجانب الثاني الشروط الافضل للتطور الرأسمالي، وفي هذا مصلحة للبورجوازية الوطنية. الا ان هذه البورجوازية الحاكمة، خلافاً لمصالحها البعيدة وسلامة حكمها هي، لا تميل الى السير في هذا السبيل، وتفضل مصالحها الآنية المباشرة بحكم ارتباط

الحاكمين بالأرض. ويتوقف التقرير عند الضجة التي أثيرت بشأن الانتاج الزراعي والتي أريد منها التدليل على ان الاصلاح الزراعي أثر سلبياً على الانتاج الزراعي، وهي ضجة افتعلها اليمين البورجوازي للوقوف بوجه الحركة الفلاحية الثورية، ويكشف عن مغالطتها استناداً الى أرقام الانتاج في السنوات الخمس السابقة للثورة، ويلاحظ هنا التقلبات الحادة في الانتاج وان العراق لجأ الى الاستيراد وبكميات كبيرة كما حصل في عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧. كذلك فضح التقرير الدور الذي لعبه الملاكون عن قصد لألحاق الضرر بالانتاج، كرفضهم (في الاراضي التي لم يتم الاستيلاء عليها بعد) التعاقد مع الفلاحين لزراعتها، وامتناع بعضهم عن تقديم السلف للفلاحين جرياً على التعامل السابق، ولجوء بعضهم الى تعطيل المضخات كلياً أو جزئياً، وإلهاء الفلاحين بالدعاوى المفتعلة والاستعانة بالاجهزة الادارية لتوقيف الفلاحين أو اجلائهم عن الارض، واثارة الخلافات بين الفلاحين، وامتناعهم، اي الملاكين، عن تطهير الجداول، أو تخفيضهم المساحات التي اعتاد الفلاح زراعتها، وارغام المحاصصين على قبول شروط قسمة للحاصلات تخالف ما جاء به القانون.. وكثير غيرها من الممارسات التي تتعارض والحاجة الى انتظام العمل الزراعي لا سيما بعد ان تلمس هؤلاء الملاكون تغير الموقف الحكومي نحو التشديد على الحركة الفلاحية الثورية. واكد التقرير ان «النقطة المركزية في صيانة الانتاج، ان لم تكن في زيادته، هي بالطبع في سرعة انجاز عملية الأستيلاء على الارض الخاضعة للاصلاح الزراعي وتأجيرها للفلاحين مباشرة تحت اشراف الادارة الموقتة ريثما تتوفر امكانيات توزيعها على الفلاحين اي تمليكها لهم». واعار التقرير انتباهه للحركة التعاونية وطرح مقترحات ملموسة لتطوير التعاون الزراعي تستجيب الى وعي الفلاحين واحتياجاتهم في تلك المرحلة. وعالج مسألة المكننة الزراعية في ضوء واقع الزراعة آنذاك والاوضاع الطبيعية وكرس الفقرات الختامية للحديث عن تطور الحركة الثورية في الريف وسياسات الحزب الشيوعي لتعميق وعي الفلاحين وتعبئتهم وتحديد المهمات واشكال النضال الملموسة لتطوير هذه الحركة.

لقد عكس التقرير التطور الكبير في فهم الحزب للمسألة الزراعية، لكن هذا الفهم ظل، كما قلنا في كتابنا عن المسألة الزراعية، يعكس «عجز الحزب في تلك الفترة عن تحديد ستراتيجة تساعد في دفع الوضع الثوري الى أمام» وهو ما اكده المؤتمر الثاني للحزب عام ١٩٧٠ بقوله «كان على حزبنا في الوضع الثوري الذي بدأ في ١٤ تموز ١٩٥٨ ان يواصل النضال على رأس الجماهير الثورية لتغيير الحكومة واقامة حكومة ديمقراطية ثورية تمثل الاحزاب والقوى الوطنية التي يعنيها انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية دون

أي تساهل في تحقيق هذا الشعار المركزي».
لقد تطورت المسألة الزراعية كثيراً خلال العقود التالية، واضافت عوامل جديدة تعقيدات كثيرة تطلبت وتتطلب دراسات جديدة لا سيما في ظل هيمنة عائلة صدام الدكتاتورية واستيلائها هي والفئة التي تسايرها على مساحات شاسعة من اراضي الفلاحين التي اقرتها القوانين، بما فيها القوانين التي شرعها الحزب الحاكم، ايام كان في حاجة الى استجداء تأييد الفلاحين. كما يدفع الى دراسة المسألة بجد تدهور الانتاج الزراعي قياساً الى تزايد حاجة الشعب للغذاء ليس فقط بفعل الحصار الاقتصادي الدولي وسياسات الحكام الرعناء باشعال الحروب التي ألفّ الفلاحون وقودها الأول، وانما ايضاً بفعل السياسات الفاشلة التي ساروا عليها في الزراعة(٧). والدور الذي لعبه زكي خيري حري بالمتابعة والاقتداء وسيظل إرثه في هذا الشأن حافزاً لمتابعة هذا الجهد الرائد.

الهوامش

(١) للتعرف اكثر على أوضاع الريف وتحركات الفلاحين انذاك، راجع الفصل الخامس من كتابنا: الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق/مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٨٦.
(٢) راجع في هذا: التقرير السياسي الذي قدمه الرفيق فهد الى الكونفرنس الأول للحزب الذي انعقد في اذار ١٩٤٤، والكراس الذي وضعه عن البطالة عام ١٩٤٦.
(٣) انظر كتابنا: الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، ص٢٢٦.
(٤) بلغت الأراضي المملوكة ملكية صرفة والتي تمت تسويتها حتى عام ١٩٣٨ (٥٣٤٢٦) دونماً، وحتى نهاية ١٩٥٧ بلغت مساحة ما تمت تسوية الحقوق في هذا الصنف من الاراضي ٢٤١ ألف دونم فقط.
(٥) كان شريف الشيخ المحامي وزكي خيري وجماعتهما التي عرفت باسم «اللجنة الوطنية الثورية» قد انضموا آنذاك الى الحزب الشيوعي بعد تعاون يرجع الى عام ١٩٤٦. ولذلك حين صدرت الأساس) في ٣ نيسان ١٩٤٨ ولفترة قصيرة كانت تعبر عن الحزب الشيوعي العراقي.
(٦) الثقافة الجديدة، العدد الخامس، كانون أول ١٩٥٨.
(٧) انظر في هذا الشأن: عزيز سباهي، الثقافة الجديدة، العدد ١١٩، نيسان ١٩٨٠.

وحدة المنهج والنظرية

الحلقة الثالثة*

زكي خيري

جاء في الفصل الاول من مقالة الاستاذ مسوح: «وكانت المصيبة اكبر عند الماركسيين العرب. لأن المسألة بالنسبة الينا ليست مسألة مسافة زمنية بين النصوص الماركسية الكلاسيكية وعصرنا الحاضر فحسب، بل هي ايضاً مسألة بنية اجتماعية مختلفة. فالنصوص الماركسية جاءت حصيلة لدراسة واقع اوربي كان منذ ذلك الحين مختلفاً اختلافاً كبيراً عن الواقع العربي. ومع ذلك فان معظم الماركسيين العرب – ان لم نقل كلهم – نظروا وينظرون الى الماركسية اللينينية كنظرية، أي يعمدون الى تطبيقها على واقع المجتمع العربي المعاصر، مما أدى الى مشكلات اساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج. ونذكر على سبيل المثال القول بالدور القيادي (أو الطليعي) للطبقة العاملة في مجتمع غير صناعي، والقول بتجاوز المرحلة الرأسمالية في مجتمع لم يتخلص بعد من بقايا العلاقات الاقطاعية. ووضع مهمات اشتراكية في مجتمع لم تنجز فيه مهمات التحرر الوطني الديموقراطي. وعدم ادراك دور العامل الديني (والروحي بعامة) في التطور الاجتماعي واغفال دور العامل

* نشرتا الحلقتين السابقتين في العددين ٢٥٨ و٢٥٩ – ث.ج.

القومي والقفز فوق مهمة الوحدة القومية وغير ذلك..».
ويذهب الاستاذ ابعد من ذلك فيقول: «ولو تم استيعاب المنهج الماركسي والافادة منه في دراسة الواقع العربي لوجدنا ان الكثير من النصوص التي تضمنتها كتب الكلاسيكيين لا حاجة بنا اليها، إن لم يكن بعضها ضاراً بالنسبة الينا».
هذا الجزء من مقالة الاستاذ مسوح جاء كأوضح جزء فيه، والحق يقال، مما يستحق مؤلفه الشكر عليه، وإن لم يشخص رأساً ما هي تلك النصوص الضارة بالعرب في كتب الكلاسيكيين كما يقال، ولعلها تلك الامثلة الواردة في المقتطف اعلاه كالقول «بتجاوز المرحلة الرأسمالية في مجتمع لم يتخلص بعد من بقايا العلاقات الاقطاعية» فهو ضد هذا التجاوز ويعتبره من «المشكلات الاساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج» وينسب هذا الخطأ الى نظر الماركسيين العرب الى الماركسية اللينينية كنظرية، أي يعمدون الى تطبيقها على واقع المجتمع العربي المعاصر». وهذه النظرة عند الاستاذ هي أم الكبائر من بدء مقاله حتى آخره. وبما ان بعض الأحزاب الشيوعية العربية قد تبنت فعلاً مثل هذه النصوص، الضرر قد وقع فعلاً في نظره. وكل ما نتمناه هو ان ينفي مثل هذا الاستنتاج والا فمن حقنا ان نجزم بأنه يرى من المحتوم على البلاد العربية ان نجتاز نفس طريق التطور الذي تجتازه اوربا الغربية خلال الخمسمائة سنة الاخيرة. ولكن ما ينتقد عليه الماركسيين العرب يصح بالاحرى عليه هو بالذات وعلى القائلين بأن المرحلة الرأسمالية من التطور محتومة على كافة الشعوب. فالنظرية الماركسية اللينينية تنفي مثل هذه الحتمية. وسيرورة التاريخ العالمي لا تدل على ان جميع البلدان قد مرت بجميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية التناحرية على التوالي، من الرق الى الاقطاع الى الرأسمالية وصولاً الى الاشتراكية، بل ان العديد من البلدان قد تجاوز هذه التشكيلة أو تلك دون استثناء الرأسمالية. والارتداد الوقتي عن الاشتراكية لا ينفي هذه الحقيقة فالبلدان التي كانت متطورة رأسمالياً من قبل كهنغاريا وجيكوسلوفاكيا قد اخذت تتراجع عن الاشتراكية بأسرع وأبعد من غيرها التي كانت تعاني من التخلف في ميدان التطور الرأسمالي.. فأي «منهج مادي جدلي تاريخي» يلزم الاستاذ مسوح ان يقول بحتمية المرور بالمرحلة الرأسمالية بالنسبة للبلاد العربية..؟! ان هذه المسألة بالذات هي بيت القصيد في كل الجدل الذي يثيره مقاله.
والآن هل مرحلة التطور الرأسمالي حتى آخرها محتومة على البلاد العربية وغيرها من البلدان المتخلفة عن الغرب أم ان هذه البلاد يمكنها الخروج عنها وتجاوزها في أي لحظة من لحظاتها؟
تلكم هي المسألة!

قد يعتبر البعض هذا النقاش بيزنطياً طالما دخلت كل البلدان المتخلفة في مرحلة التطور الرأسمالي وقطعت فيها اشواطاً متفاوتة على الرغم من العلاقات الاقطاعية وحتى ما قبلها. ولكن الاستاذ مسوح وكثيراً من المنظرين الجدد يجدون في استكمال التطور الرأسمالي بكل مراحله هو الطريق الوحيد لبلوغ الاشتراكية. ومن هنا يكتسب الموضوع اهميته في هذه المرحلة الصعبة التي تجتازها شعوب البلدان المتخلفة والازمة التي تعانيها الحركة الشيوعية العالمية.

في حياة ماركس نسب اليه الشعبوي الروسي ميخائيلوفسكي نظرية تاريخية فلسفية تقول بحتمية مرور جميع البلدان بمرحلة التطور الرأسمالي.. فرفض ماركس هذه النظرية رفضاً قاطعاً برسالة بعث بها الى المجلة النارودنية الروسية (اوتو تشتفينية زابيسكي) وقد جاء فيها:

«.. ولكن هذا قليل جداً جداً لناقدي، فهو بحاجة من كل بد لتحويل لمحتي التاريخية عن نشوء الرأسمالية في اوربا الغربية الى نظرية تاريخية فلسفية عن السبيل العام المحكوم على جميع الشعوب، بصورة مشؤومة، بالسير عليه، ايا كانت الظروف التاريخية التي تكون فيها، لكي تصل في آخر المطاف الى تلك التشكيلة الاقتصادية التي تؤمن، مع ازدهار قوى العمل المنتجة ازدهاراً عظيماً جداً، تطور الانسان اكمل التطور. ولكني ارجو منه المعذرة، فمن شأن ذلك ان يكون في آن واحد مفرطاً في الثناء علي ومفرطاً في الخزي لي».

ان ماركس في هذا النص ينفي وجود قانون تاريخي عام يحتم على جميع الشعوب المرور بالمرحلة الرأسمالية من التطور في طريقها الى المجتمع الشيوعي.. الذي «يطور الانسان اكمل التطور».

وقد سبق لي في مقال بعنوان «طابع المرحلة الوطنية الديمقراطية الراهنة» نشر في (الثقافة الجديدة) العدد ٢٢٨ كانون الاول ١٩٩٠ أن تطرقت الى موضوعة «التطور اللارأسمالي» واستشهدت برسالة لماركس واقتطفت منها قوله: «لقد توصلت الى الاستنتاج التالي: اذا كانت روسيا ستستمر في السير على الطريق الذي انتهجه منذ عام ١٨٦١ (يشير الى عام الغاء القنانة في روسيا وانتهاجها طريق التطور الرأسمالي) فسوف تفوت أفضل فرصة قدمها التاريخ في وقت ما الى شعب من الشعوب وستعاني من كافة مصائب النظام الرأسمالي المشؤومة» (اغافوتوف – الماركسية اللينينية وطريق التطور اللارأسمالي – دار التقدم موسكو ١٩٨٢).

وبعد ذلك بأربع سنوات (آذار/١٨٨١) كتب ماركس المسودة الأولى لرده على رسالة الثورية الروسية فيراز سوليتش قال فيها: «لان المشاعة الريفية التي لا تزال قائمة على الصعيد الوطني في روسيا تستطيع بفضل اجتماع

استثنائي من الظروف، ان تتحرر تدريجياً من سماتها البدائية، وان تتطور مباشرة بوصفها عنصر انتاج اجتماعي على الصعيد الوطني وبما انها معاصرة للانتاج الرأسمالي، بفضل هذا على وجه الضبط يمكنه أن تستوعب منجزاتها الايجابية دو المرور عبر جميع تطوراته الرهيبة. ان روسيا لا تعيش في عزلة عن العالم المعاصر، وهي، مع ذلك، ليست مثل الهند الشرقية غنيمة للفاتح الاجنبي» (ماركس/انجلس/٣ مجلدات/م٣ج١/ص١٧٧).
وفي الصفحة (١٨١) من نفس المصدر يقول عن مستقبل المشاعة: «ان شكلها التأسيسي يجيز واحداً من امرين: اما ان يتغلب عنصر الملكية الخاصة الكامن فيها على العنصر الجماعي واما ان يتغلب هذا الاخير على الاول. كل شيء رهن بالبيئة التاريخية التي توجد فيها المشاعة الزراعية. Apriori (بصرف النظر عن التجربة) يمكن هذا المآل أو ذاك. ولكن من الجلي يتطلب كل منها وجود بيئة تاريخية مختلفة تماماً».
فوفقاً للنظرية الماركسية، التطور الرأسمالي ام اللارأسمالي يتوقف على الظروف التاريخية، البيئة التاريخية. وقد جرت الظروف التاريخية خلافاً لما يتمناه ماركس. فالدولة الروسية انحازت ضد المشاعة الفلاحية وذاقت روسيا كأس الرأسمالية الامبريالية المرة حتى الثمالة، أي بما فيها حروبها الامبريالية، وبلغت آخر مراحلها رأسمالية الدولة الاحتكارية، واضطلعت بأول ثورة ضد الرأسمالية واقامت اول دولة للعمال والفلاحين، حققت حلم ماركس باقامة المزارع الجماعية الكبيرة الخالية من النير الاقطاعي والرأسمالي ايضاً.. ولكن عقاباً على اخطاء فادحة أرتكبت بحق مبادئ بناء الاشتراكية تتعرض المزارع الجماعية لتحدي الرأسمالية من جديد ويتوقف مصيرها التاريخي من جديد على ارادة جماهير الفلاحين وحلفائهم العمال.. فاما واما..
ومرت اربعون سنة على رسالة ماركس هذه وانعقد المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في موسكو وكانت احدى النقاط في جدول العمل: هل المرحلة الرأسمالية من التطور محتومة على المستعمرات والبلدان التابعة؟ وكان الرد نفياً، أي انها ليست محتومة. وقد صاغه لينين بوصفه مقرر اللجنة المتخصصة بهذه البلدان، واضافة الى ذلك «انما يتوجب كذلك على الأممية الشيوعية ان تقر وان تثبت نظرياً ان بمساعدة البروليتاريا في البلدان المتقدمة يمكن للبلدان المتأخرة ان تنتقل الى النظام السوفيتي والى الشيوعية عبر درجات معينة من التطور متجنبة مرحلة التطور الرأسمالي» (لينين المختارات – م١٠ – ص٩٦).
سوف يتبرم الاستاذ مسوح من كثرة هذه النصوص ويقول: شبعنا من النصوص! كفانا نصوصاً..! اين «المنهج المادي الجدلي التاريخي»؟ فهو

منقذنا..!

ولكن ما حيلتي انا اذا كان كل شيء مدوناً في نصوص من اللاهوت الى الناسوت من النظرية الى «المنهج المادي الجدلي التاريخي» بعينه..! ومع ذلك لندع مؤقتاً النصوص والنظريات ولننتقل الى الواقع:

هل نحن الماركسيين العرب فرضنا النصوص الماركسية اللينينية على البلاد العربية بصدد عدم حتمية المرحلة الرأسمالية من التطور لتؤدي الى مشكلات اساسية في التشخيص والاستنتاج والنهج..؟!

كلا..! لقد سبقنا الى ذلك المغفور له جمال عبد الناصر. فقبل ثلاثين سنة ونيف اعلن تأميم بنك مصر مع كثرة من مشاريع الرأسمال الوطني المصري الخاص. والحق اقول: اننا نحن الماركسيين في العراق بوغتنا.. ما عسانا نقول للناس؟ جمال عبد الناصر الذي شهرنا به، باعتباره عميلاً لابو رجيلة المليونير وعبود باشا رئيس بنك مصر، ها هو يؤمم اموالها بجرة قلم!

وحتى المنظرين السوفييت فوجئوا.. وعندئذ فقط بدأ البحث عن النصوص وجرى تتبع وصية لينين للأممية الشيوعية بأن تقر وتثبت نظرياً انه بأمكان البلدان المتخلفة تجنب المرحلة الرأسمالية، مؤكداً مقولة ماركس ان طريق التطور الرأسمالي الذي سارت عليه اوربا الغربية ليس محتوماً على بلدان الشرق.. وبقيت توصيته على الرف حتى المؤتمر السادس للأممية الشيوعية ١٩٢٨) عندما عالجها السكرتير الفلندي للأممية كوسينين، واختار لهذه القضية اسماً مختبرياً مؤقتاً كما يفعل علماء الطبيعة اذ سماها «طريق التطور اللارأسمالي» لتنام مرة أخرى في الارشيف. ومع انني اقرأ ادباً شيوعياً منذ ستين سنة ونيف، فلم اسمع بطريق التطور اللارأسمالي الا بعد الضجة التي اثارتها تأميمات عبد الناصر. وقد كانت برامج احزابنا خلواً منه ومن اي مطلب يتجاوز العلاقات الرأسمالية. كنا مثل الاستاذ مسوح الآن نؤمن بالنقاوة البرجوازية للثورة الوطنية الديمقراطية ونقاوة كل ثورة اجتماعية على حدة، وكل مرحلة، وكل ظاهرة، وبعدم التداخل بين الثورات والمراحل والظواهر. في حين «ان الحكم الاساس في الديالكتيك الماركسي يتلخص في كون الحدود في الطبيعة وفي المجتمع هي اصطلاحية ومتحركة» كما يقول لينين. ومن المفارقات التاريخية ان فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي كان يدافع عن الرأسمال الوطني الصناعي ويعارض احتكار الدولة لصناعة التبغ خلافاً للجادرجي..!

لم يكن نظام عبد الناصر اشتراكياً بل متعدد الانماط. وقد استعار من النظام الاشتراكي التأميم والتخطيط المركزي وبعض الاصلاحات الأخرى كأن يكون للعمال نصيب من ارباح المشروع كما فعل لينين في «السياسة الاقتصادية الجديدة». وكان هم الرئيس ان يجعل مصر دولة قوية ذات نفوذ في العالم

العربي وافريقيا. ولذا كان التصنيع السريع همه الاول فافسح في المجال للراسمال الخاص وقدم له كل المساعدات التي كانت بمقدور الدولة المصرية ليعجل في تصنيع مصر.. ولكن الراسمال الخاص خيب أمله وحمله على التأميم لتحقيق التصنيع السريع على يد قطاع الدولة مقتدياً بتجربة الاتحاد السوفيتي. وحول الاقتصاد المصري الى الاقتصاد متعدد الانماط واطلق عليه (الاشتراكية العربية).

ولكن عبد الناصر كان سياسياً قليل الصبر وطموحاته اكبر من امكانياته بما لا يقاس.. وكان مثل البطل الاغريقي آخيل احد قدميه من طين، اذ لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بقدرة الشعب المصري على ان يتولى زمام امره بيده.. وكان يلجأ الى الشعب فقط لينقذه من داهية.. وكانت هذه الصفات مشتركة بين جميع اولئك الذي اطلقنا عليهم اسم «الديمقراطيين الثوريين» من جمال عبد الناصر الى كل من سار على دربه إن قليلاً او كثيراً. ومع ذلك فقد تحالفت الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية مع اولئك الدكتاتوريين وسارت عملياً تحت قيادتهم السياسية، بما فيها الاحزاب التي نصت برامجها على ضرورة قيادة الطبقة العاملة للثورة الوطنية الديمقراطية كشرط ضروري لانجازها، وان لم تخل احزابنا من معارضين لتلك السياسة.

ان اشتراكية عبد الناصر وإن لم تكن اشتراكية ماركسية فهي خطوة الى امام نحو الاشتراكية، وهي شبيهة بالخطوات التي حددها لينين في كراسه «الكارثة المحدقة وكيف نحاربها» قبيل ثورة اكتوبر بثلاثة اشهر، وقال عنها انها وإن لم تكن اشتراكية بعد فلم تعد رأسمالية بل خطوات نحو الاشتراكية، بيد ان الاستاذ مسوح لا يعترف بمثل هذا التداخل بين التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ولا سيما بين الرأسمالية والاشتراكية فهو مع التقاطع: إما وإما.. اما اسود أو ابيض.. اما رأسمالية أو اشتراكية. والحال نحن نعيش في مرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية الامبريالية وفي عالم تتعايش في نماذج من شتى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية. ولو ان البلدان التي انتصرت فيها الثورة الاشتراكية لم تتسرع في الغاء الانماط ما قبل الاشتراكية كلياً لما حلت بها الكارثة التي نشاهدها.

وقد كشفت الأزمة الراهنة التي اصابت الاشتراكية الفعلية ان ضرباً من تعدد الانماط هو علاج فعال لأزمتها. بأعطاء الرأسمال الخاص دوراً تكميلياً ولا سيما في الخدمات. ولم تكن البلدان الاشتراكية بلداناً متخلفة كالبلاد العربية بل بلداناً صناعية متطورة. وكما قال ماركس تنمو مع الانتاج الحاجات ايضاً.. ولم تلتفت الدولة الاشتراكية، ولا سيما الحزب، الى هذه الناحية من نظرية ماركس، ولما كانت الحاجة أم الاختراع، فقد اخترع المضاربون والمغامرون من وراء ظهر الدولة ما يعرف بـ«الاقتصاد الظل» أي الاقتصاد

غير الشرعي، لاشباع بعض الحاجيات المتنامية التي لم تلتفت اليها الدولة أو لم يكن بمقدورها الاهتمام بها.. وبدلاً من ان تعترف الدولة بشرعيته وتضعه تحت رقابتها اخذت تحاربه. وقد ظنت ان احتكار الدولة للانتاج وعدم ترك اي فرصة للراسمال الخاص أو صاحب المشروع الفردي انما يعني انجاز الاشتراكية بالتمام والكمال والدخول في مرحلة تاريخية جديدة، مرحلة «الاشتراكية المتطورة» وحتى «الشروع ببناء اسس الشيوعية». واستطاع اقتصاد الظل الذي نشأ كضرورة لسد الفراغ ان ينشر الفساد بما في ذلك في اجهزة الدولة البيروقراطية وحتى الحزب الشيوعي، وقاومت الدولة وقيادة الحزب المطالبة بالاصلاح، وكممت الأفواه الداعية الى التجديد وتجسد رد الفعل بالانشقاقات والتكتلات السرية، ولا سيما في اوساط المثقفين والشباب، في حين خيمت اللامبالاة السياسية بين اوساط واسعة من الشعب بمن فيها جمهرة الحزب الشيوعي. وكفر الشعب بالاشتراكية ناسياً انجازاتها التاريخية التي انقذته من ظلمات الجهل والبؤس والفاقة.. ليعاني مرة ثانية من كابوس التمرغ في اوحال التطور الرأسمالي وعلاجاته المدمرة للاقتصاد والمعذبة للجماهير.

وفي يومنا هذا اصبحت امكانية تجاوز البلدان المتخلفة لمرحلة التطور الرأسمالي اوسع بما لا يقاس عما كانت عليه في القرن الماضي أو مطلع القرن الحالي. فالثورة العلمية التكنولوجية تتيح لقيادة ديمقراطية ثورية حقاً في مثل هذه البلدان تجاوز تخلفها والتحرر من تبعيتها الاقتصادية بسرعة فائقة مستخدمة افضل منجزات الرأسمالية واكثر افضليات الاشتراكية ملاءمة وصولاً الى الاشتراكية. والتطور اللارأسمالي لا يتناقى كلياً مع تطور القطاع الرأسمالي الخاص الخاضع لرقابة الدولة والمجتمع في اقتصاد وطني متعدد الانماط طوال عشرات السنين وحتى تنجز الثورة العلمية التكنولوجية مهمتها التاريخية، أي نقل البشرية الى عالم جديد.

تداخل مهمات التحرر الوطني الديمقراطي مع مهمات اشتراكية

يعتبر الاستاذ مسوح من اخطاء الماركسيين العرب في التشخيص والاستنتاج والنهج «وضع مهمات اشتراكية في مجتمع لم تنجز فيه مهمات التحرر الوطني الديموقراطي».

ان الامبريالية قد زرعت علاقات رأسمالية في البلدان المتخلفة التي تتعايش فيها مختلف العلاقات، من الشيوعية البدائية حتى الاقطاعية. واخضعتها لاستثمار الرأسمال الاحتكاري بمختلف اشكاله، ومنها الدين الذي تجاوز قبل بضع سنوات ترليون ((مليون مليون) دولار. وقد اصبح من المحال تسديد هذا الدين، وحتى ان الكثير من هذه البلدان اصبح عاجزاً عن تسديد

الفوائد. واصبح احد اهم اشكال النضال الوطني التحرري ضد الامبريالية النضال ضد الدين، وحتى النضال ضد كبار الملاكين وبقايا الاقطاع غدا نضالاً ضد الامبريالية التي تحميهم.. وحولت الرأسمال الوطني الخاص الى شريك ثانوي لشركاتها الاحتكارية متعددة الجنسية. فأحكمت هذه البلدان، ومنها بلادنا العربية، بعلاقات التبعية الاقتصادية للبلدان الرأسمالية المتطورة، واعادت انتاج هذه العلاقات. ولم تستطع بلداننا الخروج من عقال هذه التبعية والتخلف الاقتصادي الاجتماعي الذي تفرضه رغم كل التجارب السابقة التي سار بعضها وفق التطور الرأسمالي الحر، كالاردن والمغرب، أو التي وضعت مهام اشتراكية مثل مصر عبد الناصر وغيرها. فالتطور الرأسمالي الحر يعيد انتاج التبعية اوتوماتيكياً.. وتجربة وضع المهام الاشتراكية لا يمكن ان تحقق اهدافها بدون الديمقراطية السياسية والاجتماعية. وفشل هذه البلدان في الخروج من التبعية الاقتصادية ليس بسبب وضعها مهام اشتراكية قبل التحرر الوطني الديموقراطي، بل لمعاداتها للديموقراطية.

ويقال: لماذا هذا التطير من التبعية؟ فقد اصبح الجميع في تبعية سياسية..! ولكن هذا التعميم ينطوي على مغالطة. فكما يقول الاقتصادي سمير أمين شتان بين تبعية كندا الاقتصادية للولايات المتحدة وتبعية بلدان العالم الثالث، سواء من حيث مستوى التطور الاقتصادي الاجتماعي ام مستوى التطور التكنولوجي واوضاع الطبقة العاملة في كلا الطرفين.

ان النضال من اجل تحقيق المهمات الوطنية الديمقراطية لا يصطدم فقط ببقايا الكولونيالية والاقطاعية بل يصطدم بالرأسمال الامبريالي المهيمن، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبالتالي يتخذ طابعاً اجتماعياً يتجاوز العلاقات الرأسمالية الى هذا الحد او ذاك. وهكذا فان منهج الاستاذ مسوح «التاريخي» الذي يضع حجاباً حاجزاً بين مرحلة وأخرى، بين النضال لتحقيق المهمات الوطنية الديمقراطية والمهمات الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكي، قد غدا منهجاً بالياً. وقد برهنت الكارثة التي حلت بالانظمة الاشتراكية على خطأ الفصل التعاقبي، او التعاقب الانفصالي، بين الديمقراطية والاشتراكية، وعلى ضرورة التزامن والتلازم بينهما، لان الاشتراكية بلا ديموقراطية لن تعمر طويلاً. ولم تتطور والديمقراطية بلا اشتراكية، بل تبقى ناقصة ومنحازة للاغنياء. ففي الانتخابات الامريكية الاخيرة انسحب احد المرشحين للرئاسة لانه لا يملك المال الكافي لمواصلة الحملة الانتخابية، في حين واصل المرشح اللاحزبي حملته لانه يملك مليارين من الدولارات، مع انه لم يكن يمثل الا اقلية لا تتجاوز ١٩٪ من الاصوات. وهذا طبعاً لا يبرر الاستخفاف بالديمقراطية البرجوازية، لانها لم تأت عفواً

بل جاءت ثمرة نضالات مئات السنين، وسكبت من اجلها انهار من دماء الشعوب ويمكن توسيعها بالنضال الجماهيري واستخدامها لانتزاع اصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية. وفي بلد تسوده الدكتاتورية كالعراق، ليس من العبث الحديث عن التحرر والديمقراطيةالديمقراطية. فقد عرضت الاستقلال الوطني للضياع وحطمت منجزات الاجيال من التقدم الاقتصادي الاجتماعي. ولا بد ان تحتل الاولوية مهمة اسقاط الدكتاتورية واقامة النظام الديموقراطي كضمانة اساسية للتحرر والتقدم الاجتماعي.

ان التطور الرأسمالي الحر هو طريق الآلام والعذاب للجماهير.. طريق التبعية للامبريالية وادامة التخلف الاقتصادي الاجتماعي، والرأسمال الدولي لا يدخل من التكنولوجيا الحديثة الى البلدان المتخلفة الا ما هو مربوط بخيط يمكنه سحبه متى شاء ليترك البلد متخلفاً كما كان.. ولذلك لا بد من طرح مهمات تحررية تتجاوز العلاقات الرأسمالية من أجل انجاز مهام التحرر الوطني الديموقراطي والتقدم الاجتماعي..

ان الاستاذ مسوح يرى ان مصيبة الماركسيين العرب اكبر لانهم يأخذون بنظريات ونصوص ليست بعيدة زمنياً عنا فحسب بل لأنها «وضعت لبنية اجتماعية مختلفة» ايضاً. وعندي ان مصيبة الاستاذ مسوح اكبر لانه يرفض نصوصاً وضعت للبلدان المتخلفة اصلاً ومنها امكانية تجنب المرحلة الرأسمالية من التطور كلياً أو جزئياً، ويفرض علينا خطأً للتطور فرضته على اوربا الغربية وغيرها ظروفها التاريخية - يعني حتمية التطور الرأسمالي على كل الشعوب - خلافاً للتاريخ العالمي وللنظرية الماركسية اللينينية.

الدور الطليعي للطبقة العاملة

ينتقد الاستاذ مسوح الاحزاب الشيوعية على القول «بالدور القيادي (أو الطليعي) للطبقة العاملة في مجتمع غير صناعي». وفي يومنا هذا يجري التعريض بالدور الطليعي لقيادة الطبقة العاملة بصورة عامة، وبغض النظر عن كون المجتمع صناعي أو غير صناعي، بل يذهب بعضهم الى ان البروليتاريا اما آخذة بالزوال تمتصها الطبقة الوسطى أو انها تغدو من مكملات النظام الرأسمالي، وتتخلى عن دورها الثوري! فلا بد من طرح الاسس التي انطلق منها ماركس في تشخيص الطبقة العاملة للقيام بهذا الدور في السيرورة التاريخية للمجتمع للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية.. فالطبقة العاملة بحكم ارتباطها بأرقى وسائل الانتاج، وما يفرضه عليها من تقدم علمي وتكنولوجي وما يتطلبه من دقة وانضباط، فضلاً عما يفرضه الاستغلال الطبقي من تنظيم اجتماعي، كأساس مادي لأضطلاع الطبقة العاملة بالدور الطليعي في المجتمع، هذا بالاضافة الى الوعي الذي

كرسته الممارسة بعدم قدرة الطبقة العاملة على تحرير نفسها دون ان تحرر جميع فئات المجتمع المضطهدة، فقد صاغ ماركس على اساس ذلك رسالة الطبقة العاملة التاريخية في تحرير البشرية من جميع اشكال الاستغلال..
وسار التطور العالمي ولعبت الطبقة العاملة دورها في تحقيق الكثير من الانجازات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولم تكن الانهيارات في البلدان الاشتراكية الا نتيجة لتغييب الدور الطليعي للطبقة العاملة في قيادة المجتمع والانابة عنها واستلابها عن وسائل الانتاج.
ويعزو المناهضون للدور الطليعي للطبقة العاملة الى ان الثورة العلمية التكنولوجية تقلل دور الانسان في العملية الانتاجية، وتقلص القاعدة الاجتماعية للطبقة العاملة، إذ لم تعد العملية الانتاجية بحاجة الى تلك الجموع الكبيرة، وبذلك فقدت الطبقة العاملة دورها الطليعي في العملية التاريخية! ولكن الثورة العلمية التكنولوجية هي من صنع الانسان، ولا يمكن لأي من منجزاتها ان تعمل الا بإرادة الانسان وتوجيهه. وقد فرضت هذه الثورة تطوير المستوى العلمي والثقافي للطبقة العاملة، وطورت حاجاتها ومصالحها، وفتحت المجال، بما وفرته من انتاجية عالية، لتقليص ساعات العمل لكي يتاح للعامل فرصة التعليم والتدريب المستمر والتمتع بمنجزات الحضارة، وتطويرها، وفي الوقت نفسه لاتاحة الفرصة لجميع الراغبين في العمل للتمتع بحق العمل. وإذ ادى تحكم العلاقات الرأسمالية بأفضليات الثورة العلمية التكنولوجية واستمرار اساليبها في استغلال الطبقة العاملة، بما فيها طول يوم العمل، مما ادى الى تقليص عدد العمال ورمي الملايين في احضان البطالة، فأن الثورة العلمية التكنولوجية تضم الى صفوف الطبقة العاملة، الى جانب العمال الصناعيين والزراعيين، جمهرة ملاكات التوزيع والخدمات والعلماء والمفكرين والأدباء والفنانين. فقد دمجت هذه الثورة بشكل متزايد العلم والفن بالعملية الانتاجية وفي العملية التاريخية ولم تلغها..
ولكن الاستاذ مسوح لم يدن الدور القيادي للطبقة العاملة عامة، وانما القول به في مجتمع غير صناعي، ويعني مجتمعاتنا العربية.. فلمن اذن الدور القيادي هذا؟ لم يشر الى البرجوازية صراحة ولا سيما وان التجارب حية ولا زالت معاشة.. فقد تسلمت البرجوازية الوطنية الحكم من السلطات الاستعمارية أو من الحكومات الموالية للأستعمار، ولكنها لم تستطع اقامة نظام برلماني ثابت ولم تحقق مهام التحرر الوطني الديمقراطي ولم تستطع حتى الاحتفاظ بالحكم. واستولت على السلطة في بعض البلدان العربية احزاب راديكالية تمثل البرجوازية الصغيرة يدعمها ضباط راديكاليون وعلى رأسهم دكتاتور بوناباتي «فوق الميول والاتجاهات» كما يزعم، واطلق عليهم المنظرون الماركسيون اللقب المشرف «ديمقراطيون ثوريون» ففرضوه باباً

اشتراكياً في حين لم يفهم احد منهم ألف باء الديمقراطية. بل كانوا ينظرون اليها بريبة واستعلاء باعتبارها وليدة البرجوازية الغربية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فقد برهنوا على انهم في اغلب الاحوال اشرس أو اخطر في مكافحة الشيوعية والماركسية حتى من البرجوازية الكومبرادورية والاقطاع واقدر منهم في هذا الميدان.

ان موقفهم السلبي من الديمقراطية وتضييقهم الخناق على الاحزاب الماركسية ارتد على أحزابهم فشوهها وأدى الى فشل برامجهم الاقتصادية. وأدى ذلك بدوره الى دفع الجماهير الى احضان الحركات السلفية، كما جرى في السودان ومصر والجزائر، والى ازمات مستعصية اخذ بعضها برقاب بعض، دع عنك المغامرات الكارثية التي اقترفها حكام العراق. وقد انتشر في السنوات القلائل الاخيرة بين اوساط المعارضة العراقية في ديار الغربة الوهم بأن البرجوازية، بما فيها الكومبرادورية، وحتى الملكية، اذا عادت الى سدة الحكم، فسوف تبادر الى ادخال الديمقراطية.. لا شك في ان قدراً معيناً من الديمقراطية التداولية سيعود بين الاوساط البرجوازية الحاكمة. ولكنها لن تكون ديمقراطية للجميع.. مع ذلك فهذه افضل على كل حال من النظام الدكتاتوري الراهن.. أو ليس كذلك؟ بلى ولكن هذا مزاج يائس على كل حال. فاذا كان بأمكان الشعب العراقي الاطاحة بالنظام الدكتاتوري الراهن، فلماذا البديل المصطنع والمستورد؟ لماذا العودة الى الوراء والتحالف مع الرجعية والامبريالية وقد مر الشعب العراقي بكل تلك التجارب المرّة وعبر عن رفضه لها في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وبعد كل هذه التجارب يرفض الاستاذ مسوح القول بقيادة الطبقة العاملة في مجتمع غير صناعي ولا يحدد في أي مرحلة من التصنيع يجب ان تنادي بهذا الدور. ففي الثورة الصينية التي قادها صن ياط صن بين (١٩٢٥-١٩٢٧) كانت الطبقة العاملة الصينية الصناعية بالمعنى الحديث للكلمة لا تتجاوز الخمسة ملايين من نفوس الصين (حوالي ٤٠٠ مليون). ومع ذلك كانت طليعة الثورة وكانت الثورة قاب قوسين أو ادنى من الانتصار الحاسم. فتوالت الاحداث سراعاً وتوفي صن ياط صن قائد الثورة وضربت الاساطيل الامبريالية شنغهاي. وخان الثورة قائدها الجديد جيانغ كايشك. ولكي يتسنى له التساوم مع الامبريالية ذبح الخمسة ملايين عامل صناعي بروليتاري صيني عن آخرهم فهل كان المجتمع الصيني آنذاك صناعياً؟ هل كان صناعياً اكثر من مصر التي كان لعمالها حزب اشتراكي ماركسي، وفي اضرابهم عن العمل عام ١٩٢٣ أحتلوا المعامل واخرجتهم شرطة سعد زغلول بأطلاق النار.

ورغم تخلف الاقطار العربية على العموم في ميدان التطور الصناعي فكل

قطر عربي ظهر فيه حزب ماركسي كانت فيه طبقة عاملة ناشئة. وفي بعض الاقطار ظهرت الطبقة العاملة الى الوجود في المشاريع الامبريالية قبل ان يظهر الرأسمال الوطني الصناعي. وعبرت عن وجودها وفرضت نفسها على المسرح الاجتماعي الاقتصادي والسياسي سواء في النضال الوطني أو الطبقي أي في الدفاع عن مصالحها الطبقية. فأثبتت انها «طبقة لذاتها» كما يقول ماركس وليس طبقة منطوية على ذاتها.
لقد تكونت الطبقة العاملة العراقية مثلاً على يد الامبريالية قبل تكوّن الرأسمال الوطني في الصناعة التي تمثله، وأسست حزبها الماركسي اللينيني الذي تبنى رسالتها. وهو اقدم حزب سياسي عراقي من بين الاحزاب السياسية التي تأسست خلال الستين سنة الاخيرة والتي لا تزال على قيد الحياة. كما انه الحزب الرئيسي في ميدان التحرر الوطني الديمقراطي. وقد قدم للحركة الثورية اصوب الشعارات ونشرها في صفوفها وحولها الى قوة مادية وتصدر النضال الجماهيري.. ألا يكفي هذا يا ترى ليحق لنا القول بطليعية الطبقة العاملة في حركة شعبنا التحررية الديمقراطية أم انه يجب ان ننتظر حتى يصبح مجتمعنا صناعية بالمستوى الاوربي؟! وبقيادة أي طبقة؟ ها هي قيادة البرجوازية الصغيرة، بفضل مغامراتها والركض وراء الاوهام الامبراطورية، قد خربت ما بناه شعبنا خلال عشرات السنين، وسامته من الارهاب الاذلال ما لم تفعله البرجوازية الكومبرادورية والرجعية. اما البرجوازية فسوف تصنع بلادنا ببطء وتمتص دماء كادحينا بهدوء. وتحت لافتات الحرية والديمقراطية والقانون تعيد انتاج التبعية. لقد وضع الحزب الشيوعي العراقي في فترة معينة في برنامجه ان الثورة الوطنية الديمقراطية لا يمكن انجازها الا بقيادة الطبقة العاملة. ولكنه لم يشترط على أي حزب التسليم بهذا المبدأ كشرط للتحالف معه. وبالمقابل رفض التسليم بقيادة الحزب الحاكم كشرط للتحالف معه طيلة الفترة (١٩٦٨-١٩٧٣). ولكنه مع الاسف سلم اخيراً بقيادة هذا الحزب للجبهة (١٩٧٣-١٩٧٨). وكان هذا التسليم شؤماً على الحزبين وعلى الشعب العراقي. وقد اثبت حكم حزب السلطة في العراق خلال ربع قرن بأن موقفهم من الديمقراطية السياسية ومن حقوق الانسان اسوأ حتى من موقف الكومبرادور والاقطاع، يحث دفع اليأس بالمعارضة الى تمني عودة حكم هؤلاء، اي العودة الى الوراء بالتحالف مع الرجعية والامبريالية. وقد تكشف هذا اليأس منذ احتلال الكويت على الاخص، ومبعثه ضعف الثقة بقدرة الشعب العراقي والبعد عن ساحة النضال الفعلية على ارض الوطن.. ان العقبة الكؤود في طريق تقدم العراق هو النظام الدكتاتوري وان تصفية هذا النظام على يد القوى الوطنية المتواجدة الوطن هو الشرط الاول والرئيس لاقامة نظام ديمقراطي وحكومة

ائتلافية انتقالية تضم كافة القوى المحبة للديمقراطية تشرف على انتخابات حرة مباشرة للسلطة التشريعية التي تضع الاسس لارساء النظام الديمقراطي.

ان الثورة العلمية التكنولوجية الجارية في عالم اليوم قد جمعت مهام التحرر الوطني الديمقراطي والاجتماعي والتقدم الحضاري المتزامنة المترابطة المعتمدة بعضها على بعض في مجرى ثوري واحد بحيث لا يمكن جدولتها أو تقسيطها، ولا يمكن تحقيقها لصالح الشعوب والانسانية عموماً الا بتحالف جميع الحركات الديمقراطية وفي مقدمتها الحركة العمالية التي تتصدر نضال الشعوب، بما تقدمه من تضحيات وبرامج وسياسات علمية تقدمية وثورية. ومن اجل هذا تحتاج الشعوب لاحزابها الشيوعية المؤمنة برسالتها التاريخية: تحرير الانسانية من الاستثمار والاضطهاد، الاحزاب المسترشدة بالماركسية اللينينية ومبادئها الانسانية والأممية، الاحزاب المتجددة والمستوعبة لروح العصر، عصر الثورة العلمية التكنولوجية التي لن تتحقق على الوجه الامثل ولصالح الانسانية الا في ظل الاشتراكية.

ان العالم يقترب بخطى متسارعة نحو الاشتراكية. ويجمع خيرة مفكري العالم على ان الانسانية في عصر الثورة العلمية التكنولوجية اما احد احتمالين لا ثالث لهما: الاشتراكية أو البربرية، لان هذه الثورة سلاح ذو حدين وتتوقف نتيجة استعماله على طبيعة من يستعمله: الطبقة العاملة أم البرجوازية؟ الاشتراكية أم الرأسمالية؟ ولصالح الانسانية يجب ان تنتصر الاشتراكية. بيد ان ذلك لا يعني ان الانسانية سوف تستيقظ صباح ذات يوم مشرق لترى اعلام الاشتراكية ترفرف على اقطار العالم اجمع، اي ان الاشتراكية لن تتحقق عفوياً بل نتيجة نضال واعٍ اجتماعياً، فعلا، ودؤوب، يجري على اساس استيعاب الثورة العلمية التكنولوجية والديمقراطية، ولا تسير جميع الاقطار على نسق واحد مطرد وعلى وتيرة واحدة، فلن تنضج فيها الثورة الاشتراكية في آن واحد. وقبل قرن ونصف رأى ماركس وانجلس ان الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر نهائياً ما لم تتحقق في البلدان الصناعية الرئيسية الثلاثة - بريطانيا وفرنسا وألمانيا - واليوم بعد ان اصبحت الحرب بحكم المحال وبفضل الثورة العلمية والتكنولوجية، وعلى اساس الديمقراطية، يمكن ان تنتصر في بلدان كبرى فرادى كالولايات المتحدة وروسيا والصين والهند التي تضم فيما بينها نصف سكان العالم - شرط استيعاب التجربة الروسية وتجديد طريقة العمل. ورغم الكارثة لا يزال عصرنا يستحق اسم عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية.

الشيوعيون والقضية القومية

ومن بين النقدات الخطيرة التي يوجهها الاستاذ مسوح الى الاحزاب الماركسية في البلاد العربية «أغفال دور العامل القومي والقفز فوق مهمة الوحدة القومية». ولم يصرح الاستاذ كيف قفزت الاحزاب الماركسية من فوق مهمة الوحدة والى أين؟ هل للأشتراكية؟ وفي أي برنامج قرأ مثل هذا الشرط؟ كل ما في الامر هو انه يرشقنا بسهام عفلق القديمة الطائشة بعد موت صاحبها. نحن الماركسيين اللبنينيين الملتزمين بمبادئ الاممية البروليتارية ندافع عن حق كل شعب في تقرير مصيره بنفسه، بما فيه حق الانفصال في دولة وطنية مستقلة، أو الاندماج بأشقائه فيما وراء الحدود. ونعتبر هذه الحق من حقوق مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي، وليس من الضروري تعليقه بالثورة الاشتراكية. ولا يشترط لتحقيق الوحدة العربية أو اية وحدة مماثلة الا ان يكون الشعب سيد نفسه في الاقطار المعنية بالوحدة ليكتب للوحدة المنشودة البقاء والتطور ولئلا تتكرر تجارب «الابطال المحررين» الوحدوية التي ماتت «قبل ان تعدو الفطام».

والعجيب ان يوجه هذا النقد الى الاحزاب الماركسية بعد كل الذي جرى في دنيا العرب ولا سيما منذ صيف ١٩٩٠، حيث لم يعد بأمكان أي وحدوي مغال، ولكنه منصف، ان يوجه مثل هذا النقد للاحزاب الماركسية في هذا الجزء من العالم، بيد ان الاستاذ مسوح يستطيع لانه يمارس حق النقد الذاتي المقدس باعتباره من اتباع المنهج الماركسي أو على الاقل ممن يفضلونه على غيره من المناهج كما يقول هو عن نفسه. وفي العراق يقولون: «اذا كان شاهدك من بيتك يحلل صلبك».

والحق نقول ان الاربعين سنة الاخيرة قد برهنت على ان سياسات الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية كانت اقرب الى الواقع العربي من الاحزاب القومية. ومع ذلك فانها لم تكن منزهة من الخطأ أو قلة الصبر، بحيث كانت تبدو احياناً كأنها من خصوم الوحدة، بنظر الجماهير الوحدوية، لتجد نفسها منعزلة عن هذه الجماهير، أو حتى في صفوف اعداء الوحدة، كما جرى بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة كرد فعل للحكم المباحثي خلال تلك الوحدة التي لم تُقم على اسس ديمقراطية راسخة بل على موجة من الحماسة الوقتية لم تلبث طويلاً.

لقد حذر الشيوعيون مقدماً من تجاهل الخصائص القطرية التي تكونت تاريخياً فاتهمهم عبد الناصر بـ«الشعوبية والعداء للوحدة والعمالة»، وبعد فشل الوحدة مع سورية عاد فاعترف بأهمية الخصائص القطرية في محادثات الوحدة في نيسان (ابريل) ١٩٦٣. ومع ذلك وعندما ذكّره احد اعضاء الوفد السوري بكلام عبد الكريم قاسم «نحن جزء من كل ولسنا جزءا

من جزء» يعني ان العراق جزء من الأمة العربية، وليس جزءاً من مصر، رد عليه عبد الناصر: كان قاسم شعوبياً!
لقد تحقق العديد من التجارب الوحدوية وكانت في الحقيقة احلاماً وقتية بين الحاكمين انفسهم لم تعمر طويلاً. وقد تكررت في حياة الحاكم نفسه اكثر من مرة ليفاخر بها وكأنها بطولات اولمبية تتكرر مرة كل اربع سنوات. ومن سخرية التاريخ التي ينساها الاستاذ مسوح ان الاحزاب التي نقشت على راياتها شعار الوحدة باعتباره مبدأها الاول الكلي المطلق هي التي قوضت خيمة الجمهورية العربية المتحدة حرصاً منها على الخصوصية القطرية في حين كان الحزب الشيوعي المعني مطارداً ولم يطالب الا بوضع الوحدة على أسس ديمقراطية وواقعية، ولا سيما واقع القطر المعني ومستوى تطوره.
وانتهت آخر تجربة وحدوية بكارثة تاريخية على الأمة العربية عندما فرض صدام حسين الوحدة على الكويت على طريقة بسمارك، أي بقوة السلاح. ولم تقف غالبية الاحزاب الشيوعية وحدها ضد هذا الاسلوب القسري للوحدة بل الحكومات العربية ايضاً. وحتى اسلوب قاسم غير المسلح والذي لم يتجاوز حدود الادعاء بعائدية الكويت قوبل بأشد المعارضة حتى من جمال عبد الناصر، اشد الوحدويين تعصباً للوحدة.
ان السبب الرئيس في فشل تجارب الوحدة هو ان الشعب في أي قطر عربي لم ينل بعد حق السيادة على الدولة ولم يمارس الديمقراطية ليقرر مصير الوحدة ويحافظ عليها ويدافع عنها ويبذل التضحيات في سبيل ديمومتها وتطويرها.
ان الطبقات الحاكمة في البلاد العربية لم تجد في الوحدة العربية مصلحة لها، كما ان الصهيونية والامبريالية تخاف من قيام دولة عربية متحدة اندماجية أو فيدرالية أو كونفدرالية خوف الشيطان من النار، ومهما كانت طريقة تحققها، ولكنها تجد نفسها اقل قدرة على احباط الوحدة التي يقررها الشعب سيد نفسه، في حين ان من مصلحة الطبقة العاملة العيش في دولة اكبر اذ تجد فيها فرصاً للعمل اكثر، كما يرى لينين، الذي قال ايضاً ان بناء الاشتراكية سوف يكون أيسر كلما كانت البلاد اكبر.
لقد استقلت الاقطار العربية كدول ذات سيادة بعد الحرب العالمية الثاينة، واخذت تتطور تطوراً مستقلاً بمعدل قرن واحد من الماضي في كل سنة من الحاضر. وقد اخذ التطور طابعاً مزدوجاً: فمن جانب تتطور خصوصية كل قطر عربي، وهي خصوصية تكونت تاريخياً، ومن الجانب الآخر تتطور عوامل الوحدة العربية ولا سيما الثقافية، وعلى الاخص اللغة العربية. وفي اعتقادي ان أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والجواهري وغيرهم من الفنانين والادباء من رجال الثقافة ونسائها عملوا من اجل تطوير الوحدة العربية اكثر مما **فعله**

الساسة الوحدويون جميعا. ويبرز تطور عوامل الوحدة بخاصة في المغارب العربية في عملية التعريب، حيث لاول مرة يتكلم الساسة المغاربة بالعربية بطلاقة، بدلاً من الفرنساوية. ان العامل الحاسم لاقامة أي درجة من درجات الوحدة هو العامل السياسي أي ان يحصل الشعب في كل بلد عربي على حق السيادة على دولته. ومع ذلك فان الاقطار العربية تسير سيراً وئيداً نحو التكامل والوحدة، لان سيرورة الوحدة والتكامل طابع عصرنا في مختلف مناطق العالم. وما جرى من تفكك في الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا انما هو رد فعل وقتي للوحدة الاندماجية أو المطلقة السابقة، والاخطاء الفضة التي ارتكبها الحاكمون، واخيراً وليس آخراً الدسائس الامبريالية.

واخيراً ليس هناك من أساء الى الوحدة العربية اكثر من غلاة الوحدويين، سواء عن طريق تجاهل ارادة الشعوب العربية ام عن طريق فرضها بقوة السلاح.. ان حرب الكويت التي مزقت الصف العربي الى حد الاحتراب بالسلاح سببت اكبر انتكاسة لقضية الوحدة العربية واعمق ازمة لغلاة الوحدويين. ولا يخرجهم منها توجيه النار الى الشيوعيين باستخدام عتادهم القديم. ولا يستخدمونه هم هذه المرة بل يقذفه «منهجي ماركسي». واعود واسأله: من منا قفز فعلاً من فوق الوحدة القومية، نحن الماركسيين أم غلاة الوحدويين؟ من منا ادخل القطيعة الكلية والحرب الباردة المدمرة الى العلاقة بين قطرين عربيين مسلمين وحدويين متلاصقين متشابهين في جميع الصفات الاساسية؟

ان الاحزاب الشيوعية تدرك جيداً مسؤوليتها التاريخية في هذه الأزمة العصيبة تجاه مصائر البلاد العربية وقضية الوحدة، التي تتفق مع مصالح الطبقة العاملة وتلبيها اكثر من أي طبقة أخرى سواء من وجهة نظر المصالح الآنية أم مصلحة بناء الاشتراكية. ولذلك تأخذ الاحزاب الشيوعية على عاتقها مهمة الوحدة العربية مقترنة بقضية الديمقراطية التي تعترف للشعوب الأخرى المتعايشة معها بحق تقرير المصير. ولا شك في أن الاساس الراسخ لدولة الوحدة هو الاقتصاد المشترك، وهو الحلقة المفقودة من بين عوامل الوحدة العربية. ويمكن للاقتصاد المشترك ان يتطور تلقائياً خلال مدة مديدة، ولكن يمكن ايضاً تسريعه حتى بين أمم لا تجمعها وحدة قومية كما يجري في اوربا الغربية. فالوحدة السياسية على اساس ديمقراطي بين الاقطار العربية هي اقوى عامل مسرع للوحدة الاقتصادية، يعني الاقتصاد المشترك، بامكانه اختزاله مائة سنة من التطور العفوي الى عشر سنوات من التطور المنهجي لتحقيق التنمية على اساس التكامل الاقتصادي. ولم يعد بالامكان في يومنا هذا تحقيق دولة الوحدة العربية على يد اية بروسيا عربية أو أي بسمارك

عربي ولا بالجبروت العسكري بأي حال من الاحوال. هذا ما تعلمنا إياه النظرية الماركسية-اللينينية ومنهجها المادي الديالكتيكي، يا استاذ مسوح، فضلاً عن تجربة الحياة.

دور العامل الديني والروحي

ومن انتقادات الاستاذ مسوح للماركسيين العرب «عدم ادراك دور العامل الديني (والروحي بعامة) في التطور الاجتماعي».

ان احزابنا احزاب علمانية ولكنها لا تحتكر هذه الصفة لنفسها. فهناك العديد من الاحزاب العلمانية التي سبقتها في البلاد العربية وفيها احزاب نشأت بعد ثورة ١٩٠٨ التركية، واحزاب جديدة جاءت بعدها وتولت السلطان. ولكن احزابنا تضم في صفوفها اعضاء مؤمنين ينتسبون الى شتى الاديان والمذاهب والملل والنحل، منهم الاستاذ مسوح الذي يجمع حسب قوله بين عقائد شتى في الحياة، من ابو نؤاس الى المهاتما غاندي.. ولكن تجمعهم وجهة نظر عالمية واحدة هي المادية الديالكتيكية. والاحزاب الشيوعية تلتزم بالفلسفة المادية الديالكتيكية وتسترشد بها ولا توارب. وتناضل ضد المثالية والميتافيزيائية والمادية المبتذلة نضالاً فلسفياً.. والماركسية تنظر الى الدين باعتباره جزءاً من الآيديولوجيا التي تلعب دوراً فعلاً في اللحظات الحرجة من السيروة التاريخية، وقد يكون ثورياً كما جرى في النضال ضد التشكيلة الاقطاعية، واحياناً ضد الكولونيالية في عصرنا. وقد قيم ماركس وانجلس حركة النبي العربي الوحدوية التي وحدت القبائل وجعلتها قومية عربية واحدة وحررت الجزيرة العربية من الحكم الاجنبي، وجعلت منها دولة واحدة. ويرجع انجلس الى الاسلام الفضل في تأميم الارض (من الاندلس الى اندونيسيا).

ان الماركسية لا تصادر حرية العقائد، سواء كانت دينية أو علمانية، ولا حرية العبادة. ولكن الماركسية لا تتصالح مع الفلسفة المثالية وتناضل ضدها نضالاً فكرياً، أي تقارعها الحجة بالحجة. والماركسية حزبية أي انها متحزبة لفكر الطبقة العاملة ضد الفكر البرجوازي والاقطاعي والافكار الغريبة، دون ان تنغلق على نفسها، اذ انها تقيم كل ما هو ايجابي في المدارس الفكرية الأخرى، وتتبناه، وتناضل ضد كل ما هو سلبي وترفضه. وقد تبنى ماركس وانجلس كل ما هو ايجابي وسليم من افكار الاشتراكيين الطوباويين والمثاليين (هيغل) وانتقدا بصرامة علمية كل ما هو سلبي وزائف.

وعلى قدر ما اعرفه لم يتطور أي حزب ماركسي في البلاد العربية في صراع مع الاديان والمتدينين. لم يهدم الشيوعيون دور العبادة. ولم يقتل أو يعدم شيوخ الاسلام.. بل نحن نستطيع ان نتحالف مع المتدينين تحالفاً سياسياً

في قضية مشتركة، كقضية الديمقراطية مثلاً. وقد دخل الحزب الشيوعي العراقي فعلاً في احلاف مع الحركات الاسلامية. وقد حاول بعض الشيوعيين ايجاد لغة مشتركة مع الدينيين كان رد الفعل عليها قاسياً. فعندما كتب خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري اللبناني في حينه ان مبادئ الشيوعية لا تتناقض مع تعاليم الاسلام ردت عليه جريدة «القبس» الدمشقية رداً قاسياً موتوراً زاعمة انه يجدف بالاسلام. وفي الثلاثينات نشرت «الطليعة» البيروتية مقتبساً من القرآن هذا نصه: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ولنمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». وهذا المقتبس يغيض الطبقات المالكة لانه ينص على مصالح الفقراء صراحة وليس كل النصوص بمثل هذه الصراحة فالكثير منها حمال اوجه يفسره كل على هواه (قاتل الله المفسرين).

فالشيوعيون لا ينفون التراث الديني نفياً عدمياً مطلقاً بل يمحصونه ويميزون بين رسالته الاصلية، التي جاءت لمصلحة الفقراء والمستضعفين في الأرض، وبين ما علق به من تفسيرات وتأويلات لصالح الطبقات المالكة في مختلف العصور، لانها تبعث الخنوع والاستسلام لدى الجماهير وتذلها. فمثلاً في صدر الاسلام جعلت ارض العراق الزراعية خراجية بيد فلاحيها يدفعون الريع (الخراج) لبيت مال المسلمين ليصرف على الشؤون العامة ويوزع معاشاً للمسلمين كافة. فكيف تحولت ارض السواد في القرن العشرين الى اقطاعات كبيرة مساحة كل منها آلاف الهكتارات، يتمتع بها كبار الملاكين، مع ان الاسلام كان دائماً دين الدولة الرسمي؟ ويوجد الآن من المتدينين من يحرم توزيع الاراضي مجدداً على الفلاحين بدعوى ان المصادرة من المحرمات! وهي لم تكن في الحقيقة سوى مصادرة المصادرين أي كبار الملاكين انفسهم. وبعض المؤمنين لم يتوان صراحة عن الدفاع عن الاقطاع. ويرفع الاصوليون اليوم في السودان ومصر والجزائر رايات الدين، ولكن هل تتفق جميع اعمالهم مع ما جاءت به الديانات؟!

واذكر بالمناسبة ان الرفيق كريم مروة، القائد الشيوعي اللبناني، عقد قبل بضع سنوات ندوة في لبنان فتح فيها باب الحوار مع الاسلاميين. واذكر ان احد المؤمنين ممن حضر الندورة - ولم اعد اذكر اسمه - رد عليه صراحة بما قاله: اهلاً وسهلاً! ها انت قد عدت الينا ولكن لماذا تدخل من الشباك وليس من الباب.. ومن هذا الجواب يفهم ان المؤمنين لا يحبون المداعبة بقدر ما يتعلق الامر بالعقيدة ولا التجزئة والتقسيط ولا الحلول الوسيطة أو التطعيم، بل يريدون إما، وإما، أما الايمانية الخالصة لوجه الله واما المادية الملتزمة بالماركسية اللينينية.. فلم يتقدم (مشروع مروة) خطوة واحدة حتى

الآن على ما اظن. وللرفيق مروة علاقة روحانية بالنجف الاشرف وجامعتها العريقة. وعمرها ألف سنة فهو نصف عراقي ونصف روحاني.
ويذكرنا نقد مسسوح للماركسيين العرب أو وصمهم «بعدم ادراك العامل الديني (والروحي بعامة) في التطور الاجتماعي» بنقد ميشيل عفلق الذي قال «انا لست ضد الماركسية ولكن البعث هو الاشتراكية العلمية زائد الروح» ولم يفسر الاستاذ مسوح ماذا يعني بالروح. والحال ان نقد عفلق كان اكثر احتراماً للماركسية. وقد فسر ما يعنيه بالروح وقال ان روح القومية العربية هو الاسلام وتخلى عن ايمانه الآرثذوكسي واعتنق الاسلام. ولاسباب سياسية، كما قيل، لم يعلن اسلامه الا بعد وفاته. ولكن هل غدا عفلق اقرب الى الروحاني أم الى القوماني عندما قصف حزبه في العراق دور العبادة دون ان يحتج!! وماذا يطلب الاستاذ مسوح من الماركسيين العرب ليبرهنوا له اهتمامهم بالجانب الروحي بعامة؟! هل يقتدون بعفلق أم ماذا؟!
وعلينا الان ان ندرس على ضوء الماركسية ومنهجها الديالكتيكي مناهج الحركات الدينية وممارساتها لنحكم لها، أو عليها، لا من اقوالها، بل من اعمالها اولا وقبل كل شيء.
يجب ان لا تعتبر الجماهير حقلاً لتجارب أي حركة من الحركات التي تبدو جديدة، وإن يكن بالاسم، بل نساعد الجماهير مقدماً على التمييز بين الغث والسمين، ونترك لها الحكم النهائي على هذه الحركة أو تلك. والا فما هو الدور الطليعي اذن؟ هل نقول للشعب: اذهب انت وربك فقاتلا ونحن ها هنا قاعدون؟! ليخوض الشعب لوحده تجربته مع هذه الحركة أو تلك: دينية أو علمانية، لنحكم على النتائج فيما بعد الوفاة؟! وما فائدة نظريتنا العلمية الطليعية؟! هل هي كتابة تاريخ ما هو كائن فقط، أم استشراف ما هو آت اولاً وقبل كل شيء؟!
وهل نحن «ماديون» بلا روح؟
عندما اتخذنا الشيوعية مذهباً لنا في الحياة، ولم نكن نعرف ألف باء النظرية أو الآيديولوجيا أو الديالكتيك (المنهج والمنطق) اذ لم نكن من ذوي الثقافة العليا التي تؤهلنا للشيوعية عن طريق الفلسفة، ولم نكن من البروليتاريا الصناعية لنتوصل اليها عن طريق النضال الطبقي ضد الرأسمالية من اجل اثمن مصالحها الآنية. وقد كانت الحركة العمالية المطلبية لا تزال في القماط، بل صرنا شيوعيين روحياً.. توصلنا من احاديث ابائنا ومعلمينا، وحتى من هجاء الاستعمار للشيوعية، انها طريق التضحية والفداء لبناء جنة الكادحين على الارض.. كان ايماننا بالشيوعية ايمانياً روحياً ولم نتعرف على النظرية الماركسية اللينينية الا بعد سنين طويلة عندما توفرت بلغتنا العربية مكتبة ماركسية لينينية وافية بالمرام.

ان افدح اخطائنا نجم عن التجريبية والفقر النظري، وليس عن التبحر بالنظرية، ولا من اعتبارنا الماركسية اللينينية نظرية أو ايديولوجيا بدلاً من اعتبارها منهجاً، وليس من اهمالنا الجانب الروحي. فالروح الانسانية: روح الايثار والتضحية والفداء من اجل الكادحين والمعذبين، هي التي مكّنتنا من الصمود وتحمل التضحيات الرهيبة: عشرات السنين في السجون والتشرد والتخفي والموت تحت التعذيب، أو على اعواد المشانق أو برصاص العدو.. وكان الادب والفن الشيوعي هو الذي يغذي نفوسنا ويغمرها. فكان الشيوعيون في زنزانات الاعدام يتغنون بشعر ناظم حكمت الشيوعي التركي ويكتبون على جدرانها ابياتاً من شعره:

اذا لم احترق انا؟

وتحترق أنت؟

ونحترق نحن؟

فكيف يخرج من هذه الظلمات نور؟!

ان روحنا هو روح شعبنا الكادح الثائر، وقد هذبته الشيوعية حيثما كان لها حضور ووجهته ونظمته. وبهذا الروح الواعي نستطيع الصمود بوجه اسوأ احباط في تاريخ حركتنا العالمية، الحافل بأروع الانجازات في تاريخ الانسان، بأن نندمج بشعبنا في احرج ايامه وننغمر في همومه. لقد قدمت حركتنا تضحيات «رهيبة» على حد تعبير «نيويورك تايمس» احدى كبيرات الصحف البرجوازية التي تزعم ان تضحياتنا ذهبت ادراج الرياح. والحقيقة ان اية حركة اجتماعية أخرى لم تقدم على مر العصور والاجيال ما قدمته حركتنا من تضحيات بفضل روحها الثورية الواعية وعدالة قضيتها. ولكنها لم تذهب سدى. فقد أنارت السبيل للبشرية التقدمية. وحتى أفدح اخطائها قدمت للأنسانية تجربة لا تقدر بثمن على طريق التقدم ولم يشهد تاريخ العالم حركة اجتماعية بلا انتكاسات وكوارث. والنهوض من الكبوة رهن بايماننا الواعي بعدالة قضيتنا ووعينا الطبقي متجسداً بالماركسية اللينينية وروحها الثورية، روح التجديد الدائب.

طريق التجديد: بماذا نبدأ؟

يقول الاستاذ مسوح في بداية مقاله «ولعل البحث يجب ان يتعدى الجانب التطبيقي في الماركسية الى جانبها النظري. فليس معقولاً بعد انهيار النموذج الذي اقيم تحت شعارات الماركسية ولوائها ان يبقى الفكر ذاته بعيداً عن اعادة النظر النقدية..».

اصبح التجديد ضرورة مصيرية.. وعليه يتوقف البقاء أو العدم.. والمسألة هنا هي بما نبدأ؟ بنقد الفكر الماركسي أم بنقد التجربة؟ بدراسة الظروف

المعاصرة والواقع العربي اولاً للمساهمة في تطوير الفكر الماركسي أم بتطوير الفكر الماركسي اولاً لدراسة الظروف المعاصرة والواقع العربي؟ يأتي الجواب في الفصل الخامس من مقالة الاستاذ: «تطوير الفكر الماركسي بالاداة المعرفية الماركسية ذاتها» وفي هذا الفصل اعطانا الاستاذ نموذجاً لهذه الاداة وهو ثنائياته الثلاثية الثلاث، مؤكداً اهميتها لتجديد الماركسية، وتتلخص في استخدام المنهج لنفي النصوص باستمرار دون ان يشير الى الجانب التطبيقي أي علاقتها بالممارسة. وقد ناقشناها في اواخر الحلقة الاولى من مقالتنا هذه واشرنا الى خطائها العرفاني وهو التفريق بين النظرية والمنهج ومعارضة احدهما بالآخر.
والآن نشير الى فصل الاستاذ مسوح بين الماركسية والممارسه، ومحاولته تطوير الماركسية او تجديدها بمعزل عن الممارسة، عن التجربة، عن الجانب التطبيقي. فلكي نساهم مع سائر الحركة الشيوعية العالمية في تجديد الماركسية يجب ان نكشف عما شاخ منها، ما تخلف عن الواقع. ولكي نعرف ما تخلف منها عن الواقع يجب ان نعرف ما استجد في هذا الواقع، وفيم تجاوز الواقع نظريتنا العلمية. وللتوصل الى هذا يجب ان نستخدم النظرية العرفانية الماركسية ونهجها لدراسة الواقع الراهن. العالمي والعربي والقطري، وتجربتنا، نحن الشيوعيين، ونكشف اخطاءنا، نحن بالذات، بكل جرأة، ونقرر بكل صدق ما اذا كانت النظرية هي التي ضللتنا سواء السبيل، أم نحن ضللنا السبيل لاننا لم نعرف كيف نسترشد بها في ظروفنا التاريخية المعينة، وما اذا كانت اخطاؤنا نتيجة للجمود العقائدي أو تحريفها، النوم على النظرية أو نتيجة الجهل بالنظرية، والوقوع في التجريبية؟
ان تجديد الماركسية يستلزم قبل كل شيء تجديد احزابها. فهي الذات الفاعلة أو الرأس المفكر الذي يتوقف عليه التجديد، الذي يجب ان يكون فكرياً وسياسياً وتنظيمياً وتجديد الحزب الثوري، الحزب الذي يريد تغيير عالمه، يستلزم قبل كل شيء وفوق كل شيء، ان ينغمر في صفوف الشعب العامل، ولا سيما الطبقة العاملة. وهي الطبقة الجديدة والنامية بسرعة في البلاد العربية والمرتبطة بأرقى وسائل الانتاج، وما تفرضه من معارف علمية وتكنولوجية. وعلى نضوجها السياسي ونضالها الثوري يتوقف لا مصير الاشتراكية فقط، بل مصير الديمقراطية السياسي ايضاً، ومصير الوحدة العربية كذلك. ان الحزب السياسي الذي ينغمر في نضال الجماهير المطلبي والسياسي هو الحزب الذي سوف يتحسس في كل لحظة الحاجة الى النظرية العلمية المرشدة ومنهجها، والحاجة بدورها تدفعه الى البحث عن تطوير النظرية والمنهج. فالحاجة أم الاختراك كما يقال. اما الاحزاب التي رضيت لنفسها بدور وعاظ السلاطين فأي حاجة بها لتجديد النظرية أو تطويرها؟!

وحتى الاحزاب التي كانت في سدة الحكم ابتعدت عن الانغمار بين الجماهير والنضال من اجل حاجاتها الحيوية. ولذلك نسيت تجديد النظرية أو تطويرها. فارتكبت في الممارسة اخطاء لا تغتفر ادت الى الازمة التي نعيشها في يومنا هذا.

يرى الاستاذ مسوح ان الحزب اللينيني «الحزب من طراز جديد» من افكار لينين التي يصنفها في جدول «اعادة انتاج الماركسية روسياً» والتي يعتبرها من التراث الصالح للاطلاع فقط، أي يدعو للتخلي عن السمات الاساسية للحزب اللينيني باعتباره طليعة الطبقة العاملة، وحامل رسالتها التاريخية، واعلى اشكال تنظيمها القائم على المركزية الديمقراطية ووحدة الارادة والعمل. ويبني تنظيماته على الاسس الوطنية والأممية ويجمع بين القوميات والاجناس الاثنية، بصرف النظر عن الاديان والطوائف والاقاليم.. وهو حاصل دمج منظمات وليس افراد لا يجمعهم تنظيم بل يلتزمون بنظام داخلي واحد، ويخضع جميع اعضائه وهيئاته الى انضباط واحد ويرتبطون ببرنامج واحد.. ان هذه الوحدانية في الحزب الشيوعي لم تكن في حياة لينين تتعارض مع تعددية الآراء والاجتهادات. ان وحدة الارادة والعمل ضرورية بخاصة للحزب الثوري. ومع ذلك فقد اسيء استخدامها. ولكن لا يجب الغاؤها في الحاضر جراء سوء الاستعمال في الماضي. وتتحقق وحدة الارادة والعمل عن طريق المركزية الديمقراطية، المصطلح الذي اصبح ممقوتاً جراء سوء استعماله. والحال لا يمكن لأي حزب سياسي أن يبنى الا على اساس المركزية الديمقراطية سواء نص عليها نظامه الداخلي أم لم ينص... وهي تعني في التطبيق الصحيح خضوع الاقلية للأكثرية وحق الاقلية في التبشير برأيها، لاقناع الاكثرية به، وليس لمجرد «الأحتفاظ برأيها» ومن نافلة القول انها لا تتعارض مع تعددية الآراء والاجتهادات. وكرد فعل لغياب الديمقراطية في الماضي وسيادة المركزية البيروقراطية لفترة طويلة تشتد الآن نزعات ليبرالية مضادة.. ان النص في النظام الداخلي على التزام الحزب بالمركزية الديمقراطية لا يكفي. فقد بقي هذا النص عشرات السنين دون تطبيق بل أسيء تطبيقه لجانب المركزية المطلقة، أي البيروقراطية. فأولاً يجب ان ينص النظام الداخلي على حقوق العضو والهيئات الحزبية بصورة عينية واضحة تطبيقاً للمركزية الديمقراطية، وثانياً، اعطاء ضمانات لتطبيقها، وعقوبات على من يخرقها، وتثقيف عميق ومشبع بها (ويجب الانطلاق من انه لا توجد ديمقراطية مطلقة او مجردة) واضرار المركزية البيروقراطية ونتائجها الكارثية على الاحزاب الشيوعية. واداة التجديد هي الصراع الآيديولوجي، صراع الافكار. ان الآيديولوجيا الماركسية اللينينية آيديولوجيا ثورية مناضلة ولم تكن لتتطور لولا النضال الفكري المثابر الذي شنته ضد جميع

الآيديولوجيات السابقة والتيارات الفكرية المعادية للاشتراكية العلمية.
والصراع الفكري لا ينفي الانفتاح علي الافكار، لدى الاطراف الأخرى، انفتاحاً انتقادياً وتقبل ما هو ايجابي وقيم. والصراع الفكري مع الآخرين لا ينفي التحالف السياسي معهم. فقد وجدت دائماً حركات ثورية تحمل آيديولوجيا مثالية وحتى رجعية. اما داخل الحزب الشيوعي فلا يمكن السماح بتعدد اللآيديولوجيات والحركات بل بتعدد الاراء فقط. فالحزب ليس حلفاً أو جبهة موحدة. والكلمة الاخيرة لأي صراع داخلي في الحزب الشيوعي هي للفكر الماركسي اللينيني.
ان لجم الصراع الفكري في الحزب يعني تحجّر الحزب، وبالتالي تفسخه.
لعل بعض الكوارث الطبيعية أو الاجتماعية تحمل معها بعض العزاء. ومن هذا القبيل تفكك عرى الاتحاد السوفيتي كقوة عالمية عظمى مضادة للامبريالية وتفكك حزبه بعد ان كان منبع إلهام ومصدر قوة معنوية لا حدّ لهما للماركسيين والاشتراكيين بعامة، ومصدر قوة مادية ايضاً للعديد من الانظمة الوطنية والتقدمية وحتى سنداً لبعض الدول الامبريالية كفرنسا للوقوف بوجه الهيمنة الامريكية لاتخاذ موقف مستقل في هذه المشكلة أو تلك.
كان ذلك الجانب الايجابي والرئيسي وهو الذي افتقدته حركتنا والعالم بعامة. وهذا الخسران هو ما نعنيه بالكارثة. اما الجانب الآخر، فهو ان الحياة لاول مرة في تاريخ الحركة الشيوعية، منذ ولادتها، قد القت على عاتق كل حزب من احزابنا كامل المسؤولية عن مصيرها ومصائر الحركة ككل والطبقة العاملة والانسانية.. فاما ان نقبل التحدي الذي تلقيه علينا الحياة ونتحمل العبء بكامل المسؤولية لنواصل السيرورة الثورية، واما ان تتركنا الحياة في زوايا النسيان.. ولم يعد بالامكان الاتكال على مشورة الاشقاء الكبار التي كانت تحظى بقدسية لا تقبل الجدال، بل اصبح الجدل طريقاً وحيداً للحقيقة.
ولم يعد بالامكان الاستغناء عنه، بل لم يعد بالامكان اسكاته بكم الافواه، اذ نحن نجتاز فترة جزر هائل في المسيرة الثورية العالمية، بل فترة ارتداد كما يحدث بعد كل كارثة تاريخية، حيث تسود البلبلة ويرتد الكثيرون الى اصولهم ومناشئهم الآيديولوجية والقومية، وحتى الأثنية والطائفية، وينحرف آخرون الى النهلستية والفوضوية والى كل تقليعة في الحياة والسلوك.
ويكثف اعداء الاشتراكية نيرانهم على الشيوعيين. وبشماتة الحاقد اللئيم يتساءلون وكأنهم يتفجعون: يا للضحايا الرهيبة اين ذهبت؟! وكأنها ذهبت سدى ولم تنور طريق الشعوب في نضالها التحرري ضد الاستعمار والرجعية ولم تحفظ الانسانية من الفناء النووي.. انهم يريدون زعزعة ايمان الشيوعيين بجدوى تضحياتهم، اولاً وقبل كل شيء. فهذا السلاح المعنوي الفتال خطر جداً في الفترة الراهنة، فترة الشعور بالخيبة والاحباط.. في حين

ان سيرورة التقدم الانساني الجارية جعلت البشرية احوج الى الشيوعيين مما كانت عليه في أي وقت مضى، باعتبارهم حاملي رسالة الطبقة العاملة: تحرير الانسان من الاستثمار والاضطهاد، احوج الى الشيوعيين المتمرسين لا بالماركسية اللينينية فقط بل والملمين ايضاً بآخر المنجزات العلمية والثقافية التي تؤهلهم لان يكونوا طليعيين حقاً. وقد قال لينين ان الشيوعي الذي لا يثقف نفسه بأفضل ما انتجه العقل البشري ويكتفي بدراسة الكتب الماركسية انما هو شيوعي بائس.. ان الالمام بالثورة العلمية التكنولوجية ليس ضرورياً بالنسبة للاكاديميين وكبار المثقفين والمنظرين فقط، بل هو ضروري ايضاً لاولئك المناضلين المعنين بأثمن مصالح الشغيلة: بخبزها اليومي، بشروط العمل، بالنضال الطبقي ضد الاستغلال، سواء في القطاع الرأسمالي الخاص أو في القطاع العام. وفي يومنا هذا تقترن الثورة الاشتراكية بالثورة العلمية التكنولوجية. فينبغي على الماركسي اللينيني ان يلم بقوانين الثورتين.
ويتطلب التجديد ان ندرس خطتنا العامة، الاستراتيجية والتاكتيك، دراسة انتقادية معمقة ونغيرها كما يقتضي الواقع الجاري العالمي والعربي والقطري. فواقعنا لا ينفصل عن الواقع العالمي بل ان العالم العربي يقع في قلب العالم الذي تزلزله الثورة العلمية التكنولوجية بسبب سيطرة علاقات الانتاج الرأسمالية. ولذلك يجب ان ندرس القوانين الاقتصادية للثورة العلمية التكنولوجية وما تفرضه من تغيير في علاقات الانتاج، دفاعاً عن حقوق الشغيلة، وانطلاقاً من نظريات ماركس الاقتصادية وتطويرها.. كما يجب ان ندرس المخاطر التي تشكلها هذه الثورة في ظل العلاقات الرأسمالية، وما تفرضه علينا من تعبئة جهود البشرية جمعاء في منظمات وطنية وعالمية لحماية البشرية والبيئة.. وندرس الآفاق الحضارية الجديدة التي تتيحها هذه الثورة لضمان تمتع جميع افراد المجتمع وعموم البشرية بخيراتها.. اننا امام عصر جديد عصر لا تلجه البشرية الا بتظافر جهود كل فرد فيها، وفي طليعتها الحركة الشيوعية العالمية المتجددة المدركة لمسؤوليتها ازاء البشرية والتاريخ والمفعمة بالثقة والمعززة بالمعرفة.
ان طريق الخروج من الازمة التي يعانيها شعبنا، والشعوب العربية كافة، هو طريق النضال من اجل الديمقراطية، الديمقراطية ليس بالاقتران مع التطور الرأسمالي المنفلت بل من اجل اكمال الديمقراطية المقترنة بالتوجه الاشتراكي، اذ لم تعد الاشتراكية محض حلم يداعب البشرية المعذبة، ولا محض علم – نظرية ومنهج – أو غاية تتحقق في مستقبل غير منظور، رغم الكارثة التي اصابتها في السنوات الاخيرة. انها الحتمية التاريخية التي تفرضها الثورة العلمية التكنولوجية كسبيل وحيد لانقاذ البشرية والحضارة من البربرية.

مناقشة لزكي خيري

حول التحالفات والقضية الكردية والحصار

هادي محمود *

كتب الرفيق زكي خيري في العدد ٢٦٠ من «الثقافة الجديدة» وفي باب مناقشات، موضوعاً حول «التحالفات والقضية الكردية والحصار». ومع تقديري العالي لجهد الرفيق واهتمامه ومتابعته للوضع السياسي في العراق عموماً، وما يتعلق بسياسة الحزب ومواقفه ارتأيت مناقشة بعض المفاهيم الواردة في الموضوع المذكور.

أولاً: حول التحالف

في البداية، لم أجد من اللائق ان ابدأ النقاش، مع الرفيق العزيز، بالحديث عن اهمية الجبهة وضرورتها واهمية تحالف القوى المحركة للثورة، التي تتحدد حسب المرحلة التأريخية والظروف الموضوعية والذاتية، كما لم أجد من الضروري الحديث عن مشروعية المناورات وعن «الاستفادة مؤقتاً من تناقض المصالح بين الأعداء وعن التوافق والمساومات مع الحلفاء المحتملين. ولو كانوا موقتين، متذبذبين، متأرجحين وبشروط»**. فمثل هذه البديهيات تعلمتها اجيال من الشيوعيين عن طريق الرواد الأوائل الذين نعتز بهم دائماً، ومنهم الرفيق زكي خيري الذي يؤكد في كتاباته على ضرورة التمسك باللينينية، وأعتقد ان المفاهيم اعلاه لا تخرج عن اطار نظرية لينين حول التحالفات.

* عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكردستاني- العراق، رئيس تحرير صحيفته المركزية « ريگاي كردستان ». وجدير بالذكر ان المقالة كانت مرشحة للنشر في العدد الماضي. ونظراً لرحيل الرفيق زكي خيري تقرر اضافتها الى الملف الحالي- ث.ج.

يذكر الرفيق في موضوعه أمثلةً حول تضحية الحزب بالجانب الديمقراطي في نضاله من أجل الجانب الوطني، وهو يذكر تلك الأمثلة كمراقب للأحداث وليس كمساهم فيها. واذا افترضنا عدم تدقيق تلك الامثلة، وقبول التضحية بالجانب الديمقراطي من أجل الجانب الوطني أو بالعكس، فالنتيجة المنطقية هي التضحية بالجانبين، حيث لا يمكن الفصل بينهما أو تفضيل جانب على آخر بسبب ترابط النضال الوطني الديمقراطي، فمثل هذا الفصل، بتصوري، أمر تعسفي وتكون النتيجة خسارة الأثنين. وهذا ما استنتجه الرفيق الخالد فهد في مؤلفيه «مستلزمات كفاحنا الوطني» و«نضالنا الوطني الديمقراطي».
قد لا أملك ما فيه الكفاية من المعلومات الدقيقة، مثل ما يملكه الرفيق زكي خيري الذي عاصر الحزب منذ بداية تأسيسه، ولكن ما يتفق عليه الجميع هو اعتبار ثورة ١٤ تموز ثمرة لنضال الحزب ولجبهة الأتحاد الوطني. وهذا يعكس (اذا تحدثنا بالمكور) صواب سياسة الحزب التحالفية في جبهة الاتحاد الوطني رغم الثغرات التي رافقتها، ذلك ان الجبهة كانت القاعدة السياسية للثورة وقيامها كان عامل تشجيع للضباط الاحرار للاقدام على الثورة.
أما الحديث عن الجبهة مع السلطة وميثاق ١٩٧٣، فقد قال المؤتمر الوطني الرابع للحزب كلمته في الوثيقة التقيمية التي تعكس ارادة أغلبية الشيوعيين العراقيين. وتتضمن الوثيقة نقداً ذاتياً صريحاً ودقيقاً قلما مارسه حزب آخر في الساحة السياسية العراقية. وهو أشد بكثير مما أورده الرفيق زكي خيري حول الموضوع. والرفيق زكي خيري يتحمل جزءاً من المسؤولية الشخصية، ولا يعفيه من تلك المسؤولية موقفه السلبي من التحالف مع السلطة في بداية ابرام الميثاق، فقد اصبح بعد التوقيع من المتحمسين لتطبيق ذلك التحالف، بعكس رفاق آخرين في اللجنة المركزية للحزب ممن كانوا ضد ذلك التحالف على طول الخط أو من الذين كانوا مع التحالف ولكنهم غيّروا موقفهم أثناء ممارسة العمل الجبهوي بسبب تصرفات النظام وسياساته، فالسياسة التحالفية يجب تدقيقها بالممارسة العملية باستمرار.
من الملاحظ أيضاً ان الرفيق زكي خيري لا يشير في نقاشه الى موضوعة التحالف مع الجيش العراقي أو ما سمي بـ«الدفاع عن الوطن»، تلك الموضوعة التي لها صلة بالسياسة التحالفية، والتي دعا اليها الرفيق زكي حيري في المؤتمر الوطني الرابع للحزب، ولم ينل اقتراحه موافقة الشيوعيين ومؤتمرهم الرابع.

في المؤتمر الوطني الخامس للحزب الذي انعقد عام ١٩٩٣ أخذ النقاش حول السياسة التحالفية للحزب حيزاً كبيراً من أعمال المؤتمر، واتخذت الدراسة شكلاً ملموساً بعد أن صوت المؤتمر على عدة خيارات. وكان هناك دعوات للخروج من المؤتمر الوطني العراقي الموحد (موعم)، لكونه «صنيعة واشنطن» وكون تواجدنا في هذا الإطار التحالفي «اخلالاً بوطنية الحزب».
لقد نال خيار الخروج من (موعم) عدداً من الاصوات يقل عن ربع عدد المندوبين، ولم يتخذ المؤتمر قراراً بالخروج من (موعم) لكونه «صنيعة واشنطن» واعتقد انه لا يجوز التشكيك في وطنية بقية المندوبين الذين لم يصوتوا للخروج من (موعم)، وخول مؤتمر الحزب، اللجنة المركزية لتقرير مسألة البقاء في (موعم) والأستمرار فيه أو الخروج منه.
وبعد انتهاء أعمال المؤتمر، تحركت اللجنة المركزية للحزب وفق قرار المؤتمر. وقدمت مذكرة الى (موعم) من أجل تحسين خطابه السياسي وآليته وتفعيل دوره وتنشيط نشاطه بما يخدم القضية العراقية والنضال ضد الدكتاتورية.
كما قررت اللجنة المركزية طرح الموضوعة على الاستفتاء الحزبي لمعرفة رأي القاعدة الحزبية وأشراكها في اتخاذ الموقف.
ومهما يكن قرار اللجنة المركزية حول البقاء في (موعم) أو الخروج منه، أو تعليق عضوية الحزب أو تجميدها فيه، فأن الواقع والهاجس الأساسي ليس ارتباط (موعم) بجهات أجنبية، أو لا وطنية الأطراف المشاركه فيه. فحزبنا الشيوعي العراقي يبقى وطنياً سواء كان في (موعم) أو خارجه. وتاريخ الحزب المفعم بالنضال الوطني الديمقراطي اسمى بكثير من ان ينال منه أي شخص كائناً من يكون. ويملك الحزب ما يكفيه من النضج والخبرة بحيث يتجاوز منح جهة معينة، مناضلة ضد دكتاتورية صدام حسين، صفة الوطنية أو حجبها عنها، فهذا الأمر شأن جماهير شعبنا المناضلة التي بأمكانها تقدير وتشخيص الوطنيين الحقيقيين والمناضلين ضد الدكتاتورية.
وبدلاً من ملاحظة التشابك والتعقيد الموجود في القضية العراقية وتشخيص الأزمة التي تعاني منها المعارضة العراقية، أزمة الأبتعاد عن العمل بين الجماهير، بسبب البطش الدموي والأرهاب الدكتاتوري الشامل، والذي يعاني منه حزبنا ايضاً، وليس العزلة التي يذكرها رفيقنا والتي يعرضها بصورة تهكمية في حديثه عن المشاركة في «رسم مصائر العراق». أقول بدلاً من ذلك يخطئ الرفيق زكي خيري سياسة الحزب التحالفية بحجة انها تضحية بالجانب الوطني والديمقراطي.
ان الأرتباطات التي تقيمها بعض أطراف المعارضة العراقية داخل (موعم) وخارجه بالقوى الأقليمية والدولية ينبغي النظر اليها في ضوء الواقع الذي تعيشه القضية العراقية. وبعيداً عن تبرير هذه الارتباطات أو الدعوة اليها،

فان هذه الارتباطات هي وليدة ظرف تاريخي وعالمي وتبدل في موازين القوى، ويجب علينا ادراك تلك التبدلات والتغيرات في الموازنات التي أدت اليها ونحن نخوض عملية نضال عسيرة من أجل اسقاط الدكتاتورية ونتطلع الى الديمقراطية والتقدم الاجتماعي. (مع عدم الاخلال بالثوابت المبدئية) وذلك من أجل تحقيق البديل الديمقراطي الذي ينشده حزبنا. وهذا الأمر ليس بخساً واستهانة بنضال الجماهير الكادحة العراقية من اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي، بل وقد تكون تلك المحطات تعبيراً عن واقع موضوعي وامكانيات ذاتية، بعيداً عن الرغبوية والارادوية في تفسير الواقع.

وبهذا الصدد أيضاً ينبغي تشخيص أزمة المعارضة ككل ضمن التوازنات والتأثيرات الاقليمية والدولية القائمة. وقد أشار المؤتمر الخامس الى حقيقة مفادها ان تأثير العامل الدولي كاد ان يصل الى تأثير العامل الداخلي. وهذا الأمر لا نرغبه ولا نتمناه، ونسعى الى تغيير موازين القوى لصالح تأثير أكبر للعامل الداخلي. ولكن هذا التوجه يجب ان لا يمنعنا من، ولا يحول دون الاستفادة من العامل الدولي، مع ادراكنا في الوقت نفسه للتناقض والأزدواجية التي يتسم به العامل الدولي، وموقف المتنفذين في الأوساط الدولية، الذين يتعاملون مع القضايا الدولية انطلاقاً من مصالحهم بالدرجة الأولى، وسوف لا يقدمون لنا الديمقراطية على طبق من ذهب. كما لا يمكن تحقيق البديل الديمقراطي الحقيقي المنشود في مؤتمرات تعقد في الشتات. فالمكان الحقيقي للمعارضة العراقية ونضالها هو الوطن والنضال من داخله ومعرفة مزاج الجماهير وآلامها ومعاناتها اليومية. فهناك فرق بين من يطلع على وضع الجماهير ونضالاتها عن قرب، ومن خلال العيش معها، والعمل بين صفوفها، وتحريكها وتوجيهها وقيادتها، وبين من يطلع على القضية العراقية ومعاناة الشعب العراقي من خلال ما تنشره الصحف الاوروبية عن تلك المعاناة وهو بعيد عنها آلاف الكيلومترات.

ولنرجع الى بيت القصيد الذي ذكره الرفيق زكي خيري حول التحالفات ومسالة (موعم). فمهما كان موقف الحزب من (موعم)، وقرار اللجنة المركزية، وحتى اذا كان القرار هو الخروج من (موعم) فان ذلك القرار لا يمنع الحزب من التعامل مع (موعم) كطرف معارض لصدام وطغمته، انطلاقاً من ادراك المؤتمر الوطني الخامس للحزب لأهمية تحشيد كافة الطاقات في النضال ضد الدكتاتورية، وكون هذا النضال يشمل جماهير شعبنا بكافة طبقاته وفئاته الاجتماعية واحزابه السياسية المناوئة لطغمة صدام حسين، وبالأخص التيار الديمقراطي. ومن حق حزبنا اعطاء مطلق الحرية لرفاقه ومنظماته من أجل البحث وايجاد صيغ تنظيمية وتحالفية أفضل من (موعم) والجمع بين كل الصيغ بما يخدم قضية الشعب العراقي والمساهمة في الحوار الوطني

الشامل دون ان نعطي لتحركاتنا صيغة معادية لموعم أو غيره من الأطر والأشكال التحالفية أو التنسيقية الموجودة.
ويبقى أساس سياستنا التحالفية هو الحفاظ على استقلالنا السياسي والفكري والتنظيمي. ومن الجدير بالاشارة انه طيلة وجودنا السابق داخل موعم)، كان للحزب استقلاليته. فعلى سبيل المثال، لنا موقف مغاير لموعم في قضية ترسيم الحدود مع الكويت أو مسألة الحصار الاقتصادي والتعامل مع العامل الدولي.
ومع كل هذا الحديث عن (موعم) وخيمة واشنطن، أتساءل هل ان الجماهير في بغداد ووسط وعموم العراق تخوض مثل هذا النقاش، بل هل ان المناضلين الشيوعيين في العمق منهمكون في مثل هذه السجالات السياسية؟!
ولا ضير في ان أروي هذه الحادثة على سبيل المثال: في عام ١٩٨٤ رجع أحد الرفاق (وهو عضو في اللجنة المركزية حالياً) الى بغداد واتصل ببعض المناضلين الشيوعيين. استفسر أحدهم عن الوضع في المقرات، استفسر عن أحدث المسائل الفكرية المثيرة للجدل. وقد أجاب رفيقنا بأن النقاش يدور حول كون النظام الحاكم دكتاتورية فاشية، أو دكتاتورية ذات ممارسات فاشية، أم فاشية من نمط خاص.
وهنا قال المناضل الشيوعي الذي لم يغادر العمق: ان نقاشكم، كالنقاش الجاري حول كون الملائكة ذكوراً أم اناثاً!
لا أورد هذا المثال من أجل تقليل أهمية النقاشات الفكرية ولكن للتذكير بالأولويات في تفكير المناضلين الذين يواجهون الدكتاتورية كل يوم.

ثانياً: القضية الكردية

كسبت القضية الكردية في العراق بعد انتفاضة آذار ١٩٩١ أوساطاً واسعة من الرأي العام العالمي ومواقف الحكومات والأمم المتحدة، وذلك بسبب افتضاح جرائم صدام حسين والحرب الشوفينية الظالمة ضد الشعب الكردستاني، فضلاً عن مشروعية وعدالة نضال الشعب الكردستاني من أجل تحقيق حقوقه المشروعة.
وما تحقق في كردستان المحررة من الدكتاتورية، بعد انتفاضة آذار، ثمرة نضال الشعب الكردستاني وتضحياته الجسام بالدرجة الأساسية، أكثر مما يكون احتماء بالطيران الأمريكي. فاختزال الوضع القائم في كردستان بطيران الحلفاء وقرار الأمم المتحدة حول الملاذ الآمن تبسيط بل وتسطيح للقضية. فهناك مناطق خارج خط ٣٦ محررة من الدكتاتورية، وهنا مناطق داخل خط ٣٦ تحت سيطرة الدكتاتورية.
ان الحركة التحررية الكردستانية ونضالاتها منذ بداية هذا القرن لم تكن مبنية بالأساس على انتظار الدعم الدولي وحماية الروس أو الامريكان. فكم

من المناضلين الكردستانيين، من مختلف الاتجاهات السياسية، اعتلوا المشانق في ظرف كان العامل الدولي - سواء مواقف الدول الاشتراكية والاتحاد السوفييتي السابق أو موقف الولايات المتحدة الامريكية والغرب عموما لغير صالح قضيتهم ولم يقدموا الدعم والاسناد لتلك القضية، بل على النقيض من ذلك فان القوى المتنفذة عالمياً دعمت بمختلف الصور النظام الدكتاتوري الحاكم في بغداد، لانه كان يتوجه صوب «الاشتراكية» حيناً، ويقوم بدور الشرطي الدولي في المنطقة بعد المد الاسلامي حيناً آخر.
أما اليوم فان موازين القوى والظرف الدولي مناسبان، الى حد ما، لصالح قضية الشعب الكردستاني، حيث تسود مفاهيم حقوق الانسان والديمقراطية في اوساط الرأي العام العالمي. وهناك عزلة شديدة يعاني منها نظام صدام حسين المنبوذ الى حد كبير في المجتمع الدولي. فلماذا تكون مناورة الطلائع السياسية الكردستانية في التعامل مع العامل الدولي غير مشروعة؟!
ان مشروعية المناورة ومشروعية الاستفادة من العامل الدولي لا تعني عدم وجود ثغرات جدية في ممارسات أطراف في الحركة التحررية الكردستانية وارتهان البعض للعامل الدولي فقط وأهمال العامل الداخلي.
وقد اشار حزبنا الشيوعي الكردستاني-العراق، أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة، الى ضرورة التعامل الحذر مع العامل الدولي، وكون العامل الدولي يتسم بالازدواجية في التعامل مع قضايا الشعوب، وان القوى المتنفذة في مجلس الأمن تمارس سياسة الكيل بمكيالين في تعاملها مع قضايا الشعوب. ولكن ادراك هذه الحقيقة يجب ان لا ينفي مشروعية المناورة ووضع تكتيكات من شأنها الاستفادة من العوامل التي تساعد على عزلة صدام حسين.
فلقد آن الاوان للتحلي أكثر بالواقعية السياسية والتعامل المرن مع الاحداث والسعي لتجنب الأرادوية والجملة الثورية في صياغة الشعارات السياسية، والتي تكون غالباً مؤذية، وعلينا الأقتراب أكثر من الجماهير ومعرفة مزاجها واستعدادها النضالي وصياغة تكتيكاتنا ارتباطاً بالواقع وأخذ موازين القوى المحلية والأقليمية والدولية بنظر الاعتبار.
لقد أشار الحزب الشيوعي الكردستاني-العراق في أدبياته وصحافته الى اهمية تفعيل العامل الداخلي. ويقصد الحزب بذلك قدرة الجماهير الشعبية الكردستانية على الدفاع عن تجربتها ضد المخاطر الداخلية والخارجية.
هذا عن «احتماء» الشعب الكردستاني، أما عن «احتماء» الحزب الشيوعي العراقي، كما يطرحه الرفيق زكي خيري فان في الامر اجحافاً واضحاً بحق الحزب وسعيه الجاد لرسم سياسة ورفع شعارات تتلاءم مع الظروف التي نعيشها.
الحزب الشيوعي العراقي كان ولا يزال موجوداً في كردستان وعموم العراق.

وفي كردستان احتمى بالجماهير الكادحة الكردستانية والشعب الكردستاني المناضل. وهذا مثار فخر الحزب واعتزازه، واعتزاز الجماهير أيضاً، لان الحزب الشيوعي كان ولا يزال حزب تلك الجماهير. فهو منها واليها. وكذلك الأمر بالنسبة لعموم العراق حيث كابوس الدكتاتورية الجاثم فوق صدور شعبنا الذي احتمى به المناضلون الشيوعيون من نار الدكتاتورية والارهاب.
الحزب الشيوعي العراقي كان موجوداً في عمق الساحة العراقية قبل ان يكون هناك اطار يسمى ب(موعم). وسيبقى موجوداً سواء بقي هذا الاطار أم لا. فموعم وجد في الواقع العملي عام ١٩٩٢. فبأي الخيم كان يحتمي الحزب الشيوعي العراقي طيلة سنوات نضاله السابقة ضد الدكتاتورية؟
ان الرفيق زكي خيري يعيِّر الحزب بانه «يختبئ في شروال الكردي». وربما نسي ان يذكر الدشداشة العربية. فبمن يريد للحزب ان يحتمي؟ هذا اذا قبلنا تعبيره عن الاختباء بالشروال الكردي بحسن نية!
وحول الوضع في كردستان العراق يشير الرفيق الى بعض الخيارات أما الشعب الكردي: مساومة زعماء كردستان مع بغداد، وهذا الخيار تعرقله الامبريالية ايضاً، فهل من مصلحة الشعب الكردستاني، ضمن هذه الموازين الموجودة في الوقت الحاضر، ان يعلن استقلال كردستان أو ان يجري زعماؤه التفاوض مع السلطة؟ أم ان الوضع الحالي يتطلب صيانة التجربة الديمقراطية وجعل كردستان خندقاً امامياً لنضال المعارضة العراقية والتوجه منها نحو العمق اكثر، وخاصة اذا اعتبرنا ان قضية اسقاط السلطة قضية الشعب العراقي وحده وعدم انتظار قوى خارجية لاداء هذه المهمة بدلاً من الشعب العراقي!
وحول مصير الشعب الكردي، هل حقاً ان الحزب الشيوعي العراقي ترك مصير الشعب الكردي الى الأحزاب القومية الكردية كما يذكر الرفيق زكي خيري في موضوعه؟
قد يكون هذا الاتهام صحيحاً لو اعتبرنا الحزب الشيوعي الكردستاني-العراق جزءاً من الاحزاب القومية الكردية.. هذا الحزب الذي لم يشر اليه الرفيق زكي خيري في موضوعه، ويبدو ان هذا الحزب لم يدخل بعد في مفردات رفيقنا العزيز، ولكن الحزب الشيوعي الكردستاني-العراق ليس من ضمن تلك الاحزاب التي تستأثر بالسلطة وتقتسم المناصب بقوة السلاح، بل هو حزب مناضل ضد تلك الوجهة.
وقد يكون الرفيق زكي خيري معذوراً بسبب عدم توفر المعلومات الكافية لديه حول نضالات الحزب الشيوعي الكردستاني-العراق، وموقفه من الاقتتال الداخلي، وقيامه بتحشيد الجماهير ضد الاقتتال الداخلي، اضافة الى النشاطات السياسية والجماهيرية التي خاضها الحزب، ومساعيه من اجل

تعزيز الروح الأممية والاخوة العربية-الكردية، والمساهمة في معركة اسقاط الدكتاتورية، وتحقيق العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد. وبأمكان الرفيق زكي خيري زيارة كردستان المحررة والاستفسار من الاوساط الجماهيرية، ومن المستقلين غير المؤدلجين ايضاً، عن سمعة هذا الحزب ومواقفه الوطنية والطبقية.

ثالثاً: الحصار الاقتصادي

أما قضية الحصار الاقتصادي، فهل حقاً ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي التي عبر الرفيق الصافي في مداخلته بندوة لندن لرفع الحصار الاقتصادي عن موقفها، عن الوثيقة التي اقرتها اللجنة المركزية لاعطاء بعض الملموسيات ولتفعيل آلية من اجل تطبيق شعار رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب، قد حولت موقف الحزب من أهم مطلب شعبي ووطني راهن الى محض عمل خيري؟!

لا أود الاطالة في الحديث عن هذا الجانب سوى ذكر بعض النقاط، منها: ان الرفيق زكي خيري يتحدث عن رفع الحصار الاقتصادي عن العراق في حين ان قرار المؤتمر وشعاره هو رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب العراقي. فهل ان كلمة الشعب العراقي تحولت الى كلمة العراق بمجرد الصدفة؟! هذا مجرد تساؤل لا غير!

ان قرار المؤتمر الوطني الخامس للحزب حول رفع الحصار واضح جداً: وهو يدعو الى رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب العراقي وتضييق الخناق على الدكتاتورية وحاز القرار على الاغلبية المطلقة في المؤتمر الخامس. ولا يمكن اجراء فصل تعسفي في محتوى القرار، وأقصد الفصل بين رفع الحصار عن الشعب العراقي ومسألة تضييق الخناق على الدكتاتورية.

كما ان الوثيقة الأخيرة للجنة المركزية تشير الى قضايا ملموسة، وهي بمثابة ايجاد آلية من اجل تطبيق قرار المؤتمر. ويتطلب الامر، بالدرجة الاساسية، تعبئة الجماهير العراقية في الداخل، المكتوية بنار الحصار، ضد نظام صدام حسين المسبب الرئيسي لفرض الحصار ولا حاجة لنا للاطالة في هذا الموضوع.

١٩٩٤/١٢/٢٥

* لينين: مرض الطفولة اليساري في الشيوعية، دار الفارابي، ص٥٩

رسالة: عن دور حسين الرحال

الرفيق العزيز حميد الخاقاني

تحية نضالية حارة..

تسلمت رسالتك المؤرخة في ١٩٨٢/١/٢٨، ورسالة أخرى غير مؤرخة وبنفس المآل، وهو السؤال عن دور حسين الرحال ومحمود احمد السيد في الحركة الشيوعية في العراق. فقبل كل شيء اخبرك بوجود كتاب بالانجليزية من تأليف حنا بطاطو الامريكي الجنسية والاستاذ في جامعة بيروت الامريكية يتناول فيه تأريخ الشيوعية في العراق بشيء من التفصيل وعنوان الكتاب كما يلي:

The Old social Classes and The Revolutionary Movement of Iraq/ A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'athists and Free Officers

وقد كرس المؤلف زهاء (١٥) صفحة لدور حسين الرحال ومحمود احمد السيد في تقديم الحركة الشيوعية في العراق.

بيد ان الكتاب غالي الثمن إذ يباع الآن في لندن ب ١٣٥ دولاراً امريكياً. فمن الافضل اقناع جامعتك بشراء نسخة من الكتاب لمكتبتها فهو يستحق الثمن. وإلا فالطلب من زملائك في لندن ليصوروا فوتوغرافياً الصفحات المطلوبة التي تتناول دور الرحال. علماً ان الكتاب يقع في (١٢٨٤) صفحة. والكتاب موضوعي بقدر ما يمكن لمؤلف غير شيوعي يتناول تأريخ الحركة الشيوعية ان يكون موضوعياً، وهو على أي حال غني جداً بالوثائق والاحاديث

الشـخصية مع المعنيين. ان ما ورد في الكتاب بشـأن حسـين الرحال لا يتناقض مع انطباعاتي الباقية عنه بل أضاف اليها وعززها
وجد الرحال في برلين في يناير (كانون الثاني) ١٩١٩ عندما كان طالباً في الاعدادية (gymnasium) حيث شـهد بعينيه عمال برلين ينصبون المتاريس للقتال ضد العسكرية الالمانية، وكان بعض زملائه في المدرسة من بين ابناء اولئك العمال الثائرين، فكان شاهد عيان للثورة البروليتارية الالمانية الاولى. وكان ذلك اول انطباع له أيضاً عن الحركة الشيوعية العالمية.
وعاد حسـين الرحال الى العراق ابان الثورة العراقية التي اندلعت ضد الاستعمار والاحتلال البريطاني في ٣٠ حزيران ١٩٢٠. وتحلق حوله عدد من الشبان المتحمسين ومن ببينهم محمود احمد السيد (١٩٠٣-١٩٣٧) وكان حسين اكبر من محمود بنحو سنة أو سنتين. ومنهم أيضاً عوني بكر صدقي الشـقيق الاكبر للطفي بكر صدقي رئيس تحرير جريدة صوت الاحرار اليسارية. وقد برز حسين كداعية للشيوعية يأسر بكلامه الشباب الثوري.
وكانت أخر محاولة قام بها حسين الرحال لتنظيم منظمة شيوعية هي أنه في سـنة ١٩٢٧ كتب تقريراً عن احوال العراق عهدذاك وارسـله الى الاممية الشيوعية، واستشـارها فيه عما اذا كان من المناسب تنظيم حزب شيوعي مستقل وقد قال بعدئذ في اواخر العشرينات ان الاممية نصحتهم بالانضمام الى الحزب الوطني العراقي برئاسـة الزعيم ابو التمن والعمل في صفوفه ريثما ينضج الوقت لتأليف حزب شيوعي مستقل. وهذا ادعاء جدير بالتحري عنه في ارشيف الكومنترن لمن وجد اليه سبيلا.
ولعل مظاهرة ٨ شباط ١٩٢٨ كانت اول وآخر نشاط ثوري من نوعه ساهم فيه حسـين الرحال. وقد نظمت احتجاجاً على مجيء سـير الفريد موند (لورد ميلتشـت فيما بعد) رئيس (ICI) أي الشـركة الامبراطوريـة الكيماويـة الصناعيـة، الاحتكار البريطاني الكبير السـيء الصيت . وكان من زعماء الصهيونية الدولية وقد استدعاه فيصل الأول لتوظيف رساميل الشركة في الزراعة العراقية. وقد اعتقل الرحال بعد انتهاء المظاهرة.
وبقدر ما كان الرحال داعية agitator موهوباً فقد كان منظماً فاشلاً. وكان في المرحلة الأخيرة من حياته من موظفي الدولة الكبار. ومن الجدير بالتنويه انه في سنة ١٩٣٤ ساهم في تحرير عطارد ثم فينوس ثم العقاب الاسبوعي التي كان يوسف متي مسؤولاً عن تحريرها وكان حسين يساعد في ترجمة اشعار ناظم حكمت الشاعر التركي الشيوعي الشهير. وكانت هذه المجلة تدعو للشيوعية وتتعرض للاغلاق من قبل السلطات لتظهر باسم آخر حتى توقفت في نفس السنة (١٩٣٤) التي اعلن فيها عن تأسس الحزب الشيوعي العراقي آلذي انضم اليه يوسف متي. اما الرحال فلا بقدر ما اعلم.

ان الفضل الأول للرحال هو انه عمل «ضجة» كبيرة كانت بشيراً بانتشار بذور الشيوعية في تربة ارض الرافدين فاستلفت انظار الشبيبة اليها فتلمس الثوريون دربهم الى تنظيم الحزب الشيوعي العراقي فيما بعد وبقي هو على الشاطيء الى حين يشجع «التلامذة» على السباحة. وكانت تلك الضجة (١٩٢٠-١٩٢٧) امر ضروري* فهي ظاهرة طبيعية في كل ولادة، وتكاد تكون قاعدة عامة في تولد الاحزاب الثورية ولادة طبيعية! وكانت ولادة الحزب الشيوعي العراقي ولادة طبيعية ومن هنا حيويته ودأبه وقدرته على النهوض بعد كل كبوة أو كارثة.

ويقول حنا بطاطو في كتابه الآنف:

«وفي أي تقييم لدور الرحال في نشوء الشيوعية في العراق يجب ان يحسب الحساب الضروري للاعتبارات التالية:

١- لم يكن في العشرينات ادب شيوعي بالعربية يستحق الذكر، وكان العراقيون الذين يستطيعون القراءة بأي لغة غربية قليلين للغاية. من هنا يبدو وهلة كيف كان الرحال فريداً في ملاءمته لخير الحركة الشيوعية بإلمامه الفذ باللغات الالمانية (والفرنسية - ز.خ) والانكليزية والتركية والفارسية والعربية.

٢- وقد تعرف على الشيوعية على يد الرحال زكي خيري وهو احد الشيوعيين القياديين في العراق في الحال الحاضر وكان عضواً في اول لجنة مركزية للحزب في ١٩٣٥.

٣- إن عاصم فليح وهو من مؤسسي الحزب ومن محرري «كفاح الشعب» في ١٩٣٥، وكانت اول جريدة مركزية للحزب، ومن خريجي المدرسة الشيوعية الاممية في موسكو، كان عضواً في نادي التضامن الذي كان تحت نفوذ حسين الرحال.»

والخ والخ... (ص٤٠٣)

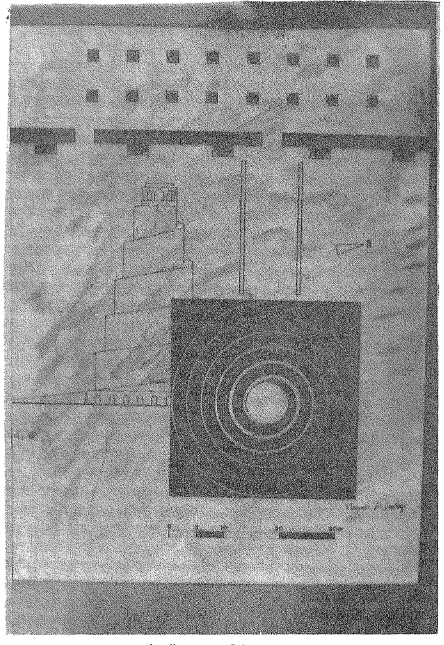
ويقول حسين الرحال نفسه في تقييمه لنفسه «لم اكن سوى هاو، بالاضافة الى انني كنت دائماً أميل الى النظرية، الى الخطوط الرئيسية للشيء... ومنطوياً على ذاتي اكثر مني منفتحاً... وان شئت الحقيقة فاني أميل الى الدعة (ص٤٠٢) ومن الجدير بالذكر ان شقيقته الصغرى امينة الرحال كانت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في اوائل الاربعينات.

ولم يكن محمود احمد السيد في علمي عضواً في الحزب. وفي ١٩٢٧ عندما كان الرحال يحاول تنظيم اول منظمة شيوعية في العراق كان فهد بمعزل عنه في البصرة والناصرية في جنوبي القطر قد تبنى الشيوعية. وقد ألف في سنة ١٩٣٢ أول منظمة شيوعية في الجنوب. وفي ١٩٣٤/١٩٣٥ تمركز التنظيم الشيوعي في بغداد. ولولا قدرة فهد النظرية والتنظيمية وخبرته السياسية وموهبته في قيادة العمل بين الجماهير لما كان الحزب الشيوعي

العراقي على ما هو عليه الآن من قدرة وحيوية خارقة. لقد كانت ميزة فهد الأولى أنه حول الحركة الشيوعية العراقية من فوضى الى نظام ومن هواية الى مهنة. ولذا يعده الشيوعيون في العراق مؤسس حزبهم الحقيقي وباني كيانه وقائده الفذ.

المخلص
زكي خيري

دمشق/أول ايار/١٩٨٢



من اعمال الفنانة ميسون الدملوجي

كارل بوبر بين النقد والتبرير

كامل شياع

ثلاث مسائل نجدها اساسية للدخول الى فلسفة كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤) هي ترسيم العلاقة بين «العلم الحقيقي والعلم الزائف»، نقد مبدأ الاستقراء ونقد النظرية التاريخانية. بالنسبة للمسألة الأولى فقد اتى بوبر بتصور خاص به للتمييز بين العلم واشباهه. فالعلم، عند بوبر، ابعد ما يكون عن المعرفة اليقينية وما يرتبط بها من افتراضات ميتافيزيقية ولاهوتية. فهو يستند على نوع من العقلانية والنقدية التي لا تدعي لنفسها اكثر من تقديم افتراضات وصور اولية عن الحقيقة. ان العلم لا يأخذ إلا بمبدأ الاختبار والتزييف. ومن هذا المنظور فان كل شكل للمعرفة يدعي امتلاك الحقيقة لا يمكن ان يكون علمياً. لهذا اخرج بوبر من دائرة العلم الميتافيزيقيا وعلم التنجيم والماركسية ونظرية التحليل النفسي. لكن بوبر، خلاف الوضعيين، لم يبتغ، من التأكيد على الفواصل بين لايقينية النظرية العلمية ويقينية النظريات اللاعلمية، اقامة سور صيني بينهما يحول بين هذه الاخيرة وبين تحولها الى علم بالمعنى الذي حدده، وربما يكون من المهم في هذا المجال الاشارة الى اختلاف بوبر عن ممثلي مدرسة فيينا الوضعية المنطقية. فهؤلاء جعلوا المعنى المستند على مبدأ التحقق (Verification Principle) أساساً للتمييز بين العبارة العلمية والعبارة الميتافيزيقية. فعبارة مثل «العشب ندي» هي ذات معنى لانها تستند على معطيات يمكن التحقق منها، اما عبارة «العقل مطلق»

فهي غير ذات معنى لانها ميتافيزيقية، أي فارغة، لا جدوى من التحقق منها أو من دحضها على السواء. عكس هذا فان بوبر، المستريب بالوضعية وبمبدأ التحقق، يجد ان معنى العبارة - أي عبارة - لا يتوقف على امكانية التحقق العملي منها بل على امكانية دحضها أو تزييفها. ولهذا السبب فأن وصفه للنظريات المشار اليها اعلاه بأنها غير علمية لا يستتبع كونها عديمة المعنى.
ان اصرار بوبر على التمييز بين العلم واشباهه المزيفة، مع ترك العلاقة مفتوحة بينهما، يفسره اعتقاده بأن الميتافيزيقيا والدين هي أصل العلم. لكن لهذه العلاقة، كما يبدو وجهان متعارضان، فالميتافيزيقيا، من جانب، هي نقيض العلم لانها مرادف للمعرفة اليقينية بالاسباب الأولى، ولكنها من الجانب الآخر، قد أورثت العلم النزوع الى تفسير الظواهر الملموسة بلغة مفاهيم وتعميمات تتجاوزها.
اما بصدد المسالة الثانية، فقد رفض بوبر ، الفكرة الشائعة في العصر الحديث، اي منذ بيكون (F.Bacon) فصاعدا ، والتي اعتبرت الاستقراء مصدر المعرفة العلمية.
مقتفيا خطى هيوم (Hume) حاجج بوبر بان الاستقراء هو ضرب من الخرافه، وذلك لانه لايمكن لأي مقدار من المعطيات الجزئية ان يستوفي البعد التعميمي للقانون العلمي او ان يبرهن عليه بصورة نهائية. فقانون، كقانون السببية مثلا، هو اشمل في دلالته من جميع العلاقات السببية المعروفة. ولأنه كذلك فان مضمونه يغطي الشاهد والغائب معا.
يتجلى وجه الخرافة في مبدأ الاستقراء ايضاً في كون المعرفة العلمية، كما يفهمها بوبر، لا تمضي من الجزء الى الكل ولا من الظواهر الى النظريات. وتعبيراً عن هذا الموقف الشكي من الاستقراء يسلك بوبر طريقاً معاكساً تكون فيه الفرضيات (Hypotheses) أو التخمينات (Conjectures) العتبة الاولى للعلم. أما الملاحظة والتجربة فيصبحان مجرد وسائل لاحقة لاختبار أو دحض هذه الفرضيات. ان اولوية الفرضية، التي تتبادل المعنى مع النظرية من حيث ان كليهما يشير الى تخمين أو حدس جرئ قد يخطئ وقد يصيب، تعني الكف عن وصف المنهج التجريبي بالحيادية.
بعد دحضه لمبدأ الاستقراء يواصل بوبر دحض ترابطه المفترض مع مبدأ التحقق والذي يتم بالشكل الآتي: ما ان تتم ملاحظة تكرار ظاهرة ما (أو مجموعة من الظواهر) حتى يمكن الخروج باستنتاج عام عنها، وللتحقق من علمية هذا الاستنتاج تتم اعادة نفس معطيات الملاحظة وشروط التجربة. عندئذ تتأهل المعرفة العلمية للارتفاع الى مستوى يقيني لا يقارن الا بالايمان الديني. لكن المعرفة العلمية، حسب بوبر، لا تحتاج لان تكون يقينية.. ان

قيمتها تكمن في طابعها الافتراضي المفتوح على التعديل والدحض. وهكذا، فاذا قيست علمية النظرية بمدى انفتاحها على الدحض يصبح التقدم العلمي عملية تغيير مستمرة لنظرية بأخرى تفوقها عمقاً في المحتوى وقابليةً على التفسير، عملية تشق طريقها كما لو انها مقادة بآلية تشبه آلية الاصطفاء الطبيعي التي اعتمدها داروين لتفسير تطور العالم الحيواني. ويعترف بوبر في سيرته الذاتية الفكرية والمعنونة «بحث لا ينتهي» بتأثره في طريقته هذه، طريقة الاثبات عبر النفي، بأنشتاين الذي كان معنياً بتجارب تبطل نظريته لا ان تثبتها.

وأخيراً، فبصدد المسألة الثالثة، فأن بوبر عرَّف التاريخانية بانها القول بوجود قوانين عامة للتطور التاريخي، شبيهة بتلك التي تحكم الطبيعة، تتيح معرفتها التنبؤ بما ينبغي ان يكون عليه مستقبلاً. واعتبرها واحدة من الادعاءات الطموحة للعلوم الاجتماعية ولفلسفة التاريخ التي سادت القرن التاسع عشر.

ميَّز بوبر في كتابه «تخمينات ودحوض» بين نوعين من التنبؤ، الاول، ومجاله العلوم الطبيعية، سمته الاساسية هي في شرطيته (أي: اذا [أ] إذن [ب]) وفي محدودية صدقه. اما النوع الثاني من التنبؤ فمجاله التاريخ وهو اقرب الى التكهن وادراك اسرار الغيب ولذلك يطلق عليه بوبر اسم رؤية نبوية (Prophecy) وعلى هذا النوع من الرؤية، التي تمتاز بلاشرطيتها وبلامحدودية صدقها، تتغذى التاريخانية. فهي تقرر انه مهما كانت الظاهرة الانسانية وكيفما تجلت فانها تظل محكومة بنتيجة لا تقبل التغيير.

في محاججته ضد هذا النوع من التنبؤ ذهب بوبر الى انه لا يمكن المرور من تنبؤ مشروط الى آخر غير مشروط، والى ان التنبؤ البعيد المدى، القائم على معطيات علمية شرطية، ممكن فقط في حالة وجود انظمة معزولة وساكنة أو منتظمة التواتر. وليس المجتمع من بين هذه الانظمة. لهذا لا اساس لتقديم تنبؤات لا شرطية في التاريخ لانه، كسياق لعدد لانهائي من الارادات والتدخلات الفردية والعرضية، لا يعرف سوى تقلّب الاحوال ونبذ التكرار. فالتاريخ وان كان حركة صاعدة فأنه لا يتبع قانوناً يحدد له اتجاهه ومراحله وغايته النهائية.

اهم ما يترتب على نقد بوبر للتاريخانية هو اعادة التفكير في دور وقيمة العلوم الاجتماعية من الناحيتين النظرية والعملية. فاذا لم يعد دورها اكتشاف القوانين وتتابع الحتميات فانه سيقف عند «تتبع العواقب الاجتماعية غير المقصودة للافعال الانسانية المقصودة» («تخمينات ودحوض» ص٣٤٢). فعن تدخّل الفعل الانساني، فردياً كان أم جماعياً في السياسة او في الاقتصاد أو في العلم، تصدر نتائج غير متوقعة وغير مسيطر عليها غالباً على صعيد

المجتمع ككل. ولتوضيح هذا يورد بوبر مثالاً تبسيطياً حول علاقة العرض بالطلب في اقتصاد السوق. فالاقبال على شراء بضاعة ما (بيت مثلاً) يؤدي الى رفع سعرها الامر الذي يخالف غاية فعل الشراء الذي يهمه انخفاض الاسعار، وحصول مثل هذه النتائج لا يعني، كما يمكن الاستنتاج لأول وهلة، ان لا وجود هناك الا لافعال الافراد الاحرار. ذلك ان هذه تعبّر في الواقع، كما يشدد بوبر مستشهداً بماركس، عن بنية للعلاقات الاجتماعية. لكن بوبر لا يجد ضالة العلم في دراسة المقاصد الفردية ولا في تحليل البنى التحتية بل في التسليم بالطابع العشوائي للعلاقات الاجتماعية ومقاربتها من زاوية تاريخية. فعلى عكس المقاربة التاريخانية التي تفترض ان العلاقات هي جزء من تمرحل حتمي لاشكال الوجود الاجتماعي، تتناولها النسبية التاريخية لبوبر من زاوية وجودها المحدد وما يترتب عليه من نتائج ملموسة. خلاصة ما يريد اظهاره بوبر هو ان عدم انطواء الطبيعة والمجتمع على جوهر ثابت أو منطق حتمي يفرض طابعاً احتمالياً وافتراضياً لمعرفتهما. وعلى ادراك نسبية هذه المعرفة تتوقف علمية العقل. ان بوبر يرفض النزعة الجوهرية في التفكير.

بوبر والماركسية

يزودنا عرضنا اعلاه للمسائل الثلاث بمفاتيح مهمة لفهم النقد الشامل الذي خصّ به بوبر ركائز الرؤية الفلسفية الماركسية. منذ مقاله «بؤس التاريخانية» (الذي تعود كتابته الى منتصف الثلاثينات رغم انه لم ينشر ككتاب الا بعد عقدين من الزمان) مروراً بـ«المجتمع المفتوح واعداؤه» (١٩٤٥) تداخل في موقف بوبر من الماركسية السجال العقلي مع الحرب الآيديولوجية الساخنة. ووفق ما يشير اليه في كتابه «تخمينات ودحوض» (١٩٦٣) فان نقده للماركسية قد سار على مستويين، استهدف اولهما اسقاط إدعاء الماركسية بأنها نظرية علمية. وهذا ما تناوله من خلال مماهاته لها مع التاريخانية التي اعتبرها منهجاً عقيماً للتفكير. أما على المستوى الثاني فقد استهدف تخطئة البعد السياسي للماركسية القائل بأنه فقط بتغيير الواقع الاجتماعي من اساسه يمكن توقّع قيام ظروف اجتماعية انسانية. ان بوبر لا يخفي تعاطفه مع التطلّع الانساني للماركسية وفي تحسسها لحدّة المشاكل الاجتماعية القائمة وفي جعلها الفلسفة وسيلة لتغيير العالم. لكنه يعارض بشدّة، لأسباب يعتبرها عقلية واخلاقية، دعوتها للتغيير الجذري. فبأنعدام الاساس العقلي للاعتقاد بوجود حل جاهز وشامل للمشاكل الاجتماعية لا يبقى، حسب بوبر، للتغيير الجذري ما يبرره سوى الارادوية والعنف. كيف يمكن التوفّر على حل شامل يبرر التغيير الجذري ونحن لا نمتلك فكرة نهائية عن العدالة والخير والحقيقة؟ العلّة هنا ليست في السياسيين الثوريين بل في الفلاسفة، وأولهم

افلاطون، الذين ترجموا «معرفتهم» للحقيقة الى نظرة جمالية للواقع. وعندما طُبِّقت هذه النظرة عملياً لم تؤد الى واقع جمالي أو يوتوبيا بل الى مجتمع مغلق من سماته الجماعية والاخضاع والجمود. والعنف في هذه الحالة اصبح لازماً ليس فقط لاحداث النقلة الثورية وانما ايضاً لحماية حقل التطبيق (المجتمع) من احتمالات الزوغان عن الفكرة الاصلية. وتتدخل لهذا الغرض الدعاية مع «قمع النقد وتصفية المعارضين» («تخمينات ودحوض» ص٣٦٠). ان الطبيعة القطعية (الدوغمائية) للتفكير الجمالي اليوتوبي تجعل، بنظر بوبر، العلاج الذي تقترحه أشد وطأة من الشرور الاجتماعية التي يزمع ازالتها. لهذا السبب يخلص بوبر الى انه من الناحية العملية فان نمط التفكير هذا يتمخض عن ، اولاً: نظام دكتاتوري لا تنسجم فيه غالباً افعال وسياسات النخبة الحاكمة مع الغايات والمقاصد المعلنة. ثانياً: بينما يظل هذا التفكير مشدوداً الى غايته المثالية فانه يتجاهل احتمالات تغيرها عند التطبيق الامر الذي يمكنه ان يحيل آمال وتضحيات جيل سابق الى ضرب من العبث في نظر الاجيال اللاحقة. («المجتمع المفتوح واعداؤه» ص ١٥٩-١٦٠).

تعود قصة بوبر مع الماركسية الى عام ١٩١٩ ولم يتجاوز حينها السابعة عشر من عمره حيث نشط في الحركة اليسارية واصبح «شيوعياً لشهرين أو ثلاثة» كما يورد في سيرته الذاتية الفكرية التي سبقت الاشارة اليها. حدث ذلك تحت تأثير مشاهد الفقر والتركات السياسية والاقتصادية للحرب العالمية الأولى على وطنه الأول، النمسا. لكنه سرعان ما هجر الماركسية واليسار ليوطد نفسه كأحد اهم دعائم الفكر الليبرالي في هذا القرن. رغم انه، حسب نفس المصدر، بقي معجباً لسنوات بنمط الحياة البديل الذي مارسته الحركة العمالية في النمسا، وظنّ ان بأمكانه الحفاظ على ولائه للاشتراكية لو توفرت صيغة للجمع بينها وبين الحركات الفردية، الا انه توصل بعد سنوات قليلة الى ان هذا الرهان هو ضرب من المحال، اذ لا يمكن التوفيق بين المساواة والحرية. وبعبارة تلخص اغتراب الانسان في الانظمة الشمولية يشير الى انه اذا ما تمت التضحية بالحرية فانه يغدو من الصعب ضمان المساواة بين افراد غير احرار.

يرجع بوبر اسباب هجره المبكر للماركسية الى رعبه من العنف الذي كلّل مظاهرة نظمتها الشبيبة الاشتراكية مع الشيوعيين في صيف عام ١٩١٩ وسقط فيها العديد من القتلى برصاص الشرطة. قاده مشهد العنف هذا الى تجربة في النقد الذاتي لتقبله «نظرية معقدة كالماركسية دون حس نقدي» «بحث لا ينتهي» ص٣٤)، وكذلك لصمته عن أخطاء في النظرية والممارسة وفاءاً لرفاق الدرب واخلاصاً للقضية وانسياقاً وراء آلية نفسية خاصة تميز المنتمي سياسياً. ويحلل بوبر هذه الآلية الاخيرة قائلاً بأنه ما دامت القضية

تتطلب احياناً اسكات الضمير الفكري والاخلاقي عندما يتم خرق مسألة تعد ثانوية، فـأن الادراك اللاحق لهذه التضحية بـالضمير لا يقود المنتمي الى الاستسلام بل الى تعزيز قناعته بصلاح القضية، وعلى هذا التواطؤ الذاتي يتأسس الجمود العقائدي. وتجنباً لهذه التجربة، التي يجعلنا بوبر نتصورها كما لو انها مأساة ماكبثية!، ينصحنا بـالمضي بالنقد الذاتي حتى نهايته، أي حتى لحظة التجرد الاقصى بما يدعو لنزع جلد الآيديولوجيا واستبداله بجلد الحقيقة. والواقـع فـان لسياسـة الحقيقة هـذه، سياسـة نـزع الجلد وتحرير الـروح!، انصاراً كُثراً في هـذا الزمن الخـائب. لكنهـا، في خضـم الاجمـاع المصطنع والسطحي حولها وفي ظل مطالباتها الآيديولوجية المتمادية كما لو انها محمولة بروح محاكم التفتيش، تبدو لا اكثر من مؤشرات لتغيرات ميزان القوى. فتصدر الافكـار السـائدة بأسـم «الحقيقـة» اوامرهـا بنزع جلود خصومها. وفي حالة بوبر، المحب للحقيقة والليبرالي بالوراثة وبالقناعة، فانه لا يستطيع ان يتخيل فكرة الانتماء عند من يخالفونه الا من خلال التواطؤ الذاتي والجمود. في حين اذا كانت الحقيقة نسبية (تاريخية)، كما لا يكف بوبر عن تذكيرنا، فلا شيء عندئذ يبرر النظر الى احدى صورها كما لو انها اكثر حقيقية من سواها. بـالعكس فانها ستبرر في هذه الحالة قبوله لزملائه في الجهل بها. لكن بوبر متحيز، فهو يوحي بأن نقد الليبرالية من الداخل ممكن بل ومستحب اما نقد الماركسية من الداخل فغير ممكن: انها يجب ان تفني نفسـها او ان تفنى باسـم العلم.. وهو يوحي لنـا ايضـاً بـأن موقف الرأسمالي مبرر موضوعياً لارتباطه ببنية علاقات مادية وليس بنوايا سيئة، بينما موقف نقيضه، العامل، غير مبرر لانه يصدر عن ارادة ضالّة، ثأرية ولا انسانية. كيف يمكننا بعد هذا ان نتبنى فكرته بأن نقد الماركسية ليس كنظام شمولي، بل كمجرد فكرة لمجتمع بديل عن الرأسمالية هو من مستلزمات رؤية الحقيقة وإعلاء قيم العقل والكرامة الانسانية؟ ان افكار بوبر تقترح وجود مسلك واحد للحقيقة رغم انها تحاول التخفيف من حدته المتخيلة من خلال الطريقة التجريبية في المعرفة والمسماة بالمحاولة والخطأ (Trial and Error). ويُحيل هذا الادعاء كل اختلاف حول الحقيقة، والذي هو اختلاف حول الاولويات والمحتوى، الى اختلاف حول امتياز مسلك بلوغها. فكل من عارض هذا المسلك الملكي، الذي هو الى جانب مثاليته وسلميته المزعومة مصدر فعلي للهيمنة والاستغلال والايهام، يعد متنكراً للحقيقة.

هل هناك حقاً ما يسند هذا الفصل القاطع بين الحقيقة والوهم، والنظرية والمصلحة، في المعرفة الاجتماعية؟ اذا كان الجواب بالايجاب، وهو كذلك عند بوبر، فانه – أي بوبر – سوف لن يختلف كثيراً في دوغمائيته عن صاحب «نهاية التاريخ» فوكوياما الاختلاف مع ان الاول ترجم انحيازه المسبق باسم

بداية حتمية للتفكير، اما الثاني فترجمه باسم نهاية حتمية للتاريخ. ولكننا في الحالتين نجد ان هذه الدوغمائية لا تؤكد نفسها إلا بالتعارض مع الماركسية بشكل خاص، الامر الذي يتضمن ان حقيقتها المدعاة تاريخية في جوهرها، وان نفس آلية التفكير التي جعلت الماركسية حقيقة مطلقة لبعض معتنقيها تمارس فعلها في اذهان منافحي الليبرالية. ولو استطردنا قليلاً لامكننا القول بأن الاشارة الى تاريخية الحقيقة لا يعني الاستهانة بها باسم حقيقة ميتافيزيقية خالدة ولا التفافاً على اخفاق الماركسية سياسياً، وانما الى التذكير بمحدوديتها وزعزعة اطلاقية النبرات المبشرة بها. من هذا المنطلق نستطيع اولاً ان نعتبر الافكار السياسية التي يدافع عنها بوبر لا تمثل امتداداً للمعرفة العلمية حسب تعريفه لها. بل ان بوبر في دفاعه العنيد عنها ينسى ان افكاره هذه لا يمكن ان تكون من حيث المبدأ غير قابلة للدحض، وان، وهذا هو الاهم، مبدأ الدحض لا يعمل في السياسة الا من خلال التصورات الآيديولوجية وواقع الهيمنة. فالافكار السياسية لا تجد فقط دحوضها في التاريخ وانما ايضاً مصادر انبعاثها واعادة احيائها. بل انه بالنسبة لها مجال استمرارية وتأويل اكثر منه مجال انقطاعات ودحض.

ثانياً، اذا كان من غير المعقول ان تكون الحقيقة المجردة وحدها وراء دخول الليبرالية من ثقب الابرة! فانه من الغرور الآيديولوجي الادعاء بانها – أي الليبرالية – مرادف للتحضر فيما الآيديولوجيات الأخرى مرادف للبربرية. وبقدر ما يتعلق الامر بالماركسية فقد حدث فعلاً ان اغلب تطبيقاتها الثورية تمت في بلدان ذات تراث استبدادي. فاستحقت النقد – ولكن ليس النقد الليبرالي وحده – لتجاوزها على بعض قيم الحداثة والتحضر. رغم هذا فانه من الخطأ الظن ان هذه القيم هي هبة الرأسمالية الى البشرية، إلا اذا افترضنا ان هذه الاخيرة كانت بربرية في كل مراحلها السابقة. فالليبرالية لم تتوصل الى هذه القيم لانها حقيقية بل لانها عملية وذلك بمقدار ارتباطها بتوفير شروط نجاة البرجوازية تاريخياً. والبشرية، من جانب آخر، لم تعدم تقديم امثلة تاريخية من التحضر والتسامح وان لم تأخذ عندها طابع فكرة شاملة للانسانية كما حصل مثلاً مع مسألة الحريات الفردية بعد الثورتين الفرنسية والامريكية.

ومن الخطأ ايضاً إنكار ان للماركسية وجهاً انسانياً متحضراً بدليل سياسات الاحزاب الاشتراكية والشيوعية في الغرب وفي اماكن اخرى من العالم. هل يجوز مثلاً وصف نضال الحزب الشيوعي في جنوب افريقيا ضد التمييز العنصري باللاتحضر؟ وماذا عن حكومة الوحدة الشعبية في شيلي والتي اسقطها بينوشيت بقوة السلاح؟ من هذين المثالين يتضح ان نقد بوبر للماركسية، التي اعتبرها نظرية جوهرية، هو ايضاً جوهري أو اصولي، اي

انه نقد لا يفهمها الا كماهية ثابتة. ولهذا فاذا تطلّب البحث عن الحقيقة. خروج المرء من جلده وحاملي الافكار من افكارهم فأنـه عندئذ يصبح على الجميع. لكن الحقيقـة لا تتجلّى الا من خلال انتاج واعادة انتاج مواقع الاختلاف والتناقض. ويساعدنا هذا على اقرار ان الفعل الانساني عامة، ناهيك عن الممارسة السياسية والآيديولوجيا التي تنطق باسمها، غير مستند على اساس عقلي بحت. هذا بالطبع لا يعني دفاعاً عن اللاعقلانية بل اشارة الى الدور المتغاير الذي تلعبه العقلانية ارتباطاً بالظروف الواقعية وبالسياقات التاريخية، من جهة، والى تبعية الفعل الانساني الى معايير اخلاقية هي اقرب الى الاعتقاد منها الى التفكير العقلي المجرد، من جهة اخرى.

وهذا ربما يُفسر لنا امرين على الأقل، اولهما اختلاف العقلاء فيما بينهم على خلفية الادعاء بشمولية العقل، ثانيهما اهمية الارتباط النفسي/العاطفي في تكوين هوية المنتمي سياسياً. وبصدد هذه الاخيرة، وارتباطاً بما اوردنا اعلاه عن بوبر، نستطيع القول بأنـه رغم ان أول ما يبرر الانتماء السياسي الآيديولوجي في اشكاله الاكثر طهرانيةً هو غاية اخلاقية كبيرة، الا ان المغزى الحقيقي لـه يكمن في التجربة الانسانية التي تنبثق عنه وتتراكم إثره. وهذه التجربة، وان قبلت نقدها من داخلها، لا تقبل تخطئتها ابتداءاً من معايير اكاديمية كما فعل بوبر. ان الانغمار يسبق التجرد. في إجابة لـه عن سبب بقائه شيوعياً. ذكر المؤرخ البريطاني الكبير أريك هوبسباوم ان جزءاً مهماً من هذا يعود الى وفائـه لرفاقـه الذين ضحوا بحياتهم في سبيل العدالة والمساواة. لكن بوبر لا يستطيع ان يرى هذا ولا ان يلزم نفسه به.

* * *

ان نقد بوبر للادعاء الآيديولوجي بامتلاك الحقيقة ولنزعات التغيير الكلي المترتبة عليه، يبدو صحيحاً إقتراناً بسقوط الانظمة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية. ولكن صحتـه مشروطة تاريخياً ولا يمكنها ان تشكل حجةً نهائية لصالح فكرة الاصلاح الجزئي (أو التدريجي) التي يدافع عنها بوبر. فهو يعتقد ان افضلية هذا النوع من الهندسة الاجتماعية تكمن في ان تبنيه لمنهج المحاولة والخطأ، الذي يتيح الاكتشاف والتصحيح السريع للاخطاء، سيسمح لـه بتفادي جعل المجتمع ككلْ مسرحاً تطبيقياً لنظرية اجتماعية لا يمكنها في جميع الاحوال ان تكون صحيحة بالكامل. فما ينبغي إصلاحه حقاً، عند بوبر، هو ليس المجتمع بل المشاكل الاكثر حدة فيه وهو ما يتم اهتداءاً بمنطق نسبي وظاهري اسماه بوبر «منطق موضعي».

ان هذا المنطق المتغير والمتعدد الوظائف، حيث تقترن السياسة بالنجاح وليس بالتعبير عن حقيقة موضوعية، قد ساعد على تخفيف مساوئ المجتمع الراسمالي الغربي، بل وهيأ لـه منذ النصف الثاني من هذا القرن مستوى لا

يضاهي من الرخاء حسب اشارة بوبر. تعقيبان يمكن ان يطرحا هنا بصدد طريقة الاصلاح التدريجي هذه: اولاً؛ ان نجاحها على المدى القريب في معالجة مشاكل منفردة (على مستوى قطاع أو مؤسسة) وهو ما اضفى على النظام الرأسمالي درجة مشهوداً لها من المرونة والديناميكية، لا يضمن نجاحاً مماثلاً على المدى البعيد. بالعكس فان ما نراه هو ان هذا النجاح الجزئي قد راكم مشاكل كلية على اصعدة المجتمع والبيئة – مشاكل من نوع تزايد الاستقطاب المحلي والعالمي بين الاغنياء والفقراء والاضرار اللاحقة بالبيئة.

ثانياً: اذا كانت الغاية الاساسية لهذه الطريقة هي التخفيف، او ازالة ما يمكن ازالته، من المساوئ الاجتماعية فانها، حسب ما يؤكد بوبر، لا تعنى بمسألة السعادة. فهذه هي شأن شخصي بحت لا يرتبط بوجود غاية اخلاقية توحد المجتمع. وخلاف هذا، فعند اقرارها كغاية للمجتمع وتوكيل الدولة برعايتها لا تكون بأيدينا غير وصفة للاستبداد والعنف. كل ما تفترضه السعادة بالمقابل هو تمكن افراد احرار وعقلاء من تحقيق مشاريعهم الخاصة واطمئنانهم الى ديمومتها مستقبلا*. بعبارة أخرى انها تفترض المبادرة الحرة للفرد مع توفر شروط مستقرة ومرنة لمارستها، وهذا يتضمن عدم اعتبارها هدفاً موضوعياً وتحييد دور الدولة ازاءها. ومن هذه الزاوية نستطيع ان نفهم مثلاً عبارة رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر القائلة بأنه «لا يوجد هناك شيء ـ اسمه المجتمع». فالقول بعدم وجود المجتمع يعني رفض وجود غايات جماعية تُلزم الدولة بحمايتها، ويعني ايضاً ان لا وجود حقيقياً الا لافراد متساوين نظرياً (قانونياً) ومتباينين عملياً في امتلاك الثروة والفرص وسبل السعادة. ان ما تفعله الآيديولوجيا المهيمنة عند رفضها للمجتمع كفكرة مجردة هو جعل التباين الفعلي تابعاً للمساواة الشكلية.

بالطبع لا يجوز تفسير افتراض عدم تطابق مصلحة الدولة ومصلحة الافراد، وهو افتراض صحيح في أي لحظة معطاة بل واساس لضمان علاقة منفتحة بينهما، بأنه يستتبع اقصى تقليص ممكن لدور الدولة كحامل لقيم تاريخية. ذلك انه اذا تمّ هذا فستوضع شروط السعادة على الاقل (بمقدار كونها لا تخصّ افراداً مجردين في وضعيات مجردة) تحت رحمة آليات السوق التي تعظّم رخاء قلة قليلة وتفاقم افقار (بالمعنى النسبي) واغتراب الاغلبية الغالبة

*ان التاكيد على البعد الفردي للسعادة مبدأ راسخ في الفكر الليبرالي. مع هذا فليس كل فعل فردي هو بالضرورة، بالنسبة له، نازع نحو السعادة. وهذا يصح مثلاً على الفعل ذي المقاصد الغيرية حيث يمكن لصاحبه ان يكون بطلاً أو قديساً. لكنه لا يمارس السعادة بالمعنى الدقيق والمباشر للكلمة. كذلك ينبغي التاكيد على ان ما سنتعرض له هنا ارتباطاً بمسألة السعادة هو الفعل النازع الى النجاح المادي وليس أي فعل مرتبط بالعمل بشكل عام أو بالمعرفة أو بالعائلة.

كما هو حاصل في بريطانيا مثلاً. لا ترادف السعادة عند هؤلاء – أي الاغلبية – النجاح الفردي بل استسلاماً (يعززه فيهم الاعلام والاستهلاك، من جهة، والفقر والحروب في الجانب الآخر من العالم من جهة أخرى) لشعور جماعي بالافضلية بالمقارنة مع الآخر.

يضاف الى هذا ان رفض تقليص المجتمع الى كليّة مجردة، وبالتالي رفض اعتبار الدولة حاملاً مطلقاً للروح المزعومة لهذه الكلية، لا يبرر بالمقابل، اعتبار المجتمع، مثلما يذهب بوبر وسواه من المفكرين الليبراليين، مجرد حاصل مجموع ارادات افراده الاحرار. حقاً ان السعادة ليست غاية واحدة ومجردة يمكن ان تحتكرها الدولة وتفرضها قسراً على رعاياها، لكنها تظل مع ذلك اكثر من مجرد رسم اهداف خاصة وتحقيقها. وإذا كانت السعادة تجربة ذاتية، وهي كذلك حقاً، فليس يفترض تقييمها بمعيار براغماتي، لانها في حالات عديدة لاتستجيب الا لمعايير اخلاقية ومثالية. لهذا يصعب التشكيك المسبق في سعادة من ينغمر بوعي وبمسؤولية في النضال من اجل قضية اجتماعية أو انسانية عامة. وفي عبارة ماركس «السعادة في النضال» نقرأ ترابطاً بين الاهداف الخاصة وبين محتواها. ان وعي الفرد لسعادته يأخذ طابع التفاعل مع فكرة عامة وربما اعادة تشكيلها، انه مؤشر للاختلاف في الوحدة.

مثلما لاحظنا فان بوبر لا يكف عن اقران التفكير اليوتوبي بالعنف. فمقارنة بالتفكير العقلي الواقعي الذي يضع كمهمة اولى له التقليل من البؤس القائم في الحاضر، فان التفكير اليوتوبي، كما يفهمه بوبر، يقود الى تجاهل الحاضر من اجل فكرة مثالية عن المستقبل. وكما يقول بوبر في مقاله «اليوتوبيا والعنف» فانه باسم هذا المستقبل المستحيل البلوغ تتم التضحية بجيل بعد آخر. يمكن ان تكون للتفكير اليوتوبي جاذبية كبيرة لكنه لا يستطيع ان يرسي نفسه على اساس علمي لان التفكير بالغايات والمثل العليا ينتمي الى مجال الاعتقاد. بل ان المفاضلة بين غاية وأخرى تشبه المفاضلة بين دوغما وأخرى: لا يسود هنا الا منطق الاستبعاد والنفي كنقيض للمنطق العقلاني النقدي.

ان التفكير اليوتوبي الذي يدّعي معرفة الحقيقة النهائية للاجتماع الانساني لا يثمر الا عن نوع من السياسة الميكافيللية حيث تبرر الغاية الوسيلة. وتوخياً للدقة فأن بوبر لا يعارض اعتماد غاية سياسية محددة واشتقاق الوسائل اللازمة لتحقيقها، لكنه يتمسّك في ان هذه الغاية ينبغي ان لا تبلغ حد الادعاء بتغيير بنية المجتمع ككل. فهذه غاية غير واقعية لا ينتج الانغلاق فيها الا العنف. استناداً على ما سبق يمكن صياغة اعتراض بوبر على الماركسية، وعلى كل تفكير جذري بالمجتمع، بأنه موجّه ضد العنف الناجم عن تعذر

الجمع بين فكرة بديلة شاملة وبين سبل تحقيقها، بين اتخاذ استراتيجية بعيدة المدى وبين التكتيكات السياسية لبلوغها. وهذا الاعتراض يملك من الادلة الملوسة ما يجعله مقبولاً ومن المنطق ما يسمح بتجنب الانجرار الى افكار رومانتيكية عن الثورة.

ولكن اذا كان العنف ملازماً لليوتوبيا، كمشروع للتغيير الجذري للمجتمع، فانه ايضاً ملازم لنقيضها. فليس باسم الثورة فقط وانما ايضاً بأسم المحافظة والعقل والتحضر مورس العنف في التاريخ الحديث والمعاصر. وارتباطاً باعتقادنا بوجود مسافة بين وظيفة العقل المتصورة ووظيفتة الفعلية وبضرورة تحليل هذه الأخيرة نختتم مقالنا هذا.

دون ان نكون نيتشويين ونعتبر العقل حاملاً لارادة القوة، يمكننا الاكتفاء بالاشارة الى ان فكرة الاصلاح الجزئي، التي هي عقلية كما ينبغي بالنسبة لبوبر، تنطوي على قدر غير قليل من العنف. حقاً أن هذا العنف لم يبلغ درجة التصفيات الجسدية الا انه كان كافياً، في حالة واحدة على الاقل جسدها حكم تاتشر في بريطانيا خلال الثمانينات، لتمزيق النسيج الاجتماعي عبر تفكيك قطاعات الخدمات الاساسية وضرب الحركة النقابية وتحجيمها وتحويل نسبة غير قليلة من الايدي العاملة الى مشردين وغير ذلك. مسألتان يجدر تاملهما هنا وهما: تلازم «التغيير التدريجي» مع احتكار الدولة للعنف، وتعبير هذا التغيير عن مصلحة الطبقة السائدة وليس عن العقل أو الاجماع.

من هنا يمكن ان نفهم اعتراض هربرت ماركوزه على بوبر، اذ اخذ عليه عدم تقديمه لمفهوم شامل عن العنف الذي ينتج عن عوامل متباينة ويكتسب مضامين متنوعة ارتباطاً بتباين وتنوع السياقات التاريخية. ان صعوبة وجود مثل هذا المفهوم الشامل، من جهة، وتجاهل ملموسيته، من جهة أخرى، سيقود الى تحليل مجرد «ضئيل القيمة في تفسيره (العنف) ومجابهته» ماركوزه «من لوثر الى بوبر» ص١٩٦). ويأخذ ماركوزه على بوبر ايضاً، بانسجامه هذه المرة مع افكار «مدرسة فرانكفورت»، تطابق مفهومه للعقل مع مثال العقلانية الاداتية. فالعقل عند بوبر ليس نقدياً بما فيه الكفاية لانه بدل تعرية نزعة، الهيمنة على الطبيعة والمجتمع يعمد الى اسباغ الشرعية عليها.

ان استذكار بوبر، ناقد الماركسية ومنقودها، لا بد ان يقترن بأمرين: أولهما الدرس الذي قدمه في رفض الفكرة التبسيطية عن التغيير الجذري. وقد لا نتفق معه في مقاربته للتغيير ولكن يصعب نكران الاضرار المترتبة على اتخاذه وسيلة للايغال في العنف. كما هو معروف فأن افكار بوبر عن الماركسية لم تات من الكتب فقط وانما ايضاً من الملاحظة النقدية لتطبيقاتها السياسية التي امتازت، خلال العقود الاولى من هذا القرن، بالدوغمائية والجمود.

ثانيهما هو التحدي الذي تطرحه النظرة اللاجوهرية للتاريخ عند بوبر على حركة اليسار التي طالما اهتدت بفكرة الحتمية لتبرير النضال.
إذن السؤال الذي نواجهه اليوم بعد الانهيار الكبير هو: كيف يمكن للنضال ان يكون بناءاً دون الادعاء بالصدور عن فكرة يقينية؟



تخطيط للفنانة عفيفة لعيبي

نساء في الجحيم

زهير الجزائري

بعد أشهر من خروجها من السجن الكبير السودان ومن السجن الأصغر في أم درمان لم تشف هذه السيدة الجامعية من وطأة الخوف والكابوس الذي تلبسها. بنفس متقطع ولكن بوتيرة متصلة روت لي شهادتها عن تجربة عاشتها سجناً وخوفاً وهروباً. وقد تجاهلت عن عمد وضعها الخاص كسياسية وفضلت ان تتكلم عن النساء العاديات اللواتي يتجنبن السياسة باعتبارها مصدر الشرور والمخاطر، ومع ذلك لم يسلمن من الملاحقة بتهمة وحيدة، كونهن نساء فقط.

أول سؤال يتبادر الى البال بعد قراءة هذه الشهادة هو: لماذا تصر الجبهة الاسلامية على التحول الى جهاز قهر بوليسي، بينما طريقها كعقيدة وكتنظيم ديني مفتوح مباشرة الى الناس المتدينين بفطرتهم وبدون قسر فوقي؟ والحقيقة ان الجبهة هنا لا تتصرف كتنظيم ديني وسط شعب متدين، انما تقاد بالية وله متاصل بالحكم والانقلابات، هو وله العسكر أكثر مما هو ترفع الدين عند الأتقياء الذين يعتبرون الحكم ضعفاً يقرب الخطيئة. وفي مجتمع كاره للعنف والقسر تجد نفسه معزولة حتى عن احزاب دينية قد تشاركها الفكرة لا الممارسة، وتتصرف هنا كأي حكم مستبد وقاهر يبحث عن مشروعية عقائدية للقمع ويستخدم الدين وسيلة لتأليه الحكم لذاته. انها حكم دنيوي بحت، شيطاني يقوم على انزال جهنم الى الأرض لترويع الناس بذنوب لم يرتكبوها ولضمان اذاعاتهم لحكم لا يقبلونه.

وترينا هذه الشهادة كيف ان الكبت الذي يتقنع بالدين يجعل وجود المرأة

عقرونا على الدوام بالحطينة، وهو سبب وموضوع عقاب اجتماعي. فالرجل المقهور والعاجز عن نيل قاهره، والمكبوت في مجتمع ملغوم بالمحرمات، سيجد في المرأة موشكة على ارتكاب ذنب، وعليها ان تدافع عن نفسها بمزيد من القسوة على الذات. واحياناً تلبس المرأة الضحية ثوب جلادها لتتحول من خائفة الى مخيفة لنساء من بنات جنسها. تفعل ذلك بفعل اليأس من الحياة وقد تحول الى عقيدة دينية. والمرأة التي تقترن دائماً بطمأنينة البيت والعائلة تتحول الى وسيلة لبث خوف عام في مجتمع رجالي يعتبر المرأة نقطة ضعفه الكبيرة. فقد يقبل الرجال السجن وربما الموت، ولكنهم يضعفون حين يمس الخطر نساءهم. ولهذا السبب تركز الجبهة الاسلامية على النساء لتطويع المجتمع بكامله

الشهادة

ابتدعت السلطة وسائل لا تخطر على البال لقهر النساء في السودان.. وكلما ضاق الخناق على هذه السلطة داخلياً او خارجياً، تتجه نحو الضغط على النساء، وتوجه اعلامها بهذا الاتجاه. لن اتحدث عن النساء المشاركات في الحياة السياسية انما عن النساء العاديات. فالنساء يتعرضن للمضايقات ابتداء من ابسط الخصوصيات.. ومنها اولاً اللباس. ومعروف عن السودان انه بلد متعدد القوميات والأديان، متعدد القبائل، متعدد العادات، أي متعدد الأزياء. ولذلك من الصعوبة فرض زي موحد على النساء. ومع ذلك تحاول السلطة فرض الزي الايراني الغريب على المجتمع السوداني على كل النساء، بما في ذلك النساء غير المسلمات. ويتم الفرض بطرق مختلفة تبدأ بالمطاردة والمساءلة والتجريح ثم صعوداً الى الاعتقال والجلد.. ويستخدم الزي وسيلة لأذلال المرأة في كل مكان.. في الجامعة مثلاً يبدأ اذلال الطالبة مع بداية التسجيل فتوقع تعهداً بالالتزام بالحجاب «الاسلامي».. وبدون ذلك لن يتم تسجيلها وتفقد حقها في الدراسة. وبعد ذلك تلاحق الطالبة في المدرجات وفي فناء الجامعة وفي الداخليات اذا لم تتحجب... وقد حوصرت كل النشاطات الثقافية والرياضية للطالبات في الجامعات والمعاهد العليا. وتتعرض الطالبة للمساءلة والتحقيق عن هويتها وعلاقاتها عندما تشاهد وهي تتحدث مع زميلها الطالب. هناك تعميم لجو من الخوف والريبة في الحياة الأكاديمية.. وهناك مداهمات مستمرة من قبل اجهزة الأمن لتجمعات الطالبات، وقد اعتقلن من الاقسام الداخلية وهن بملابس النوم. في جامعة الجزيرة في الأقليم الأوسط ضربت الطالبات من قبل أجهزة الأمن تحت اشراف عميد الجامعة البروفسور التيجاني حسن الأمين وذلك بعد مشاركتهن في تظاهرة جامعية... خارج الجامعة. هناك مجموعات كبيرة من

النســاء الســودانيات يعملـن في القطاعات الهامشـية لكسـب الرزق في المدن الكبيرة من خلال بيع حاجات يوميـة كالشـاي والكسـرة مثلاً . هذا القطاع الكبير يتعرض لمطاردات يومية تسـمى (الكشـات) من قبل الشـرطة الشـعبية وتصـادر كل ممتلكاتهن وأدوات عملهن ويعتقلـن كمجموعات داخـل سـيارات عسكرية كبيرة ليحاكمن وفق قانون المظهر العام ويجبرن بموجب هذا القانون على دفع غرامات كبيرة أو السـجن بعد ان يحرمن من مصدر رزقهن.
وتتوزع النسـاء على سـجون عديدة مثـل حراسات الشـرطة وسـجون الاقاليم. ولكنـي سـأتحدث عن السـجن الذي كنت فيه سـجينة سياسـية وهو سـجن أم درمان الكبير.. ففي هذا السـجن الذي بناه الامـام المهدي قبل أكثر مـن مائة عـام يصل عدد النسـاء الى المئات، ومـائتين على الاقل. العدد يتغير حسـب الحملات السياسـية أو الجنائية العادية على النساء. في مساحات ضيقة جداً من هذا السـجن تتزاحم النساء في حر شـديد وجو خـانق يتعذر فيه التنفس وقـد أفترشـن الأرض مع اطفـالهن الرضع فـي ظروف ليس فيها أيـة شـروط انسـانية، لا في الغـذاء ولا في دورات المياه ولا المياه.. وفـي السـجن نسـاء محكومات لمدد غير معلومة طويلـة بسبب عدم قدرتهم على دفع الغرامات التي نصت عليهـا القوانـين. وهنـاك نسـاء يلدن فـي السـجن ويقضـي اطفـالهن طفولتهم فيه دون لعب ولا تعليم. انهن نسـاء بلا أمل وفي ظرف نفسـي قاسـي وبلا مسـتقبل لهن ولا لأطفـالهن وفي وضع انسـاني سـيء. وبعبـارة أدق لا انساني تماماً.
عدا السـجن هنـاك طريقـة جديدة لارهـاب النسـاء عن طريق الأسـتدعاءات اليومية لمراكز الأمن. فبعد ان اشتد الحصار علـى السلطة وبعد تدخل هيئات حقوق الانسـان اسـتخدمت حكومـة الجبهـة الاسـلامية اسـلوباً جديداً هو الاستدعاء يومياً للنساء والرجـال. وهو شـكل أمرْ وأقسـى من الاعتقال حيث يصطف الناس طوابير طويلة امام ابواب هذه المراكز لساعات طويلة في عملية اذلال مدروسـة. وقد تجري معهم تحقيقـات قصيرة وقد لا تجـري، انما تؤجل لمرة قادمة. ويستمر الاستدعاء اليومي لشـهور طويلة من الصباح للمساء دون ان يعرف احد ان كان سـيرجع من مركز الأمن لأسـرته أو لا، سيسجن أو لا، سـيعذب أو لا. العوائل نفسـها تبقـى في قلق ممض علـى الأبن أو البنت التي تسـتدعى ويشـترط حضورهـا وحيدة الى التحقيق.. حيـاة الشـخص تبقى معطلة تماماً بلا عمل ومستقبله مجهولاً بيد مجهولـين وبتهم لا يعرفها. ورغم مرارة حياة الانسـان المعلق هذا، فانـه اسلوب يحقق للسـلطة امكانية الافلات من مسـاءلات الهيئـات الدوليـة. بهذه الطريقـة تبقـي المواطن سـجيناً بدون سـجن... وقد شكلت الجبهـة الاسلامية تنظيماً بوليسـياً نسائياً من المتطوعات لملاحقـة النسـاء وكتابـة التقـارير والادلاء بملعومـات عن منـاطق عملهن

وسكنهن ومشاركة النساء في الاجهزة الامنية امر جديد على المجتمع السوداني ويتجلى دورهن بشكل بارز في فرض الحجاب الايراني على بقية النساء

ويزداد وضع النساء سوءاً في مناطق الحرب في الجنوب حيث تعيش النساء بين خطر موتين. خطر الموت في الحرب أو خطر الموت واطفالهن جوعاً في حالة الهروب من الحرب.. فمناطق المدنيين هناك هي ساحات حرب حقيقية تشملها الحملات العسكرية قبل ان تشمل العسكريين المعتادين على الكر والفر. وغالباً ما تكون النساء وأطفالهن الضحايا الأولى لهذه الحملات. ويتحدث الناس في المدن عن الفضائح التي ينظمها حاكم دارفور (الطيب ابراهيم) وعن حاكم كردفان وعن الانتهاكات التي تتم تحت اشراف الرائد ابراهيم شمس الدين قائد العمليات في الجنوب... هناك استباحات وعمليات اغتصاب جماعية للنساء الجنوبيات اصبحت جزءاً من الحرب النفسية على الناس هناك لاجبارهم على اخلاء المناطق. ويتم ذلك احياناً امام أعين الازواج الأسرى وتعامل النساء كسبايا.

وقد اعتادت النساء في جنوب وغرب السودان على الهجرات المستمرة حيث تقطع الأم مئات الاميال سيراً على الاقدام وهي حامل وتجر معها اطفالها بأتجاه الشمال بحثاً عن مناطق آمنة. وكثير ما تموت النساء أو اطفالهن من الجوع أو التعب خلال الطريق. وعندما يصلن الى المدن بعد رحلة العذاب الطويلة يعتقلن في معسكرات لا تتوفر فيها أية شروط صحية ويجبرون بواسطة قوات عسكرية على العودة الى نفس المناطق التي جئن منها، مناطق الحرب والإبادة.. وهكذا تعيش النساء وأطفالهن في دوامة من الهلع والتشريد المستمر الذي يدمر الأسرة وأية امكانية لتكوين حياة عائلة حتى ولو في خيام الإغاثة.

مناقشات مفتوحة حول اوضاع المرأة

ندعو الى المشاركة في الملف المفتوح حول اوضاع المرأة في بلادنا. ومحاوره هي الآتية:

- أوضاع المرأة وقضيتها بين الثلاثينات حين كان الحجاب الموضوع المركزي والخمسينات والستينات حين تنامت مشاركة النساء في المدن، والمرحلة الحالية.
- هل هناك تقدم أم تأخر في اوضاع المرأة وما هو المعيار؟ وما اسباب ذلك؟
- كيف نقيّم تجربة التنظيمات النسائية الداعية الى تحرر المرأة؟
- ما هو تأثير الحركات النسوية الغربية على مجتمعاتنا؟

أوضاع المرأة في محنة العراق

سهى عمر

عام ١٩٨٠ منحت منظمة اليونسكو العراق الجائزة العالمية لمحو الأمية. فعلق احد الباحثين في السياسة التربوية العراقية على قرار اليونسكو بالقول ان النظام الدكتاتوري يستحق العقاب، لا الثواب، لأنه شوه المضامين الديمقراطية والانسانية لمحو الامية، إذ وظف العملية لحشر الأميين في حزبه عنوة وتلقينهم شعارات الولاء لقيادته الدموية. فهو يرسخ «الأمية الحضارية» إذ يعمل على محو الأمية الابجدية.

لقد انطلت مضامين سياسة النظام لا على المنظمات الدولية الرسمية مثل اليونسكو فقط، بل كذلك حتى على مفكرين ومناضلين عرب في سبيل حقوق الانسان والديمقراطية. ففي كتابها المعنون «الوجه المخفي للمرأة العربية» الصادر عام ١٩٨٠ قالت داعية حقوق المرأة، المصرية المعروفة، د. نوال السعداوي، على سبيل المثال: «لعبت النساء في العراق دوراً هاماً ضد الامبريالية ومكائد العائلة المالكة. وتتمتع المرأة حالياً بحقوق مساوية لحقوق الرجل وهناك على الدوام وزيرة في حكوماته». لندع الحديث عن الحقوق السياسية، للرجال والنساء معاً، الى فقرة لاحقة، وحسبنا هنا الاشارة الى ان عشرات الحكومات التي شهدها العراق منذ تأسيس دولته الحالية لم تضم سوى وزيرتين الأولى كانت د. نزيهة الدليمي عام ١٩٥٩، والثانية كانت د. سعاد خليل اسماعيل خلال سنتين أو ثلاث في بداية النظام الحالي.

ولئن تلمسنا الاعذار لمن خدعته المظاهر والشعارات التي روج لها النظام حتى نهاية الثمانينات، فأي عذر بقي منذ غزو الكويت لمن يزوق وجهه. فمنظمة اليونسيف من منظمات الأمم المتحدة المختصة برعاية اطفال العالم. وقد امتد غوثها الى اطفالنا في سنوات الحصار العجاف. ولكن على الضد من رسالتها الانسانية نجدها، عام ١٩٩٣ وليس قبله بعشرة اعوام، تصدر تقريراً بعنوان Children and Women in Iraq تقول فيه: «يندر ان تجد بلداً عربياً مثل العراق الذي تتمتع فيه النساء بسلطة Power ورعاية. ففي العراق منحت المرأة الحقوق المدنية كاملة، ويتوقع منها النهوض بدورها في بناء البلاد. وتشغل النساء مناصب سياسية رفيعة، بما في ذلك ٢٧ من ٢٥ مقعداً في المجلس الوطني. وتزاول النساء المهن في الانتاج والخدمات. وينتظمن في شبكة متينة تابعة للاتحاد العام لنساء العراق وتغطي كافة انحاء البلاد تقريباً. ان دستور عام ١٩٧٠ قد اكد مساواة جيمع المواطنين امام القانون، واعطى فرصاً متساوية دون تمييز حسب الجنس. وبحسب قانون العمل ٧١ المشرع عام ١٩٨٧ يجب ان ينال الرجال والنساء الأجر نفسه لقاء العمل نفسه. ويحق للمشتغلات في قطاع الدولة التمتع بإجازة امدها سنة بعد الولادة، نصفها براتب كامل والباقي بنصف الراتب. ويعتبر دخل الزوجة مستقلاً عن دخل الزوج. وللنساء الحق في امتلاك ارض زراعية والتصرف بها. وعام ١٩٨٠ منحت المرأة حق الانتخاب والترشيح. وفي سنة ١٩٧٤ اصبح التعليم مجانياً في جميع مراحله. وفي ١٩٧٩ فرض التعليم الالزامي على البنات(١) والبنين حتى نهاية السنة الثانية عشر من العمر. وهذه الأسس القانونية تشكل إطاراً متيناً لتقدم النساء وتطوير دورهن في المجتمع. وكان لها مفعول مباشر على التعليم والصحة والرفاه الاجتماعي».

ففي اقوال السعداوي واليونسيف بعض الحقيقة ولكنها تولد انطباعاً زائفاً. لانها تغفل كون العراقيات يعشن تحت حكم واحد من اشد الانظمة قمعاً في العالم. وعلى سبيل المثال، كانت منظمة العفو الدولية قد اصدرت عام ١٩٨٩ تقريراً بواحد وسبعين صفحة يتناول ضحايا الارهاب في العراق من الاطفال حصراً. وتتجلى المساواة سياسياً بين النساء والرجال في الاجنحة النسائية من سجون العراق، مثل سجن «ابو غريب». فهنا قد تسجن امرأة حتى لخمس وعشرين سنة لانها سخرت من صدام حسين في جلسة خاصة. أما المجلس الوطني فمنذ انبثاقه ظل واجهة للدكتاتورية التي تعين اعضاءه، رجالاً ونساءاً عبر انتخابات تفتقر الى الحد الادنى من شروط الديمقراطية. ويتم التشريع، في واقع الامر، بمراسيم يصدرها صدام حسين بصفته رئيس مجلس قيادة الثورة، وهو السلطة العليا الفعلية حسب دستور النظام. وليس ثمة حماية قانونية لضحايا القمع الذي درج عليه النظام. والنساء اللواتي

يعينهن للمناصب السياسية الرفيعة هن ادوات له، فيتبنين نمط تفكيره الذكوري حتى في شؤون المرأة. وهكذا اصبح الاتحاد العام لنساء العراق، من الناحية العملية جزءاً متمماً لجهاز الامن الذي يرأسه صدام واقرباؤه الذكور. وفي ظل هذه الظروف تغيب المضامين الديمقراطية لمساواة المرأة بالرجل امام القانون، ولحقوقها ولحقها في الانتخاب والتوظف. فيحل الأذى والقهر محل المسرة والتحرر في ممارسة حقوقها القانونية.

ان الاذعان الذي تفرضه الدكتاتورية على جميع المواطنين في الامور العامة يوازي الاذعان الذي يفرضه الرجل على المرأة في البيت. فكلاهما ينبعان من الخوف. غير ان اضطهاد المرأة لا ينتهي برحيل الدكتاتورية. فالعراق الحر الديمقراطي تماماً لن ينبثق الا حين يستطيع الرجال والنساء اقامة العلاقات بينهم على اساس المساواة والاحترام المتبادل داخل العائلة وخارجها.

يجب الانطلاق في تحليل عواقب سياسة النظام على المرأة من فهم أيديولوجيا الشرف والعار في حياة المجتمع العراقي. وهذا هو ما اظهرته الدراسة التي اجرتها د. سناء الخياط في كتابها المعنون Honor and Shame. Women in Modern Iraq (راجع فصله الختامي المترجم في ث.ج (٢٦٢ - المحرر) فشرف الناس يقوم على السلوك الجنسي لقريباتهم. فاذا تصرفت المرأة تصرفاً بعيداً عن الحشمة او إذا تعرضت حشمتها لانتهاك الآخرين فان العار يلحق اقرباءها جميعاً. وهذا يسري بدرجات متفاوتة على النساء سواء بين العرب، او الاكراد، او التركمان، او الآشوريين، او بين المسلمين السنة او الشيعة، او الحضر، او بين الفلاحين او المهنيين، او بين الاسلاميين، او الشيوعيين، او القوميين، او الليبراليين.

وعليه فان النظام الذي لا يرعوي عن وسيلة، لجأ حتى الى تلويث شرف النساء لضمان امنه، كما سنرى(٢).

حقوق المرأة توطد النظام

في البداية تبنى النظام النموذج المعاصر لحرية المرأة للتأثير على الطبقة الوسطى الحضرية في الداخل، وللظهور بمظهر التقدمية والحداثة في الخارج، لا سيما مع توطيد علاقته بالبلدان الاشتراكية. وخلال الفترة بين انقلاب تموز ١٩٦٨ حتى اندلاع الحرب مع ايران عام ١٩٨٠ انتفعت النساء من تزايد فرصهن للتعليم والعمل ومن التشريعات المؤاتية لهن. فعلى سبيل المثال ارتفعت حصة البنات في التعليم الثانويةمن ٣٠٪ عام ١٩٧١ الى ٣١٪ عام ١٩٨٢. وإذا استبعدنا القطاع الزراعي، فان نسبة الاناث من مجموع المشتغلين بلغت ٥ ١٢٪ عام ١٩٧٥ ثم ارتفعت الى ٦ ١٧٪ عام ١٩٧٧ حتى بلغت حوالي ٢٧٪ عام ١٩٨٢ ارتباطاً بالحرب ايضاً. ونص قانون العمل

لسنة ١٩٧٠ وتعديلاته على تخفيض ساعات عمل النساء وعلى حق الامهات بأرضاع اطفالهن خلال اوقات العمل. وجرى تشجيع فتح دور الحضانة في مؤسسات عملهن، واعطى قانون الضمان الاجتماعي لعام ١٩٧١ المرأة حق التمتع، لمناسبة الولادة، باجازة مدفوعة الاجر اضافة الى مجانية العناية الصحية، وخفض سن التقاعد للمرأة الى ٥٥ سنة. وفي عام ١٩٧٥ اصبح من حق المرأة ان تطلب استقلال دخلها عن الزوج لحساب ضريبة الدخل(١).
غير ان قانون الاحوال الشخصية لم يلغ تعدد الزوجات ولم يبح للمرأة حقاً مماثلاً للرجل في طلب الطلاق. ويرى بعض الباحثين ان تقويض السيطرة على المرأة وتشجيع الميل نحو العائلة النووية المستقلة عن ذوي الزوجين يخدمان برنامج الدولة للتصنيع ويوطدان سلطتها. والنزعة الفردية والاستقلال ينسفان الولاء القرابي والديني والأثني، وبالتالي يحدان من فاعلية المعارضة ويساعدان على توطيد الدكتاتورية. وفي بحثها المشار اليه اعلاه ترى د. سناء الخياط ان العائلة النووية قد اضرت المرأة في البيت وفي محل العمل وذلك نظراً لبقاء اعباء البيت وتربية الاطفال على عاتقها وحدها بعد ان كانت تتلقى العون ضمن العائلة الموسعة، كما ان العائلة النووية تحرم المرأة من عشرة ومعونة قريباتها دون التعويض عنهما بالنشاط الرياضي والانتساب الى النوادي والجمعيات على غرار ما يجري في الغرب. ومن شأن ذلك كله توطيد سيادة الرجل على المرأة.

الضغوط تحاصرهن

لجأت السلطة الى ألزام المواطنين بالإخبار عن اي نشاط معارض، بما في ذلك اطفاء التلفزيون عند ظهور صدام حسين على شاشته. وتعاني النساء من ذلك بصورة عميقة. فالمعلمات والمدرسات يجبرن على استنطاق الابناء عن المواقف السياسية للوالدين. وقد ارسلت وزارة التربية عام ١٩٧٩ كتاباً الى مديرات المدارس في كربلاء يقضي بفصل جميع المعلمات اللائي زرن احدى زميلاتهن للتعزية بعد اعدام ولديها. ان مثل هذه الضغوط تمارس ايضاً لارغام المشتغلات على الانضمام الى حزب السلطة، مما حدا بالعديد من النساء الى الاستقالة أو الامتناع عن التوظف.
منذ صعود صدام الى الرئاسة في تموز ١٩٧٩ اصدر عديداً من القوانين والاوامر الرامية الى التحكم بحياة النساء وتوطيد الدكتاتورية. ففي نيسان ١٩٨١ تقرر منح المال لازواج النساء من «التبعية الايرانية» إن هم طلقوهن. فيمنح المدني ٢٥٠٠ دينار والعسكري ٤٠٠٠ دينار، اي ما يعادل ثلاثة امثال مجموع الرواتب السنوية للمعلم. وفي تشرين الاول عام ١٩٨٢ آمرت وزارة الدفاع باعتقال زوجات واطفال الهاربين من الجندية مثابة رهائن. وفي كانون

الاول من العام نفسه اصدر مجلس قيادة الثورة مرسوماً يمنع النساء من الزواج بالاجانب. وتحرم العراقية المتزوجة من اجنبي من تحويل المال اليه أو تسجيل العقار بأسمه، كما يحرم هو من استيراثها. وعند الطلاق يحرم من حضانة الاطفال.
وفي شباط ١٩٩٠ اضفى النظام الشرعية القانونية على العرف العشائري القاضي بقتل المرأة «غسلاً للعار» بتهمة الزنا. وبذلك اباح للرجل قتل الأم، الابنة، الأخت، العمة، ابنة الأخ وابنة العم وبهذه الذريعة. وبحسب هذا العرف البدوي فان قتل «الزانية» من واجب اقرباء ابيها، وليس من واجب زوجها
وفي تشرين الثاني ١٩٩٣ نشرت جريدة «بابل» التي يملكها عدي بن صدام حسين قراراً لمجلس قيادة الثورة يجعل العلاقة الزوجية سلاحاً تستخدمه السلطة ضد المعارضين لسياستها. وبموجبه اصبح من حق الزوجة ان تطلق زوجها إذا انخرط في «خدمة العدو». ويمكن ان تحتفظ بحقوقها الزوجية وابطال الطلاق إذا «عاد الزوج الى الصف الوطني» خلال فترة العدة.

زيادة الانجاب

وخلال الحرب العراقية-الايرانية ترتب على النساء مواجهة المحاولات التي قام بها النظام لزيادة معدل الانجاب سواء بزيادة خصوبتهن أم عن طريق تشجيع الازواج للزواج ثانية. فقد خلفت الحرب اعداد كبيرة من الارامل. وكانت السلطة تدفع التعويضات لهن في بداية الامر. ثم تقرر اعطاء منحة للرجل إذا تزوج ارملة، وذلك بحجة «صيانة شرف الشهيد» من انحراف ارملته الى البغاء، وتوفير أب لأيتامه. والغاية من ذلك تعويض الخسائر البشرية للحرب، وهو من مظاهر عدم الثقة بالمرأة إن عاشت بغير رجل في بيتها. وأدت هذه المنحة الى انعاش تعدد الزوجات(٣) بعد ان بات نادراً لا سيما في المدن وبين الطبقة الوسطى، وذلك رغم انه مباح في الاسلام وفي التشريع الحكومي. وكانت المنحة المذكورة متدرجة حسب مستوى المرأة تعليمياً. فكانت ٢٠٠ دينار لمن يتزوج خريجة المتوسطة و٣٠٠ دينار لمن يتزوج خريجة الاعدادية، و٥٠٠ دينار لمن يتزوج خريجة الجامعة. وتورد د. سناء الخياط في كتابها اعلاه، عن جابي في الباص متزوج ولديه سبعة اولاد يريد خطبة ارملة من الطبقة الوسطى عمرها ٢٢ سنة. ولا يتوقع ان تأخذ العائلة رأي الارملة الشابة. اما زوجته فلا تعارض خشية الطلاق علماً ان القانون اشترط موافقة الزوجة على اقتران الزوج بامرأة ثانية.
واشتملت الحملة على زرق الطالبات والمدرسات في المدارس الثانوية والمعاهد والجامعات بحقن اعتقد الكثيرون انها لزيادة الخصوبة، رغم ان السلطة نفت ذلك. ولان الطالبات كن عازبات افترضوا ان مفعول الدواء طويل الامد.

وكانت المستشفيات تزرق المرأة بحقنة الخصوبة عقب الولادة، الامر الذي جعل الكثيرات يفضلن الولادة في بيوتهن.
ومنع تداول وسائل منع الحمل وكذلك منعت عمليات الاجهاض، مما دفع العديد من النساء للجوء الى الاجهاض غير الشرعي وتعريض حياتهن للمخاطر. وهذه الاجراءات الشبيهة بما فعلت النازية في المانياجرت تحت شعار، رفعه الاتحاد العام لنساء العراق، يخاطب صدام حسين بالقول: «نعدك بمهد في كل بيت». وقد اعلن هو ان كل عائلة ينبغي ان يكون لها خمسة اطفال. فاذا قل العدد عن ذلك يتعرض آمن الوطن الى الخطر. وموِرست ضغوط على نساء تجاوزن الاربعين بل حتى الخمسين، للانجاب رغم ما فيه من خطر على صحتهن، وفي كلمة ألقاها على قيادات الاتحاد الوطني لنساء العراق قال صدام: نأمل أن لا يؤدي ميل المرأة للخروج بحثاً عن العمل الى ابتعادها عن عائلتها أو من الانجاب وفقاً لشعارنا.

الاتحاد العام لنساء العراق المرأة

هذا الاتحاد تابع للسلطة وله مكاتب في المدن والقرى في جميع انحاء العراق (باستثناء المناطق الكردية التي خرجت عام ١٩٩١ عن سيطرة النظام). لقد تأسس عام ١٩٦٨ بعد الانقلاب الذي جاء بالنظام الحالي. لعب الاتحاد دوراً هاماً في السبعينات والثمانينات في تزويق وجه النظام خارجياً بأظهاره كنظام علماني حديث. وجدير بالذكر أن الاتحاد يعتبر نفسه الممثل لكل نساء العراق بصرف النظر عن القومية اللغة والمرتبة الاجتماعية. وقد حرّم النظام النشاط على المنظمات النسائية الأخرى مثل رابطة المرأة العراقية التي اسسها الحزب الشيوعي العراقي في الخمسينات، (اصبحت رئيستها د. نزيهة الدليمي ١٩٥٩ اول وزيرة في العراق والعالم العربي). وبات الانتماء الى منظمة نسائية غير الاتحاد جريمة سياسية عقوبتها تصل الى السجن ١٥ سنة.

ان مهمة الاتحاد هي، في الواقع، مساعدة النظام على التحكم بنساء العراق، وهو يدعو بالكلام فقط الى المساواة الشكلية بين الجنسين دون ان يوجه في يوم من الايام انتقاداً الى الموقف الذكوري المنحاز ضد النساء، ولا سيما بين قياديي السلطة وحزبها. في الخطاب الذي القاه صدام حسين اثناء انعقاد المؤتمر السابع للاتحاد برر عدم معالجة الاجحاف ضد المرأة في قانون الاحوال الشخصية بالقول ان ازالته تعني «خسارة الثورة ككل لتاييد نصف المجتمع». ويقصد النصف الرجالي من المجتمع. ومن مظاهر ذلك خلو الهيئات القيادية للنظام وحزبه من النساء. فرغم انتمائها الى فكر السلطة وحزبها، فان د. سعاد خليل اسماعيل، التي عينت وزيرة بعد انقلاب ١٩٦٨،

عانت الامرين من المكائد الذكورية في الطغمة الحاكمة فأزيحت من الوزارة عام ١٩٧٢.
ويسود الاعتقاد ان الاتحاد قد عمل اثناء الحرب مع ايران على توفير النساء لتسلية الضباط المنتمين الى حزب السلطة. وقد نشرت المعارضة صورة كتاب سري وجهه فتو التكريتي، نائب رئيس «نادي الصيد» الى الأمينة العامة للاتحاد بتاريخ ٤ حزيران ١٩٨٢، طالباً مساهمة عضوات الاتحاد في «الترفيه عن كبار ضباطنا» في حفلة ليلية تقام بمناسبة ذكرى «ثورة تموز ١٩٦٨». وطالب عدم اصطحاب العضوات لاحد من اقربائهن وتعهد بمنحهن مبالغ مجزية.
لقد سخر النظام اتحاده النسائي لاغراض بعيدة عن حقوق المرأة. فمطلوب منه تبرير سياسة الدكتاتورية ومواجهة الانتقادات العالمية ضد ممارساتها الوحشية مثل ضرب حلبجة بالاسلحة الكيمياوية والانفال وهدم آلاف القرى الكردية، والبطش بالانتفاضة وكان من ضحايا هذه الممارسات عشرات الآلاف من النساء والاطفال. فقد دأب الاتحاد على نشر برقيات وبيانات التسبيح بحمد النظام والتهليل لكل اجراءته باسم نساء القطر جميعاً. وهذا تزوير فاضح لرأي وإرادة اغلبية النساء اللائي يتعرضن مثل الرجال لانتهاكات ابسط حقوق الانسان.
لقد اصبح الاغتصاب ممارسة معتادة من قوى الأمن ضد معارضات أو نساء معارضي السلطة. واثناء انتفاضة ١٩٩١ وقعت بيد المعارضة اكداس من الوثائق السرية التي تفضح مثل هذه الممارسة، ومنها توظيف اشخاص لمهمة اغتصاب المعتقلات بالتحديد (انظر كتاب كنعان مكية - P.287 Cruelty and Silence) وتستخدم اجهزة الأمن الاغتصاب لتحطيم صمود المعتقلين و«كسر عين» العوائل، وتهديد ضحايا الاغتصاب بالتشهير ما لم يتعاونوا مع هذه الاجهزة.
لقد نالت كردستان «حصة الاسد» من بطش الدكتاتورية. وقصة نساء قوشتبه نموذج لعواقب بطش الدكتاتورية. فمجلة The Time (عدد آذار ١٩٩٣) تتحدث عن مأساة القرية التي اعتقلت ورحلت ثم ابادت رجال وفتيان القرية كلهم (أي حوالي ٨٠٠ شخص). وهكذا حرمت النساء من معيلين وفقدت الفتيات الامل بزواج لائق. وقد هدمت القرية وسيق الاطفال والنساء الى مجمعات السكن القسري، شأن اهالي آلاف القرى والبلدات الكردية التي هدمها النظام منذ اواسط السبعينات حتى انتفاضة ١٩٩١.
لا عجب اذن ان يسكت الاتحاد العام لنساء العراق عن جرائم السلطة التي اوجدته ومدته بالمال لاحكام سيطرتها على النساء وتبرير ممارساتها الوحشية بما فيها سجن وتعذيب واعدام المعارضات (كالشيوعية عايدة

ياسين والاسلامية بنت الهدى) وقد وثق عامر بدر حسون في كتاب «القسوة» ممارسات التعذيب المسلط على النساء من خلال مقابلة اجراها مع المواطنة «ليلى» التي مرت بصنوف من التعذيب الرهيب في اقبية الأمن.

تفاقمت اوضاع المرأة منذ غزو الكويت، وقد كُتب الشيء الكثير عن المآسي التي حلت بالعراق جراء الحصار والحرب، والحرب التي اهلكت عشرات الالوف من البشر، ودمرت الكثير من المرافق الانتاجية والخدمية، واستهتار الحكام بحياة الناس ومستقبل بلدهم. تكفي الاشارة الى ان معدل الناتج المحلي الاجمالي للفرد عام ١٩٩٣ قد هبط الى ما كان عليه في الاربعينات، الامر الذي يعني محو ثمار خمسين عاماً من البناء واستثمار الموارد النفطية، وضياع التطور الذي طرأ على مستوى المعيشة (راجع دراسة د. عباس النصراوي في العدد ٢٦١ من الثقافة الجديدة). ويتجسد كل هذا في المعاناة اليومية لتدبير ابسط مستلزمات العيش لدى الاغلبية التي حل بها الافقار المتزايد. وحين يعض الجوع الانسان وتهدد الامراض حياته يمسي اهتمامه بحقوقه الاجتماعية والسياسية ترفاً لا يستطيع التمتع به. ويسري ذلك، بطبيعة الحال على حق المرأة في المساواة. حسبنا القول ان الازمة ماضية في سحق الطبقة المتوسطة التي منها انبثقت الدعوة الى تحرير المرأة، ومن صفوفها برز رائدات التحدي للقيم والاعراف التي تريد ابقاء المرأة وراء جدران البيت خادمة لسيدها المطلق وحافظة لذريته.

كان اختراق الحصار الاجتماعي، الذكوري، على المرأة يجري من خلال توسع التعليم، وانفتاح سبل العمل أمامها في المدن، وانتشار الثقافة التنويرية بصورة تدريجية. ومهما اختلف الرأي حول مدى التقدم الحاصل في اوضاع المرأة الاجتماعية، فان المآسي التي حلت بالعراق منذ غزو الكويت، قد اضرت بتقدم البلاد على مختلف الصعد، ومنها اوضاع المرأة.

الجهل وبال على المجتمع، ولا سيما على المرأة، ضحية ثقافته الذكورية. وعموماً يصح القول ان توسع التعليم يزيد فرصه أمام الفئات المحرومة، بمن فيهم الاناث. واختلاط الجنسين، الذي يستبعد في المرحلة الثانوية، صار سائداً في التعليم العالي منذ الغاء «كلية البنات» في السبعينات. فهو ميدان هام لخروج عشرات الالوف من البنات من حالة العزلة. ومن ناحية أخرى ما زال التعليم اهم مجالات العمل للمتعلمات. فما يطرأ على اوضاعه يمسهن بصورة مباشرة، فضلاً عن تأثيره عليهن كنساء. فالبنت آخر من يرسل الى المدرسة واول من يسحب منها إذا تردت الاحوال المعيشية للاسرة. ويجدر بالذكر ان التآكل قد اتى عملياً على مجانية التعليم منذ الثمانينات. وقد تفاقمت صعوبات العوائل في تدبير نفقات الكتب والقرطاسية والثياب واجرة النقل، ناهيك عن اعاشة الأبناء في مدينة الدراسة. وحين تضيق امكانية

الانفاق على التعليم، تكون الافضلية للابن لا للبنت. وهكذا تحرم من نور العلم ومزايا الاختلاط فضلاً عن فرص العمل.
العمل المأجور يوفر للمرأة احد متطلبات تحررها من الاعتماد على الرجل. وقد تقلصت فرص العمل امام المرأة مع تفشي البطالة منذ اواخر الثمانينات بعد ان كان العراق يستورد اليد العاملة من الخارج. وما زال قطاع الدولة هو الميدان الاول لاشتغال المتعلمات واختلاطهن بالرجال. وعند التنافس على الوظائف تكون الافضلية في التعيين للذكور. ويضطر العديد من الموظفات الى ترك العمل والانكفاء في البيت بعد ان اصبح الراتب لا يكفي لتغطية تكاليف الوصول الى محل العمل والظهور بمظهر لائق. فقد تخلفت القيمة الشرائية للراتب بفعل التضخم الرهيب. (من مؤشراته هبوط قيمة الدينار الذي كان يساوي اكثر من ثلاث دولارات، فبات الدولار يباع بأكثر من ألف دينار في السوق).
كثيراً ما يُعزى التطرف في الموقف الذكوري من المرأة الى البداوة، بقيمها واعرافها التي تقلص تأثيرها في المدن بالتدريج. ولكن النظام لجأ الى بعث المؤسسات العشائرية وقيمها البدوية لزجها ضد المعارضة الشعبية، خاصة بعد تفجرها في انتفاضة آذار ١٩٩١. ومن شأن هذا التوجه ان ينعش القيم والاعراف المنافية لحقوق المرأة، أو ان يوقف تراجعها على الاقل.
ومن عواقب حروب السلطة، الخارجية منها والداخلية المتواصلة، تفشي ممارسة العنف، وتصاعد الجريمة، وذلك ارتباطاً بالأزمة المعاشية وفساد اجهزة الشرطة، وممارسات حاشية السلطة ورموزها، من امثال عدي بن صدام. وقد تكاثرت حالات الاختطاف للنساء واغتصابهن على يد ابناء المتنفذين ومن قبل اجهزة الامن والمخابرات للايقاع بهن وبعوائلهن. كل هذا أدى الى تزايد المخاوف، خاصة لدى النساء، من ارتياد الاماكن العامة، ومن التزاور، والبقاء طويلاً خارج البيت، لا سيما ان تكاليف النقل والضيافة اصبحت لا تطاق.
البغاء من ابشع مظاهر العبث بانسانية المرأة. ورغم منع البغاء رسمياً فانه لم يختف. وقد أدى تفاقم الاز مة المعيشية والتحلل الذي نخر المجتمع منذ الثمانينات الى اتساع ظاهرة البغاء. ومن العوامل المؤدية الى اتساعها تأخر سن الزواج وذلك بسبب تفشي البطالة وطول مدة الخدمة العسكرية اثناء الحرب، ناهيك عن الارتفاع الفاحش في كلفة الاثاث وتفاقم ازمة السكن.
ختاماً فان اوضاع المرأة الاجتماعية فضلاً عن احوالها الانسانية، كمواطنة قد تدهورت في سياق الكوارث التي جرها النظام الدكتاتوري على البلاد. وبديهي ان وقف التدهور تمهيداً لاستئناف التنمية الاقتصادية والاجتماعية يتطلب التخلص من هذا النظام.

ان اغلب قوى المعارضة العراقية صارت تنادي بالديمقراطية. ومصداقية التزامها بالديمقراطية هي في الموقف من قضية المرأة. فلا يكفيها تسطير حق المرأة في المساواة مع الرجل في البرامج والبيانات، بل ان المعارضة مطالبة ان تبدع في جذب النساء الى ميدان النشاط من اجل البديل الديمقراطي الذي لا يستوي الا بمشاركة النصف المهمش من المجتمع، أي النساء.





تخطيط للفنانة عفيفة لعيبي


أدب وفن

ماكس ارنست:
الانتاج الفني والتحرك الثوري

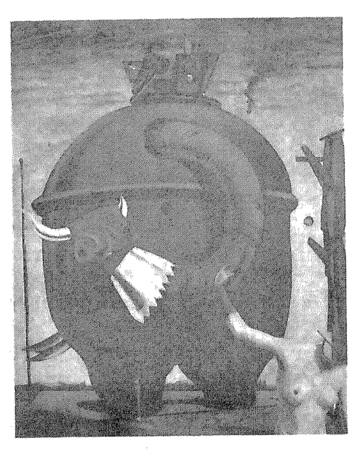
د. محمد صادق رحيم

نادراً ما نجد منشوراً أو مقالاً صدر عن السرياليين يخلو من كلمة «الثورة» لكننا نجد كثيراً من نشرياتهم خالية من الانحياز السياسي الواضح أو الآيديولوجيا المطبقة في شكل الحكم. وهذا يصدق ايضاً على نتاجاتهم الفنية الحاملة لعناوين سياسية المعنى والهدف. عند محاولة النظر الى اقرب مساحة سياسية احتلها السرياليون نجد في قلب مخططاتهم وبحوثهم وتحليلاتهم، عزيمة مزدوجة على جمع ما هو اجتماعي سياسي ثوري مع التحول الداخلي أو السايكولوجي للانسان.

قال ماكس ارنست: «يرى البعض ان يغلق عينيه ويترك عنان مشاعره لتجد ما هو كامن في ماوراء الطبيعة. لكني ارى، إذا استطاع الانسان ان يغلق عيناً واحدة فقط ويترك الاخرى ناظرة الى الواقع، فانه سيجمع بين رؤية الخيال أو ماوراء الطبيعة مع بقاء ارتباطه بالعالم الواقعي الحقيقي بواسطة عينه الاخرى، إذا قدر ان يحلل الاشياء بهذه الطريقة فانه سيجمع ما نعتبره تحليلاً مزدوجاً للشيء والسبب معاً». (من فلم بيتر شاموني، الوثائقي عن ماكس ارنست).

في البداية كان السرياليون متبنين لفهم معمم للعصيان، تبلورَ واحتد خلال العشرينات ليصبح توجهاً وتبنياً للثورة والثورية. ثم اصبحت بعد ذلك العلاقة بين التحرك على الصعيد الاجتماعي والتحرك على الصعيد الفني من خلال انتاج الفنانين، هي المعضلة الاولى عند السرياليين، معضلة شاغلة للسرياليين لم يكن اخفاؤها أو تناسيها يشكل حلاً لها. إلا أن «منظّر

السريالية» اندريه بريتون سفه تلك المشكلة واعتبرها غير ملحة أو مهمة.
كان ماكس ارنست من اقرب الفنانين التصاقاً بالسرياليين وانخراطاً معهم في اعمالهم، خاصة في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. وكانت هناك علاقة مباشرة ومهمة بين الدرامية في رسومه السريالية وبين التوجه الاجتماعي والسياسي للجماعة ككل.
كانت لوحاته كثيرة التنوع متغيرة من حيث المواد المستخدمة والتكنيك المختار لتنفيذها. حملت بعض رسومه دقة الايقونات في تفصيلاتها بينما تكوّن بعضها من محاولات لصنع اجواء خاصة مستقرة في كثير من الاحيان. واحتوى الكثير من اعماله على اشخاص تائهين واشياء مضطربة ووجوه قلقة للغاية. ويشكل التضارب بين نسب حجوم الكتل في اعماله حافزاً يعطي صعقة أو هزة عنيفة للمشاهد. ويظهر غالباً في اعماله عدم موازنة واختلال مقصود. اشياء صلدة لكنها مفرغة من محتوياتها تحسها واهية متهاوية، أو يجعلها تبدو مستوية السطح بعد قطعها من مكانها ولصقها مرة آخرى. والاشخاص تجدهم غالباً مرسومين دون ان ينجز رسمهم أو مقسمين الى اجزاء عديدة
ان الشكل المستطيل والذي هو اللوحة المحتوية على كل هذا التقطيع والتشويه المقصود يعطينا منظراً طبيعياً مفترضاً لكنه متوقف متجمد تحس بانك تنظر الى عرض جارٍ توقف للحظة لكي يستمر بعدها كما كان في كثير من لوحاته نجد دراسة للعمق المنظور ومنها ما يحتوي على خط افق واطئ وحيد على عرض اللوحة يعطي شعوراً بوجود مساحة ارض تقف عليها وتحتلها مجموعة من الاشياء والاشكال المقتربة



MAX ERNST: Celebes 1921

من المشاهد، وتحتل القسم الاعلى من اعماله عادة خلفية من لون واحد هي الازرق السماوي غالباً. ولا تحمل الشخوص في رسومه تفاصيل دقيقة، انها تحمل تعبيرات واشارات دقيقة تشير الى كنه تلك الشخوص دون الدخول في تفاصيل غير ضرورية. ان الشخوص المرسومة على تلك الخلفية الزرقاء تبدو ضخمة وكأنها كتل شاهقة الطول ترتفع الى عنان السماء، اضافة الى ذلك، تحتوي لوحاته على كليشيهات مكررة معتادة من اشكال واشخاص يحمل بعضها معان معينة شائعة ومعروفة كشكل الرجل برأس طير مثلاً، والذي كان يسميه «لوبلوب» وكان يعني به صورته الشخصية محللة سيكولوجياً. الطيور في الاقفاص عنده كانت تعطي معاني درامية غير اعتيادية. انها الانسان يدور ويدور في داخل قفصه حيواناً في مصيدة، لكن وضع هذا الانسان وتجربته مبررة حالياً بسبب الاحداث التي تحيطه ولكونه محكوماً عليه بالكسب لاجل البقاء والمعايشة، هذه التجربة والتبرير والحكم، تقتل بشكل تدريجي مقدرة هذا الانسان على استعمال خياله وابداعه، فبعد بلوغه سن الرشد، يهجر كل التخيل والمقدرة على الحلم وايجاد الحلول البديلة الى الابد. ولهذا فهو غير قادر على ان يكون ثورياً مغيراً ومتغيراً. فبدون خيال خلاق لا يمكن تبني أي مشروع ثوري. لقد كان الخيال هو الاساس المهم في ثورية كل السرياليين.

كذلك فان الفن لا يمكن ان يُمتدح أو يُذم لحمله مرآة تعكس الواقع المنظور، أو تقدم عالم احلام محسوس في زمن أو في لا زمن، فاذا كان هذا الواقع عبثياً وغاصاً في هياج ولخبطة، يدينه الكذب والاستغفال، فان الصورة في المرآة ستكون هياجاً ولخبطة وكذباً واستغفالاً.

قدم ارنست نماذج للحوار بين الطبيعة النقية والمدنية المتحضرة في رسمه للغابات المتحجرة، رسم غابات تبدو كأشجار من صخر، واضحة في هذه الصور الاشارة الى قلق العصر لفقدان الطبيعة وتدميرها، وعدم مزاولة البدائية الغير ملوثة والفطرية الصحيحة، وكان رسم صور الغابات الحجرية المدمرة تصويراً لعملية تحويلها الى ورق أو صناديق للبضائع الميتة، وتقديماً بليغاً لصورة الفقدان الاليمة. هي صورة ساخرة بأزدراء، وبروح رومانسية احيانا، لان التقاليد الرومانسية الشائعة في بلده، المانيا، بقيت قريبة الى قلبه، لكنه لمح حتى الى فقدان تلك الرومانسية.

ان التقاليد الفنية الالمانية العريقة تسند خلفية ارنست الثقافية وتصلب عموده الفقري، مما جعله منحازاً معادياً للنازية في بلده. في لوحات الرسام الالماني (البرخت التدورفر) من بداية القرن السادس عشر، نجد تصويراً لغابات بأشجار صمغية باردة، في اسفلها شخوص مخيفة بوجوه مرعبة، هذه الشخوص المرعوبة كانت ترمز للاوبئة والامراض القاتلة لكنها كانت تحمل

في نفس الوقت في داخلها وعوداً بالشفاء والسعادة، اي انها كانت شخوصاً اخلاقية، حيث كانت تمثل الاثم الذي ينتهي بالصلاح بعد التوبة. وهذه هي نفس الرسالة التي اراد ماكس ارنست ايصالها في مجموعة من صوره، التي منها «الحشد» The Horde من 1927.

في هذه اللوحة نجد شخوصاً في حالة مقاومة وصراع، ونجد تركيزاً على تصوير الافكار البربرية الهمجية واقتحامها لاوربا في الثلاثينات. انها ليست نقل للواقع، بل هي نقلاً لكوابيس الواقع المرعبة، الثقافة الهمجية الغازية متمثلة في تلك الوجوه القبيحة والمتألمة، التي هي في طريقها نحو الصلاح والاستقامة. انها تحمل كثيراً من اواصر العلاقة الوثيقة بالشخوص المرعبة الموجودة في لا وعينا. أما عند ماكس ارنست، فهي تأثير فرويد، وتصويره العصري لطبقات اللاوعي المختلفة، متداخلاً كخيوط النسيج مع الخلفية الثقافية الموروثة واساليب التصوير التاريخي التي جلبها ارنست الى الحداثة.

لقد استمر ماكس ارنست بتصوير الاشخاص والغابات الحجرية وبدقة وتفصيل على مدى الثلاثينات والاربعينات. جل هذه المصورات حمل يأساً وقلقاً بالاضافة الى درامية مؤثرة تحسها مربوطة بنياط قلبه. اراد بذلك تقديم آراء معممة شاملة عالمية التأثير. نرى ذلك واضحاً في لوحته «اوربا بعد المطر». انها الدراما الشخصية المؤثرة ناتجة عن انجازه للشخصين في هذه اللوحة، وأحدهم «لوبلوب» الانسان برأس طير والذي هو ارنست نفسه، خلفه شخص يغادر المكان، انه واقف يدير رأسه الطيري لا لكي ينظر الى ما ترك خلفه بل هي نظرة مغادرة وتوديع لاوربا الميتة، أو التي تعاني من حشرجة الموت، انها أوربا صخرية بعد الحرب «بعد المطر» تخرج ثعابينها وسلاحفها وزواحفها المقززة لتسود وتنفرد وتصول وتجول. انها اشبه بمدينة مدمرة بعد حرب نووية، انها تصوير لاوربا في الاربعينات التي من الصعب علينا تصورها اليوم بسبب المسافة الزمنية.

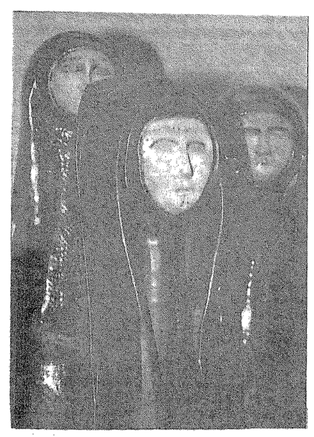
نحن لا نرى كثيراً من الثورية في هذه التصويرات السريالية لكننا نجد غنى وغزارة لاسياسية فيها، وإذا ما حاولنا تصور الحالة الاجتماعية في اوربا حينها فاننا سنلاحظ الدقة العالية في التعبير اللاسياسي عن روح العصر فيها.

ان من المناسب جداً هنا، وفي معرض الحديث عن الثورية في الحركة السريالية، ان نتطرق الى التكنيك المستخدم في تنفيذ هذه اللوحات، وكيف تم تحقيق ذلك التصور السريالي للعفوية والتلقائية. فقد ثبّت (اندريه بريتون) في البيان السريالي الاول، أن الشكل اللاارادي يجب ان يكون اسلوباً مركزياً للنتاجات السريالية. الكتابة اللاارادية مثلاً، وغيرها من اشكال

العلاقات الحرة، طورها فرويد عند علاجه لمرضاه النفسيين لتصبح - كما إعتقد - قادرة على كشف نواحٍ معينة مخفية في حالات الافعال النفسية الطبيعية.
في محاولات للرسامين السرياليين لايجاد بديل في الرسم مشابه للكتابة اللاارادية، استعملوا تكنيكات عديدة في تنفيذ لوحاتهم، فاللاارادية - كما قلنا - كانت الاداة الاولى في بحوثهم السريالية.
استعمل ماكس ارنست اسلوب الفروتاج والغراتاج والكولاج، الفروتاج هو وضع الاصباغ على مواد طبيعية مثل قطعة خشب أو حجر أو جذع شجرة، ثم وضع ورقة على الخشبة أو الحجر أو الجذع ودلكها بقطعة مطاط أو مشط أو قلم فتطبع تلك الاصباغ على الورقة بتلقائية لا ارادية، وبعد ذلك تجري عملية ترتيش وتنظيم لكل تلك اللاارادية على تلك الورقة لكي تصبح لوحة سريالية. اما الغراتاج فهو لصق طبقات من قماش الزيت الملون على بعضها البعض، ثم قطع اجزاء منها لتظهر اجزاء من الطبقة الأخرى تحتها والتي يختلف لونها، وكذلك توضع طبقات من الاصباغ المخلوطة بمواد مكثفة كالرمل على بعضها ثم قشعها في مواضع معينة لكي تظهر الالوان المغطاة من تحتها، والنتيجة تكون هي اللوحة. وقد استخدم إرنست طبقات من قشرة الاشجار ولصقها في لوحاته المعبرة عن الغابات المدمّرة.
اما اسلوب الكولاج، فقد استعمله اول مرة عندما عمل مع جماعة (الدادا) في مدينة كولون خلال الحرب الاولى. لم يكن كولاج ارنست كولاجاً بالمعنى الحرفي للكلمة، ففي بعض لوحاته كان الكولاج رسوماً وصوراً فوتوغرافية عملها أو قطعها من كتب ولصقها مع بعض ثم اجرى عليها بعض الترتيشات أو الرسوم المكملة النهائية لجعلها تبدو قريبة من الاعمال اللاارادية حيث ان عملية قطع اوراق أو صور معينة ولصقها مع بعض هي عملية ارادية. كان يقوم بتلك الرسوم والترتيشات بعد المرور بسرعة على كاتالوك لوحات، أو كتاب بايولوجي لتشريح جسم الانسان وما الى ذلك. لقد كان عاشقاً لتلك والتقاطعات والتضارب التي تحدث في فكره عند نظره السريع في كل تلك الاشياء وتصفحه السريع للكتب والصور.
أول مجموعة من الكولاج عرضت له في باريس عام 1921 كانت نتاجاته للسنين 1919 و1920 و1921. احدثت تلك اللوحات تأثيراً عميقاً على الحركة السريالية ومستقبلها، لقد رأى فيها السرياليون تجسيداً لما سعوا لتحقيقه، ووجدوا فيها ما يجمعها أو ما يجعلها مطابقة للشعر السريالي الذي كتبه لوتريمون، افكاراً مثل وضع شيئين أو حقيقتين غير متشابهتين على طبق غريب عليهم، لتكون النتيجة شرارة خاصة هي نور أو بريق سريالي ينير المكان لكنه في نفس الوقت يجعل الناظر فيه تائها فاقداً لكل

حس بالاتجاهات، هي شرارة تبعث نوراً عميماً في كل العالم من خلال فقد الحس بالاتجاهات. واستعمل اندريه بريتون مثل تلك الافكار في كتاباته مثل «المشخص الكهربائي المتوهج».
رسم ارنست منظراً طبيعياً فيه يد واصابع عملاقة تحتل نصف ارض اللوحة وسماءها. فاليد غريبة على ذلك المنظر وهي تمسك ايضاً شيئاً غريباً عليها وعلى المنظر الذي تحتل. لقد رأى بأن العالم لن يبقى، إلا اذا تغير الى نتيجة متخيلة من طبيعة واشخاص واشياء معادة الترتيب في نظام يضعه هو.
واعتقد بريتون ان هذا النظام الجديد ممكن تحقيقه عن طريق الافعال اللاارادية الغير مقصودة فقط. أي انك تخلق عالماً جديداً بدون الوعي بأنك تقوم بذلك، وقد رأى البعض ان ذلك ممكن تحقيقه في حالة الوعي ايضاً، لكن بريتون أصر على ان الوعي عند خلق العالم الجديد يجعله كليشيه تضاف الى الكليشيهات الموجودة الأخرى.
استعمل ماكس ارنست ايضاً في لوحته «اوربا بعد المطر» تكنيك ال«ديكالكامينية» وهو وضع اللون الكثيف على اللوحة ثم اطباق زجاجة أو ورقة على تلك القماشة والالوان لا تزال طرية، ثم رفع الزجاجة أو الورقة لتترك اللون على القماشة بملمس لزق واشكال ونهايات مدببة. لقد صنع ارنست من تلك الاشكال العفوية خارطة بايولوجية من اشجار واشكال مرعبة واشخاص كوابيس، انك ترى اشكالاً في اللوحة لا تدري أهي حقيقة أم انك تتخيل انها موجودة، فهي وجوه مرعبة كامنة، تظهر وتختفي، تزحف نحوك، لا كما في التقليد الالماني لرسم تلك الكوابيس العالية الدقة والوضوح ومهارة التنفيذ.
في هذه التكنيكات والتصوير للشخوص والاشياء جمع ارنست مادة غزيرة تتكئ دائماً على الحقيقة النفسية والحقيقة الاجتماعية. ان التداخل في تحليل الحقيقتين الكبيرتين: العالم الخارجي والعالم الذاتي الداخلي – كما اسماهما ارنست – كان كنه الثورة عند السرياليين.
اعطت كلمة «ثورة» صوتين واضحين كاملين للسرياليين، الاول: هو الثورة الماركسية ونخص هنا ثورة اكتوبر الاشتراكية السوفيتية في روسيا عام 1917 وهو صوت التغير البنيوي الاجتماعي التام، الثورة البروليتارية وانهاء النظام الرأسمالي، أما الصوت الثاني: فهو صوت الثورة في اسلوب التصرف الاجتماعي وفهم خلجات الانسان ودراسة الذات كما وردت في تجارب وكتابات فرويد.
كان السرياليون جماعة يمكن الانتماء اليها بعد دراسة وفهم عميق لافكارها ولم تكن جماعة تنتمي اليها بمجرد شعورك برغبة في الانتماء اليها. كان تجمعاً، ولكنه تجمع غير اعتيادي، فقد كانت عضويته مركزة مختارة خاصة.

انها جماعة نذرت نفسها على المستوى الاجتماعي والفني وعلى كل المستويات، لاجل الثورة، لكنها لم تنظر الى نفسها أو تتوهم بأنها جماعة سياسية متخصصة أو عاملة في المجال السياسي.
قد يكون اعضاؤها متطرفين أو يساريين فقد كانوا متحمسين جداً في مهاجمة الديانة المسيحية، مثلاً، لكنهم لم يفكروا في تغيير البابا بالعنف يوماً اعتقدوا بأنهم قادرون على الإستمرار في الثورة بأساليبهم الخاصة.
قال ماكس ارنست: «لقد ولدت ومعي شعور قوي جداً بالحاجة للحرية والتحرر، وهذا يعني شعوراً قوياً جداً يدفعني للتمرد، التمرد والثورة ليسا شيئاً واحداً، ولكن، عندما تجد نفسك غارقاً في ذلك الشعور من الحاجة للحرية والحاجة للتمرد، وانك ولدت في زمن فيه حوافز كثيرة جداً تدعوك للتمرد، حوافز تبعث فيك التقزز مما يحدث في العالم. ومن الطبيعي تماماً ان يكون العمل الذي تنتجه ثورياً، ان هذا العالم الخارجي وكذلك العالم الداخلي تعاونا لكي يصنعا مني رساماً ثورياً»*.
لقد اراد أن يبرهن ان سياسة اللاسياسة في الاصلاح الاجتماعي ممكنة.



نحت للفنانة دلال المفتي «نساء جنوب العراق»

جنان جاسم حلاوي
نحت التجربة

شاكر الأنباري

جنان جاسم حلاوي ينهل من تجربة حياتية عميقة شاسعة. هو نمط من البشر الذين يقذفون ارواحهم في اتون الحياة، فيخرجون منه مضرجين بالجروح والحروق الغائرة في القلب والذهن. انه يعيش الحدث اليومي جسدياً ومعنوياً، يواجه بردة فعل عنيفة، ثم يمضي بمواجهته حتى تخوم القطيعة. انه لا يغادر التجربة الا بعد استنفادها، وهو من خلال صيرورة العيش والمواجهة، ينحت دواخله نحتاً قاسياً، متحولاً الى نصل حاد يصعب العبث به. وكل ذلك تجلى بأسلوبه الكتابي، القصصي والشعري، بشكل لا يمكن التغافل عنه، فصارت كلماته، المصقولة الصلدة كالجواهر، وعبارته الألقة، تفاجئ العين، تبيّت الفخ بعد الفخ، لتنخس الذهن المعتاد على الجملة المعلبة، المتوارثة، المتداولة خلال قرون من الكتابة.
كان للاتكاء على تجربة ثرة، وامتلاك الأدوات الكاملة لتصنيع وبلورة تلك التجربة فنيا ودلالياً وشعرياً، اكبر الاثر في ارهاص نص غير مألوف، ابداعي، سواء بآليته الداخلية، من انتقاء كلمات وصياغة جملة وإيحاءات تتوالد من بعضها، او بشكله الخارجي، من دمج الشعر بالقصص وتحطيم سلسلة الزمن وتفتيت المكان.
نصه لوحات انطباعية متوهجة الألوان، متشابكة الخطوط تسقط القارئ بعض الاحيان ببحيرة من الشك واشراقات من الضبابية، فيجد نفسه بعوالم تخمينية شكيّة تنتفي فيها قوانين السبب والنتيجة والعلاقة الخطية بين الاحداث والعبارات والازمان.

الحلاوي يلفع ذهن القارئ ويبرقعه بسيال صوره المتلاحقة: يمتصه، يضيعه بمتاهة ألوانه، يوقظ حساسيته للشعر، فيخرج من النص مشوشاً مربك المنطق مبهور النفس، يفكر بداخله ان قراءته ليست وافية لاستشفاف تيمة النص. وهذا الشعور يتكرر مع القارئ مهما اعاد القراءة. اما نصوصه المتأخرة، فتحيل القارئ الى نفسها فقط، ولا تدفع به خارجاً، ولعل هذه الظاهرة تطوير لقراءة المكان، التي اعتمدها القاص بمجموعته الأولى «عرائس البحر»، وبشيء ما في «ظلال الطيور الهاربة».

* * *

ولد جنان وعاش حتى العشرين من عمره في مدينة البصرة. فتح عينيه على اقنية شط العرب وهي تتلاشى وسط بساتين النخيل، على الزنوج المجلوبين ذات مرة من مجاهل افريقيا وهم يجوبون الزبير والعشار والطويشة والداكير، على اشرعة مراكب وسفن تجارية تمخر الشط مصعدة نحو الخليج، رابطة هذه المدينة السابحة بأبخرة التاريخ بمدن الخليج وجزائر افريقيا ومتاهات الهند.

ترتسم له البصرة شوارع متضوعة بالبهارات والهيل وعطور النساء المستخلصة من ورود عمان وأشجار سقطرة واعشاب نيودلهي، وحجاجاً ومسافرين وغزاة واقطاعيين وجنود سيخ لحاهم مسدودة على الذقون وحكايات بحارة سافروا ولم يعودوا، تاركين خلفهم امواجاً من الأحزان والتوقعات.

البصرة قصور شامخة يظللها نخيل، ومعارك لما تزل قرقعة سيوفها وبارود حرائقها وجلبة فرسانها وجنودها، مترددة في الأزقة والحارات والزوايا، تبين لعين المتأمل على اعمدة القصور والأسقف والمشربيات وبلاطات الأفناء المتوارية خلف دُل الشناشيل.

ان اجواءً غرائبية، رجراجة، وشخوصاً قلقة ملسوعة بسياط المغامرة والبعاد، قد حكمت على القاص ان يتعامل معها فنياً، بطرق واساليب لامألوفة: ينتفي الوصف التقليدي وحبكة الأحداث، ينتفي الجريان الزمني المتناسق، المندفع من الماضي الى الحاضر صعداً نحو المستقبل، وتصبح القصة، او النص، مجموع مسارات دائرية متوازية متقاطعة متعاكسة، لشخصيات تسبح في دوامة الوجود، زمنها لا يعدو ان يكون كتلة من الريش متماوجة تتقاذفها ريح امكنة عجيبة. بهذا النمط من الكتابة بدأ القاص بمجموعته الأولى عرائس البحر، وظل ملازماً له حتى زمن تحولاته الذي راح بدفع بأشرعته قليلاً قليلاً، من جغرافية القصة الى بحر الشعر.

* * *

مجموعة عرائس البحر صدرت عن وزارة الثقافة العراقية عام ١٩٨١. تتحرك

قصصها بخضم المكان المسمى البصرة، الغني بحوامله التراثية والتاريخية، المتشكل عبر الحقب بفسيفسائية فذة لا تمتلكها سوى المدن الموانئ، ذوات التركيبة الأثنية المتنوعة والثقافات المتزاوجة.
قصة السلحفاة العاجية تحكي عن بحار غاب طويلاً في البحار، وقادته سفراته الى الأرخبيلات والمدن طمعاً بالثروة والمغامرة. يعود الى البصرة بليلة حالكة بحثاً عن عائلته المتألفة من الزوجة والأبن. يتوه في الأزقة، يتذكر تفاصيلها، يقرأ آثار الزمن على الأبواب والشناشيل والوجوه. يقع اخيراً على مكان سكناه لكنه يفاجأ بغياب عائلته ويعثر بدلاً منها على عائلة غريبة يقضي الليل معها، راوياً لطفلهم الصغير قصة مغامراته ومشاهداته في البحار الجنوبية: عجائب افريقيا، مآسي السفن، عواصف البحار التي لا تهدأ، ومخلوقات الأرض الخرافية التي تبرز للنوتية اثناء الليل وتعكر صفوفهم. وحين يطلع الصباح، يودع الرجل العائلة ويهدي للطفل سلحفاة عاجية كان قد جلبها لابنه من احد السواحل، ثم يفارقهم ليضل مرة آخر بأزقة البصرة تائهاً وراء حلم اللقاء.
جنان في هذه القصة، كما في اغلب المجموعة: جسر الغربان، أيام كالشجر، الذئاب... الخ، يجلو المكان بعدسته الدقيقة النافذة الى العمق وشخصياته الراحلة الباحثة عن وهم أو حلم، والتي يتعذر ايجاد الفواصل بينها وبين ذلك المكان. فهي تتذكره، تتماهى به، تنسحر بحوامله وطلسماته، يصير ذرة من طينتها الارضية. كذلك، فان المكان يتأنسن لدرجة لا نستطيع فيها انتزاعه عن المخلوقات البشرية المتأرجحة في ثناياه. حيث يتيسر لنا مرافقة الحدث عبر مدلولات تتمرأى على سطح بلاطة عتيقة صبت ايام المماليك او عمود شيده الضباط الانكليز أو صارية خشبها من غابات السودان.
وجنان الذي عاش طفولته وشبابه بظل أب طاغية، وهو انموذج العائلة الشرقية، وأم مسحوقة الشخصية، امرأة ذات اصل قروي من الاهوار، صار المكان لديه منفذ الحرية الوحيد، يرى من خلاله الجميل ويسمع الساحر، حكايات البحارة، اخبار الشخصيات الهامشية في المجتمع البصري، آثار المماليك والانكليز والاقطاعيين، غرائب النساء من حجامات وماشطات وقابلات وساحرات وعاهرات كن ، بأرواحهن المنغلقة، احدى خصوصيات مدينته.
وادخال مشاهدات الطفولة الى قصصه، بقدر ما يؤكد اصالته وفرادته ككاتب، بقدر ما يشيد لنفسه، في الوقت عينه، هوية شخصية تخرجها عن اطار العائلة وتحيلها الى عائلة أوسع، اكثر جمالاً وامتاعاً، الا وهي عائلة المدينة، حيث لا أباً طاغية يحد الخيال والرغبات ويشتت مسارات الحرية، انما فضاء رحب يشكله ويتشكل به.

المكان الملاذ، وخشبة النجاة في لجة العلائق البشرية وفظاظتها.

* * *

العام ١٩٧٤.
يغادر جنان محيطه الأسري ومدينته البصرة.
يدخل الجامعة المنتشرة بأقصى الشمال في محيط مختلفٍ وبيئة اثنية أخرى هي الكردية. يزداد التناقض بينه وبين مجتمعه، وروحه توجه البوصلة نحو عالم الأدب.
نراه يستلهم كل ما تقع عليه يداه: وجودية، ماركسية، تراث، روايات مترجمة، حيث تتسع الهوة بينه وبين متطلبات محيطه: ابوه يطمح ان يراه مهندساً جالساً على طاولة انيقة بمكتب انيق، السلطة تريده جزءاً من آلتها، التقاليد تنخره ليتبع طقوسها، وروحه الفائرة تشده الى فضاء الحرية المصاغ عبر رحلة الخيال والقراءات والتأمل.
تلك المعادلات حدت به الى اتخاذ قراره الذي سوف يحدد مصيره حتى اللحظة الاخيرة من حياته، فكان ان ادار ظهره للدراسة الأكاديمية وقذف نفسه الى لجة القص: ينحت افقه الشخصي، يبحث وينقب عن الكلمة المدهشة والجملة اللامعة، يخلخل قناعات الآخرين ورزانتهم: يقتحم الجامعة متأبطاً رزمة كتبه الأدبية، مرتدياً حذاءه الموحل المشدود بخيوط من الجوت، يقف وسط كافتريا الجامعة يتمخط بصوت عال امام الفتيات الانيقات المطليات بالحمرة من القدم حتى اهداب العيون، يجلس على الأرصفة مع جريدة شيوعية، يرافق حوذياً، خلال تجواله بعربته الخشبية وحصانه الرهوان، بجولة في الشوارع مروراً بباب الجامعة وسط العيون الباكية دهشة، يسرق الكتب من بائع اعور يبتكر اغرب الوسائل لخداعه ثم ينشر حوله موجة خوف وتفاد وصعلكة كفارس جاهلي هزمته صحراء القبيلة.
كان جنان ينقب عن دفء بشري، عن شفافية حميمية، فألفى البشر محكومين بقوانين واقع مدجل، مدع، ضائعة في حمأة سطوته. اي فردية خلاقة مبدعة!
يتلفت حوله فتقع عيناه على تقاليد متحجرة وسلطة غاشمة ومخبرين واستعراضات ثقافية ومؤسسات نشر مخصية يتربع على عروشها حفنة من المدعين والفارغين. وكان المكان الذي عاش بكنفه ذات يوم، بما منحه من وهج جميل وحكايات لذيذة ورائحة فريدة ومرئيات تستلب القلب لمتاهة السنين، هو القطب الوحيد، الحي، النابض، النامي، المزهر دوماً في معادلة وجوده. ومع ان قصص عرائس البحر لا تخلو من الشخصيات أو الاحداث المتحركة، الا انها تكاد تشحب حد الاختفاء وسط غليان الوصف الدقيق المبني عليه هيكل القص.
في الوصف يستعير جنان اجنحة الحرية الباذخة ويتألق بسماوات حلمية،

متصوفة وجودها وجود ثان لا يمت الى هذا العالم.
انسان قصصه، به شبيه، ينفذ الى الشعيرات الدبقة الغائرة بحيزوم سفينة أو الى الحروف البارزة بنقشة عثمانية عاصرت مدحت باشا، أو نحت محزز على عارضة خشبية تحمل سقفاً لجسر منصوب على شط العرب، أو تخريم قرط امرأة موروث عن اسلاب الزنج.
انسان القصص حلم الكاتب ومخلوقه، رائم الى الغموض وراء ما هو مألوف وعابر. انه ككاتب، وفي مجموعته عرائس البحر، خلاصة لأنماط الكتابة الحديثة من واقعية سحرية وغرائبية وعبث وتشييء الانسان وانسنة الأشياء.
وفي هو لجان جينيه وفرجينيا وولف ومحمد خضير وبروست وفولكنر، ومن الشغوفين حد الهوس بالكاتب الامريكي ادغار الن بو. طوّع مادته الأولية وصبها بقالب لغوي ساحر، كان لشغفه بالنحو والبيان، التراثي خصوصاً، الدور الهائل لبلوغ ذلك.
جملته تمثال منحوث بدراية ومهارة.

* * *

حين ودع جنان جاسم حلاوي حياة الجامعة من دراسات هندسية ومحاضرات والتزام بالوقت وقيم طلابية سانجة، حمل جموحه وتمرده لينغمر بأجواء بغداد، مطارداً من شرطة خدمة العلم وجواسيس السلطة ونقمة ابيه التي ما برحت تروعه مثل شبح هاملت.
وبغداد قبل حروبها تغلي مثل بركان: حريات ضيقة، كتب ممنوعة، مظاهرات صاخبة تنظمها اجهزة الأمن، وغابة ثقافية يتبارى قطنتها على كسب ولاء السلطة.
اصبح الوطن ضيقاً، علبة ضاغطة، قبراً للرغبات.
اصبحت الأيام مكررة متشابهة والوجوه عدائية تستفز المشاعر والأحاسيس.
فجاء هاجس الهروب على هيئة موجة عارمة تتصاعد في الروح، تتعمق آناً بعد آن. كان جنان يحلم بمدن الضوء والحرية، بالشواطئ الرملية الوادعة، بمغامرات قرأ عنها ذات مرة في روايات ارنست همنغواي واكسوبري واندرية مالرو وكولن ولسن. تشعشع له سوهو في الآفاق وتناديه بلياليها الخمرية المعبأة بالجنس.
بيروت، دمشق، لندن، ساحل العاج، «نساء» افنيون، «حقول» فان كوخ، اعمدة روما، اسماء كانت لجنان رموزاً للرغبة والإنفلات.
وهيئ له ان يدس مجموعته «عرائس البحر» بين يدي لجنة النشر بطرق ملتوية ووساطات، تفادياً من الوقوع على حقيقته المناوئة الناقمة، المتوعدة للسائد، أكان ثقافياً أو سياسياً أو اخلاقياً.
عرائس البحر قطعة من القلب، اهداها الكاتب لمدينته، لتظل تتذكره عبرها

طوال اعوام الغربة التي كان يحدسها منذ ذلك الحين.
قصصه ولحد هذه الفترة ظلت صدى لواقع مانح، صلد القشرة. لم يتيسر له ملامسته بصورة مباشرة. لذا فهو لم يكتسب حجمه ككاتب يمتلك من الامكانيات الكبير بكثير من ايحاءات قصصه اذ نلمس بها ضيق النفس من تردد في ملامسة اعماق الشخصية واختلال واضح بعض الأحيان بين ما هو بشري وما هو مكاني.
مهارة الكاتب كانت حبيسة الجو الثقافي الضيق الذي ساد العراق تلك المرحلة.

* * *

مع الحرب جاءت الاطلالة الكاملة للقاص على قاع المجتمع وانسانه البسيط المسحوق الغارق بالميثولوجيا الدينية والطقوسية
المتوارثة جيلاً بعد جيل.
فبعد ان تأطر الوطن بجبروت المعركة وبمطال القتال، التحق جنان بالجيش اثر عفو عن الهاربين والمتخلفين، لا قناعة بالحرب، لا انتصاراً لدموية آلتها الرهيبة، ولكن لانغلاق منافذ الدنيا وكثافة العسكرة. لم يبق مهرب من فيضاناتها.
قُرعت الطبول واندفع الوحش الكامن في الانسان ليمد رأسه الأشعث.
تجربة الحرب كانت من التجارب العميقة المخلخلة لوعي جنان وحساسيته تجاه الآخرين والكون وماهية الموت. اختزن تفاصيلها اليومية ومآسيها في ضميره، كي يفجرها، بعد سنوات، قصصاً تدين وتفضح، وترفع لواء التمرد على الحرب ومفاهيمها ومُثلها المفبركة بعقول رجال السلطة وتجار السلاح ومخلفات القبائل.
كانت مجموعة «ظلال الطيور الهاربة»، التي صدرت بعد اكثر من سبع سنوات عن وزارة الثقافة السورية، بعد ان فقد القاص امل خروجها الى النور، كانت سفر تلك التجربة ووثيقة فنية سجلت مرارتها.
الحرب التي عشناها عبر القصص تتباين كلية عن الحرب التي رووها لنا بوسائل الإعلام. تختلف عما شاهدناه من انتصارات وفتوح ومدن وهزائم دبابات. اختلافها آت من انها وجهة نظر فنان تقف ضد الموت والتشوهات الروحية، لا تزيّف المشاعر ولا تغيّب حقائق الحياة. وجدنا ابن آدم فيها عارياً، عارياً من الادلجة، عارياً من ادعاءاته، عارياً من اقنعته. هو وغريزته فقط، غريزة الحفاظ على الكينونة بمواجهة التحلل والموت والزوال.
عبر القصص عشنا التفاصيل اليومية للحرب: الطبيعة الجميلة في الأهوار حين تتحول الى فخاخ قنابل ومتفجرات كيمياوية واشراك كهربائية، تفتك بمعدن الأرض من بشر وحيوان ونبات: صرخات الرعب المنطلقة من جوف

بشري، مزقته شظية بلا هوية، وهي تحتج على ذلك الصمت الثقيل: مشاهد الطيور وهي تتهاوى حريقاً عن سماء زرقاء مخاوتة المشاعر المنيلة والخيالات الوارفة: سواتر تنهار لتدفن بشرها بين طياتها والى الأبد. عواطف، شجون، شجاعة، جبن، ثم اخيراً، هزائم الكائن البشري امام طقوس نجة يصنعها بنفسه ثم يكون اول ضحاياها. حدثنا القاص عن شخصيات مفعمة الحساسية، تحولت صدورها الى منابع حنين ريفي، فشاهدنا الجندي وهو يقتحم النهر بعد عودته من الاجازة طلباً للتطهير، الذي يبحث عنه بخطوط محارة او ارتعاشة بزاقة او ملمس حرير الاشنة في القاع.
انه الارتداد الى اصل الحياة ومنبعها.
رأينا الجندي التائه وسط الهور، حيث قصبه ومموّاته المائية جدران مصلدة تطبق عليه، كما لو كانت جدران الحرب نفسها.
أما قصة «ماذا بوسع العشاق ان يفعلوا في زمن الحرب» فهي تجسّد مُثل الحرب بكل وضوح: جندي يعود من الجبهة الى غرفته، آملاً بلقاء حبيبته، الا انه يكتشف من صاحب البيت ان فتاته هاجرت مع اهلها الى جهة غير معلومة بسبب القصف. ويخبره ايضاً انها كانت تتردد على غرفته علّها تجده صدفة، عندئذ يعي الجندي حجم الكارثة، ويسقط في تأمل عميق يقوده الى القناعة بعبثية ما يدور، وبرفض الحرب باعتبارها فقدان الحبيب، وانقطاعاً عن الماضي، وسحقاً للأحاسيس، وموتاً مجانياً، فيخرج من الغرفة ممتلئاً بقرار الهروب والوقوف ضدها بأي ثمن.
شخصيات القصص لا تناقش ظروف حياتها فلسفياً، ولا تؤطر افكاراً معينة. شخصيات حسية، فاعلة، تضمر اكثر مما تظهر، تصل دوماً الى طريق مغلق، الا وهو طريق الحرب. شعارها المستشف من خلال سيرورة الأحداث: اذا لم تستطع الغاء الحرب من حولك فالغها من داخلك على الأقل. وربما يكون الشعار شعار الكاتب نفسه، الدي قرر الغاءها مثل بطلة في قصصه «ماذا بوسع العشاق ان يفعلوا»، من نفسه اولاً، ومن ثم موضوعياً، بإزالة النظام المنتج لها.
هكذا حدث انتقال القاص الى صفوف المتمردين على النظام، الثائرين على ملابسات حقبة كاملة على الزمن مكلكلة على العراق.
هكذا زج جنان نفسه مع الفصائل المسلحة المتمترسة في الجبال، في حقبة كانت الآمال فيها شاسعة والقلوب متوهجة بانتصار قريب يضع حداً للماساة.
ان مجموعة «ظلال الطيور الهاربة» ملتصقة بالانسان واحلامه وغرائزه واشواق روحه المهلهلة اكثر بكثير من مجموعة «عرائس البحر».
الكائن البشري ذو حضور فاعل يقود القص حتى النهاية. تهمش المكان فيها

لدرجة غيبوبته احياناً. والقصد من المكان هنا، تفاصيله الصغيرة ومؤثراته الروحية على الشخصية. ولعل زمن كتابة هذه المجموعة، المتأخرة عن المعيشة بضع سنين، واعتماد القاص على ذاكرته، وتغير األجواء الحياتية والجغرافية للكاتب، هو ما شبّح المكان ودفع به الى هلاميته الأميبية غير الحادة التقاطيع.
الجملة الشعرية راحت ترقش النص القصصي دون مقدمات.
الحدث يتشظى، يقمع، يحرف عن مساره، كل ذلك يتم بأرادة فاعلة رافعتها نثر جميل يتطاول على الرزانة والمألوفية في اللغة.

* * *

كان لخروج جنان جاسم حلاوي من وطنه اثر هائل في نضوجه الفني. فالمعاناة التي استنفدها وتركها وراءه محصلة ناجزة يستطيع تأملها عن بعد: يفلي حيثياتها، اخفاقاتها، انغلاقها وشساعتها، ما يفيد كي يصير عجينة فنية وما هو زبد يلاشيه الزمن سنة بعد سنة.
يفارق علبة الوطن وتقوده سلاسل النفي الى جغرافية العالم بما تحتويه من طبيعة وبشر وعادات وقساوات. فمنذ الآن، عليه ان يجعل من نفسه معيار هذه الحياة وبؤرتها، كما الطفل خارجاً من الرحم الى غابة الوجود.
علمته الجبال اسرار الطبيعة وعنفها وجمالها وحريتها، علمته سر مواجهة الموت عيناً بعين، التجربة التي سيخوضها في لبنان لاحقاً، لكن بعد ان اصبح انساناً آخر بالتأكيد.
في الجبال ظن جنان انه واجد الحل واستغرق منه الأمر اكثر من سنتين ليجد ان الثياب كلها ضيقة عليه، عدا ثوب الحرية المنسوج عبر القراءة والكتابة والمغامرة داخل الروح والعالم.
فاستحكمت القطيعة ثانية وحق الهروب: هروب في المكان، في حكايات جده السندباد، في الروح، في اوهام هذا العالم غير المفهوم، حمله السفر الى سوريا ومن ثم الى لبنان، بعد ذلك، وولدت مجموعة «غادرني نيوتن والوقت غروب». بمناخاتها الحافلة بالتشرد، بالغربة وما يتمخض عنها من وقتية العلائق البشرية وسرعة تواري الحارات والمدن والهدفية الطاغية على الساعات ومصارعة المحيط بكوابحه وممنوعاته وعاداته.
يقرر جنان على لسان بطل قصة «بيتي فوق مغارة» قائلاً: كثيراً ما تشردت، ونمت على الأرصفة، وافترشت الأفياء في الحدائق، والزوايا في حنايا الطرقات وحجرات البيوت المهجورة.
تشرده ليس رغبة بالتشرد، مع ما يمنحه من عمق التجربة وملامسة القاع وايقاظ الحساسية الفنية والجمالية، انما هو نكاية وخروج على قواعد اللعبة السمجة، المملة، المجهضة للأبداع والفرادة.
ان المأساة الوجودية للكاتب، او لأبطال قصصه، لا فرق، هي الصراع العنيف

بين شخصيته كفنان يدوّن سجل هذه اللحظة من التاريخ بصدق وانسانية، وبين كينونته كانسان ضمن قطيع بشري ينبغي عليه توفير مكان للعيش والارتزاق، بين العيش في عالم المثل وبين العزف على اوتار العامة بنغماتها المؤلفة من قيم متخلفة لمجتمع سادر بعرائس طقوسه المتحجرة.
يستطيع بطل جنان، المشرد، الزواج وخلق وحدة أسرية يمارس بكنفها دورة الخليقة وما تشمله من ممارسة جنس وبحث عن كنبة جيدة وتسوق وثراء ورياش وما الى ذلك، الا انه يستبعد احتمالاً كهذا، لانه وببساطة، وحسب منجم خبرته، سيؤدي به الى ان يكون جزءاً من القطيع. القطيع مشعل الحروب، مشوه الانسان، وجدب كل حي جميل.
مجموعة «غادرني نيوتن والوقت غروب» تكاد تكون قصة واحدة رغم تباين العناوين والاجواء، قصة الفرادة في فوضى ثقافة القطيع: قصة مجتمع غرائبي موشح بالعنف والرموز والشك، الذي تنتظمه قوة جبارة منسوجة من اللامعقول والتهور: قصة البحث عن موطئ ثابت وسط عالم اخطبوطي يأكل بعضه.
مهما حاولت الشخصيات التآلف مع تلك الصفات، فهي، لا محالة، ستكون الضحية لاحقاً. انه الضياع في العالم الوحشي ذي الدروب العجيبة: درب الحرب، درب النفي، درب الوحدة العارية التي تعضها الجدران وجهاً وقفى، درب الخيالات المرضية والأحلام الكسيرة. ولا خلاص يلوح بالأفق، وليس ثمة نقطة ضوء، وان تبدى شعاع صغير، فسرعان ما تبلعه لجب الظلام. وفي هذه الظلمة المكلكلة نرى انسان القصص يجرب كل الحلول، مهما شذت وتباينت: يمارس السحر، يطير الى كوكب آخر، يمسك بامرأة الخيال، يعود الى الماضي باحثاً عن جذوة قدره، يستغفل الاخرين محولاً موتهم الى بضاعة رابحة، ثم في الختام ينتهي الى نقطة البداية: يلغي جسده خلف القضبان، تطارده اشباح الغرف، يعصف به مطر الرعب هذا الذي يلبس قفازين اسودين كالهستيريا، لينشد مرنماً في متاهة البياض المطلق:
سننتهي هنا كلنا ذات يوم
سماء بيضاء... وارض بيضاء
وزمن واحد....
من غير ان ندري الى اين، ولماذا، وكيف؟

إبراهيم جلال والتعلم من الطبيعة

لطيف حسن

سبق للفنان الكبير ابراهيم جلال (١٩٢٤-١٩٩١) عندما كان يعمل في دول الخليج، ان طلب في احدى رسائله الى زميل دربه يوسف العاني ان لا يبكيه بعد موته. لا عجب، فالموت عند ابراهيم جلال مجرد استمرار، وحياته، كما كان يؤكد في كل مناسبة، ازلية ومتجددة، ترفض كل صيغ التوقف والتلاشي، كان كأي مبدع لا يقف عند حدود، يكبر في كل لحظة، لم يكن يقنع بأي عمل مسرحي تام سواء انتهى من تقديمه هو، أو قدمه الآخرون، فتصوره للعمل لا ينتهي عند أفق، وحتى عندما يصل بعمله الى العرض، فأنه يتجاوزه في كل يوم جديد، يضيف اليه في كل مرة شيئاً. ويعدل احياناً، فليس من السهل على الممثل الذي يعمل معه ان يفهم أو يستوعب كل ما يريد، فهو نفسه لا يدري ما يريده على وجه الدقة، لأنه يرى حالة الصيرورة المتواصلة في الصورة، في اللاشعور، ويفترض ان كل من حوله يشاركه رؤياه.

ولد ابراهيم جلال في الاعظمية عام ١٩٢٤، ابناً لمحمود جلال المحامي، احد أعيان بغداد الذي تقلد عدداً من المناصب الحكومية في مختلف انحاء العراق. وقد استقر في فترة طفولة ابراهيم متصرفاً للواء الحلة.

في تلك الفترة، كان الطالب الصغير ابراهيم يقوم في دروس المحادثة بتقليد اصوات الحيوانات والطيور، ويقدم المقاطع الخطابية، ويساهم في الحواريات الصفية. وكان اشتراكه المتميز في هذه النشاطات، يأتي محفزاً برغبة والده الذي كان يشجعه عليها، وبمطالبات معلميه في المدرسة.

في عام ١٩٣٠ زارت مدينة الحلة «فرقة حقي الشبلي» لعرض احدى مسرحياته في مقهى من مقاهي المدينة بعد تحويلها الى مسرح بسيط باستخدام حصران البردي. وجرى ترويج للمسرحية في المدينة عن طريق استخدام مناد يدعى عباس حلاوي، يدور في الشوارع بعربة ومعه اشخاص

بملابس ملونة غريبة، يقومون بحركات ضاحكة على انغام موسيقى الافراح والاعراس الشعبية. انبهر الطفل بهذه الزيارة العجائبية، وتعرف على سحر المسرح لأول مرة عندما رافق والده الذي دعي لليلة الافتتاح بصفته احد الشخصيات البارزة في المدينة. وبتشجيع من والده المعجب الأول بمواهب ابراهيم، شارك مع الشبلي في العروض التالية ضمن مجموعة الاطفال الذين يرمون «مجنون ليلى» لشوقي بالحجارة.

في فترة الفتوة، كان ابراهيم جلال يصرف طاقته النشيطة في بعض الممارسات الرياضية الشائعة بين الشباب آنذاك، فاصبح بطلاً في الالعاب، وبرز في ألعاب الساحة والميدان فكانت له ارقام قياسية في مجال الركض ورمي القرص والقفز العريض.

بعد عودة حقي الشبلي من باريس عام ١٩٣٩، انتقل ابراهيم جلال الى بغداد، وكان في الصف الخامس الثانوي عندما اشترك بدور العاشق في مسرحية «فتح الاندلس» من اخراج الشبلي.

في سنة ١٩٤٠، فتح حقي الشبلي قسم المسرح في معهد الفنون الجميلة، المؤسس عام ١٩٣٦ بفرع الموسيقى فقط، وكان ابراهيم جلال من المنتسبين الى دورته الاولى. وفي المعهد أخذ يؤدي الأدوار الرئيسية الاولى في المسرحيات التي كان يخرجها الشبلي لما كان يتمتع به من مواصفات ايام زمان للبطل المسرحي الاول: توفر الرشاقة والوسامة وجمال الشكل.

برز اسم ابراهيم جلال، وكتبت عنه الصحف بأعجاب، وتنبأت له بمستقبل فني حافل عندما افتتحت قاعة الملك فيصل الثاني بمسرحية «شهداء الوطنية» للشبلي، ولعب دور البطولة فيها ابراهيم جلال.

بعد تخرجه، كان لأسم ابراهيم جلال دويه، فاشترك مع استاذه في أول فيلم عراقي – مصري مشترك (القاهرة – بغداد) ١٩٤٦، اخراج بدرخان، ثم فيلم «ليلى في العراق». ومثل بطولة أول فيلم عراقي «عليا وعصام» عام ١٩٤٧، اخراج الفرنسي شوقان.

واصل ابراهيم جلال مع زملائه من دورة المسرح الأولى نشاطه في مجال المسرح بعد التخرج في «الفرقة الشعبية للتمثيل» التي اسسها كريم هادي الحميد وعبد القادر ولي في اول انعطافة له عن منهج استاذه الشبلي.في عام ١٩٤٩ حل محل حقي الشبلي كمساعد لعميد المعهد ورئيس قسم المسرح في معهد الفنون الجميلة.وتعتبر سنة ١٩٥١ سنة عمل خصبة لابراهيم جلال، وبداية لنشاطه الابداعي المميز، حيث اسس مع ابرز تلاميذه في قسم المسرح من الذين تعاون معهم في جماعة جبر الخواطر «فرقة المسرح الحديث». وبذلك يفترق تماماً عن منهج حقي الشبلي، ويبتعد كلياً عن طريقة استاذه في العمل، لم يؤثر هذا الافتراق على علاقة ابراهيم جلال التلميذ ابداً بأستاذه

ومعلمه الأول الشبلي، وظل وفياً للأخلاق التي ارساها عنده في تقديس المسرح واحترام رجاله، وكان يحرص في كل لقاء بعد غيبة طويلة عن الشبلي ان يهرع الى تقبيل يده امام الجميع.

في عام ١٩٥٢، وبعد فترة وجيزة من تأسيس «فرقة المسرح الحديث» سافر ابراهيم جلال الى ايطاليا في بعثة دراسية. درس في «معهد السينما التجريبي الحكومي» على يد دي سيكا و روسليني وفي المعهد اخرج على اساس سيناريو مسرحية «تؤمر بك» للعاني فلماً سينمائياً قصيراً بأسم الباب).

في عام ١٩٥٤ عاد الى بغداد محملاً بجديد اوربا بعد الحرب: «الواقعية الجديدة» التي تركت بصماتها على فيلم «سعيد أفندي» عام ١٩٥٦ فقد شارك فيه كمساعد مخرج مع مجموعة طموحة، جلهم من تلاميذه واعضاء فرقته، منهم كامران حسني المخرج ويوسف العاني الذي قاد «فرقة المسرح الحديث» في فترة غيابه في ايطاليا.

وفي المسرح، قدم بعد عودته «ست دراهم» للعاني كعمل ريادي حاول فيه كسر المألوف المتبع آنذاك، فبدلاً من ان يكون وسط المسرح اقوى منطقة، حولها الى منطقة مهملة مستخدماً الانارة لشطر المسرح الى مكانين منفصلين، أي تقديم مشهدين على المسرح في آن واحد.

وأخرج ايضاً في نفس العام «أغنية التم» لتشيخوف، مستخدماً لأول مرة الرمز والتجريد في الديكور الذي صممه الفنان الكبير جواد سليم. كان المسرح عارياً من كل شيء عدا عجلة مركونة الى جانب تمثال جبس ليد مرفوعة الى الاعلى، وسلم مسند الى الحائط. كان هذا الشكل في وقتها خروجاً على ما كان سائداً من تقاليد بناء الديكورات الثقيلة، ومحاولة لتثبيت قيم جديدة في الشكل تعتمد البساطة والاقتصاد في التفاصيل مع غنى في التعبير.

في عام ١٩٥٩ سافر مجدداً الى الولايات المتحدة لمواصلة الدراسة، وعاد الى بغداد في شباط ١٩٦٣ بعد ان انهى دراسته العليا، كانت الفاشية في العراق تفتك بوحشية بكل ما هو خير وشريف، وتمارس البطش الدموي ضد خيرة مثقفي البلد ورموزه. وكان ايضاً لاعضاء فرقته حصة من هذا البطش، اذ تعرض معظمهم الى السجن والتوقيف والتنكيل والمطاردة والطرد من العمل بعد ان ألغيت اجازة عمل الفرقة وصودرت ممتلكاتها.

وكان موقفه آنذاك شجاعاً في اعادة لم شمل اعضاء الفرقة والظهور بهم مجدداً في فرقة جديدة لم يتهيب ان يعلن انها امتداد لفرقته السابقة ومواصلة لنهجها.

في سنة ١٩٦٣ عرفت ابراهيم جلال عن قرب، بعد ان جعلتني مسرحيته

«اني أملك يا شاكر» ١٩٥٨ والتي شاهدتها وانا طفل اعشق المسرح، وانتمي بعد سنتين من تاريخ عرضها الأول الى «فرقة المسرح الحديث». وكان ابراهيم جلال في ذلك الحين يدرس في امريكا، وواصلت مع الفرقة المسيرة حتى تاريخ اضطراري لترك العراق.

كان متواضعاً، مليئاً بالمرح الطفولي، الذي يجعله الأقرب الى القلب، ومن منا ينسى ضجيجه وحيوته، وضحكته العالية المميزة التي كان يملأ بها المكان، سواء في البيت أو قاعة التدريس أو المسرح.

يعاب على ابراهيم جلال في المسرح البطء في حفظ الحوار وكثرة النسيان، لا سيما في السنوات الاخيرة، الا انه ظل محافظاً على لياقته وحضوره المتميز على خشبة المسرح، فقلما رأيت ممثلاً يتمتع بهذا الكم من القدرة على التوازن والانسيابية والخفة في الحركة.

يسجل ابراهيم جلال تصوره عن الفن وفن المسرح في منهاج مسرحية «كليوباترا» ١٩٦٤: «الفن تقليد الطبيعة ومحاكاتها، وغرضه اثارة الفكر والوجدان، العقل أو العاطفة، اثارة العقل لتنويره، واثارة العاطفة لتنقيتها وتصفيتها، انت مدعو ايها المشاهد لترى وتحكم، لتفكر وتنقد لا لتُسحر وتغفو اغفاءة المنوم مغناطيسياً بسحر الايهام الواقعي الذي يعرض امامك. انت في مسرح (....) وفن المسرح تقليد للطبيعة، ومحاكاة للواقع وليس الطبيعة كما هي، ولا الواقع كما هو منقولاً طبقاً واصلاً، انما الذي يعرض امام عينيك وبصيرتك هو من صنع العقل يعالج به الكاتب فكرة، ويفسرها المخرج بوسائل الفن المسرحي لكي يجعلك تعقل عما يحدث، لتشارك الحقيقة الراسخة بعين مبصرة وليس بعدسة مصور».

وفي آخر لقاء اجرته معه صحيفة «الثورة» يشير الى اهمية حركة الحياة وما يحيطها التي زادته وعياً واقعياً وأدراكاً للفعل وقيمته التغييرية. ويذكر ان ذاكرته ومطالعاته وتراكم الخبرة الفنية كانت لها الاثر الكبير في بنائه كانسان قريب من الطبيعة، الطبيعة كما يفهمها في حركتها وهارمونيتها. فهو ضد كل من يقف امام وجه هذه الحركة بهدف التعويق وارجاع أو تجاوز الزمن، ويدعو الى الانسجام مع الحياة والتلاؤم في صيرورتها، وهو مقتنع ان كل شيء يتغير في آخر المطاف نحو الافضل لانه قانون في الطبيعة، وما هو مشوه من ظواهر نصطدم بها يومياً ما هي الا عوارض طارئة سرعان ما تسحقها عجلة ديالكتيك الطبيعة، وتصفو الامور في النهاية لصالح الانسجام والتناسق في الحياة.

ومن المؤسف ان يترك ابراهيم جلال فرقته عام ١٩٧١، اثر خلاف بينه وبين الهيئة الادارية، اخذ منحى آخر لا علاقة له بالدافع الاساسي الذي هو التمرد الدائم عند ابراهيم جلال على الساكن والجامد والمألوف، التمرد حتى على

قواعد ونظام الفرقة. فبعد عودته من امريكا ظل يؤكد على رؤيته الجمالية التي توصل اليها، وهو التجانس الميكانيكي بين المتناقضات. هذا التجانس كما يراه لا يخلو من الصراع، الا ان الغلبة حتمية لصالح التجانس. هكذا كان يفهم الديالكتيك، ومن هذا المنطلق يدعو الى تفسير المسرح الذي هو عنده شكل ومنهج مع مضمون نسبي متغير. في هذه النقطة كان يتقاطع مع الفهم الجاهز والسائد آنذاك في الفرقة والذي كان من انصاره يوسف العاني وآخرون على ان لا فصل بين الشكل والمضمون والمنهج وان وحدة هذا الثلاثي هي وحدة مقدسة. وفي المسرح الملحمي بالتحديد كان الخلاف، حيث لا فصل بين المضمون الطبقي والسياسي وبين الشكل حسب التفسير الماركسي، على عكس رؤية ابراهيم جلال التي تؤكد على تجانس المتناقضات التي يلعب فيها الانسان دوراً مميزاً، اما التجانس الميكانيكي الطبيعي فهو الحاسم.

بقي ابراهيم جلال طيلة حياته الحافلة، فناناً ديمقراطياً وتقدمياً، كان الملكيون يتهمونه بالشيوعية، والشيوعيون يرون فيه محافظاً نوعاً ما، وهو الرجل الديمقراطي الذي لم ينتم الى حزب محدد، حتى اشتدت عليه ضغوط السلطة في حملة تأطير المجتمع، فاضطر بعد عناد طويل الى التوقيع على استمارة انتماء لحزبها، فتأزم بعدها، مما دفعه لترك العراق فترة قضاها في الخليج. ثم عاد وعندما سأله احد الاصدقاء عن السبب الذي دفعه للتوقيع على الاستمارة ما دام هو غير مقتنع، كما كان يصرح ساخراً في كل مكان، اجابه بطريقته المرحة «مجبر آخاك.. نفس السبب الذي اضطر غاليلو للتنصل عن افكاره، مع ذلك يا صديقي فالشمس تدور» في اشارة له الى ان سقطة غاليلو غاليلي في محاكم التفتيش لم تغير الحقيقة القائمة، ولا قتلت افكاره التي ظلت حية من بعده.

ظل ابراهيم جلال متوهجاً طوال حياته، مثّلَ واخرج للمسرح والسينما والتلفزيون والاذاعة، وشارك في العديد من المؤتمرات العربية والدولية، وحصل على جوائز تقديرية رفيعة، وتوج في قرطاج عام ١٩٨٧ كواحد من المبدعين العرب في المسرح اضاف وقدم الكثير للحركة المسرحية العراقية والعربية. ورغم المرض الذي اثقل عليه، بقي نشطاً لا يعرف السكون حتى اللحظة الاخيرة. وغادرنا في الوقت الذي كان آخر اعماله يقدّم على خشبة المسرح.

ان اسهامة ابراهيم جلال، وجيله من الرواد، كبيرة ومهمة في سفر تراث المسرح العراقي. وسيبقى علماً بارزاً في طريق مسرحنا الذي قطعه جيل ابراهيم جلال، وفتحه امام تلاميذه من بعده للتنوع والاغناء.

كوبنهاكن

ثلاثة في التجربة القصصية

قراءة في مجموعة «ضريح الصمت»

ياسين النصير

لم تكن المجموعة القصصية المشتركة، التي اصدرها القاصون محي الأشيقر وعبد الله طاهر وحازم كمال الدين، مجرد كتاب جمعوا فيه قصصاً، بل كانت المجموعة صوتاً تقاربت نبراته، وتعددت مدياته. فكان تجميع القصص بمثابة تجميع لصوت سيقوى. وهذه محنة نقدية قبل ان تكون ظرفاً املته حاجة النشر في المنفى. اذ كيف تجد التمايز والاختلاف في التجارب المتشابهة، أو تلك التي تعتمد حنيناً فرضته الغربة. فوظف بإطار البوح عن مكنونات خفية ما كان لها ان تظهر لو لم يقترب بعضها من البعض؟ وكيف يصبح حافز الغربة، الذي تحول هنا الى فعل مشاكس باتجاهين متعاكسين، قوة تعبيرية وليس حساً ما بالفاجعة أو الفقدان؟ وهذان السببان فرضا ادوات فنية مفترقة انتجت رؤى تعبيرية متباينة. وعندي ان جزءاً من الادب العراقي الذي يكتب في المنفى قد وقع تحت تأثير هاجس الغربة المشاكس. فظهرت كتابات متشابهة الاهداف مختلفة الادوات. وهذه المجموعة لم تستطع الخروج عن هذا المناخ اذا ما قرئت بإطار البحث عما هو مشترك بين ادباء مفترقين. فابتداءً من العنوان، وحتى آخر منافي الموظف الصغير، عند حازم كمال الدين، نجد القصص كلها تشترك في البحث عن المكان: القبو، القبر، البيت المظلم، الضريح، العلبة، الصندوق، الحمّام، المقر، الحفرة، الكوة، الدائرة، البار،

القنينة. ومن خلالها تتفرع وتتوالد افعال واسماء وصفات كثيرة. فالمكان المحاصر، المظلم، والمدور يحتاج دائماً الى من يفك اسرار سكنته كي يخرجهم ولو بالامنيات منه، وتجد ان القصص كلها تبحث عن ماهية هذه الرحلة، رحلة الخروج من علبة البيت للدخول في علبة الذاكرة والرغبات المحبطة. ولم يقف الامر عند العنوانات التي اعتبرت استهلالات فاضحة لمحتوى القصص، ولا عند الشخوص المكررة ملامحهم في القصة العراقية، وانما يتعدى ذلك الى المبنى الذي تشابه هو الآخر بين القاصين. فالغربة التي تغلف احزان الجميع منفى يستعير الأم في اغلب الاحيان، أو المرأة، بوصفها اسفنجة الآلام العراقية، كي يجعل منها صورة للرحمية وللارض وللذاكرة، وللوطن، وقد تحول الى مكان للتطهير، أو مكان للشفاعة، أو حياة مؤجلة بالاحلام.. فالأم – المرأة – هي المسعى المستعار في منافي مليئة بالظلمة والوحدة وتضخم الذكرى.

صاغ القاص المبدع محمد خضير، منذ سنوات، تيمة العودة للغائب، وفعل الانتظار، وجعلها احدى التيم الكبيرة التي فجرت في القصة العربية مادة للترقب والكشف عن الدواخل المعتملة. ومنذ الارجوحة، والمئذنة، والى المأوى، والشفيع، وحكاية الموقد، ومنزل النساء، والمملكة السوداء وغيرها، اصبح بالامكان التنويع على هذه التيمة الكبيرة بعدما اغتنى الواقع العراقي، الجديد منه والقديم، بمئات من حالات الفقدان والعودة الموهومة والمترقبة لآلاف الجنود وغير الجنود، ولآلاف النساء المتزوجات والامهات والحبيبات.. هذه التيمة، التي بدأت تحفر الآن في الذاكرة العراقية، كانت القصة قد كشفت عن مستوياتها الخفية منذ الستينات، وبدأت تتسع وتقوى بعدما اضاف القاصون العراقيون اليها عمق الحزن العراقي التاريخي المكون من الموروث وفي الممارسة الدينية. وهكذا ما تزال تيمة العودة والفقدان اهم التيم التي تسند كل ابداع قصصي يجد القاص فيه مجالاً للقول الجديد. وقصة عبد الله طاهر، واحدة من هذه التنويعات الجديدة والمهمة لامرأتين مختلفتين بالعمر والتجربة، ومتشابهتين في البحث. والى جوار هذه القصة نجد تيمة البحث هذا ممثلة بقصتين أخريتين للقاص الأشيقر «ريحانة»، وحازم كمال الدين «منفى». وقد اشار الناقد كامل شياع في الكلمة التي نشرها مع المجموعة الى مثل هذا التشابه. الا ان حازم كمال الدين يعيد ثانية تيمة سبق للقاص عبد الملك نوري ان اكدها، وهي الرجل الصغير، الضئيل والثانوي في المجتمع والذي تقع عليه كمجس كشف آليات المجتمع والمحيط، يعيدها حازم بأسلوبية الأنا، وقد لون لها المواقع وعدد لها المهمات. واذا ما جردنا هذه الشخصية من أناها، لاصبحت شخصية الصوت الاجتماعي للرجل الموظف الصغير الذي تحول الى مكرفون الحال الاجتماعية. وقد عزفت القصة

العراقية كثيراً على هذه التيمة. ولعل رواية غائب طعمة فرمان القصيرة «آلام السيد معروف» واحدة من النماذج الكبيرة الدالة على هذه التيمة.
الا ان تنويعات القاصين هنا جديدة، وذات مدى فني خاص، فاعطتهم خصوصية المعالجة امكانية الاضافة لا الاستنساخ. وعندي ان افضل نتاج ابداعي هو الذي يعيد صياغة القديم برؤية فنية جديدة. وهذا ما فعله، كما سنرى، القاصون الشباب في هذه المجموعة المتباينة المستويات، ليس على نتاج الثلاثة، وانما على نتاج القاص الواحد منهم ايضاً.
في قصة الليالي البيضاء - وهي استعارة دستويفسكية العنوان - نتلمس الطريق الى البيت المحاصر بشباك وستارة منقوشة وامرأة كبيرة تستذكر ماضيها، وامرأة شابة تعودت الغياب، غياب احاسيس الجسد، وغياب الزوج.
ومع الضوء المتسلل الى غرفة النوم تبدأ القصة بسرد تأملات المرأتين: العمة والكنة.
يعتمد القاص تقنيتين فنيتين مختلفتين في صياغة الابعاد النفسية للمرأتين. التقنيتان تتلاءمان مع وعيهما. فالمرأة الأم يستعمل لها الاسترجاع بأنواعه المفارق، والضمني. ومثل هذه الشخصية تخضع الحبكة القصصية لها، بمعنى ان نوعية السرد السايكولوجي لها هو الذي يحتم وصفاً ادراكياً بالحواس كلها. وتستطيع المرأة بتجربتها وعمق احاسيسها ان تقرب صورة الحمام المستعاد للكنة، الشابة وقليلة التجربة، الى الحد الذي تجعله متحسساً ومشموماً من قبلها. ولذلك فالمرأة عندما تستطرد في لملمة صورة متخيلة قديمة وواقعية لحمامها واناسه وطقوسه القديمة انما لتعيد لذاتها الاقتراب الزمني من عمر الكنة، أي انها تعود بسنينها القديمة لتجعلها متوازنة مع سني كنتها الحالية. وعندما يتحقق لها هذا المستوى من التقارب تنهض القصة بالتقنية الثانية، تقنية الاحساس الحاضر، بالمكان المتخيل الى الحد الذي يتحول فيه الاحساس، عن طريق الكلام المستعاد، الى حقيقة واقعية. وبعد ان يتم ذلك تعود الستارة لتسدل على المشهد الداخلي للغرفة بينما يستمر حضور الاشياء في الخارج بوضع جديد. التقنيتان اتحدتا معاً في لحظة زمنية صباحية، وفي هناءة الفراش والجسد الممدد، واليد المدلكة، هذه اللحظة المختزنة كانت زمناً داخلياً وخارجياً حقق القاص فيها نمواً عفوياً متكافئاً لعالمي المرأتين الداخلي والخارجي معاً، انها لحظة زمانية مكانية معاً.. وكأي قاص مجرب اعتمد القاص على تحريك السكون المطبق على المرأتين وعلى المكان، فاستعاد حضور الماضي كله وبكامل تفاصيله، واستعاد حضور الزوج «محمد» ورائحته وغباره ورجولته، واستعاد هيأة المكان السابقة يوم كان مليئاً بالاحاسيس، واستعاد نضارة الجسدين التي اثقلها الزمن بآلامه وتراكماته، ولذلك فالمرأتان معاً بحاجة الى حمام لا

ليغسلن جسديهما فيه، وانما ليستعدن فيه نضارة قشرة الليمون وطقوس الفرح البسيطة. وفي القصة ثمة مشاهد لوصف تزييني لكنه جزء من تكوينات النفس، حيث اللبوة وابناؤها تحتل السجادة المعلقة. هذه الصورة البصرية لطالما كانت مادة لقصص كثيرة.

من «ريحانة» الاشيقر، ثمة استعادة اخرى لاجواء قصة الشفيع لمحمد خضير، الا ان الاشيقر قاص لعل قصصه الثلاث الأخرى شاهد على انه فنان يجيد لعبة الابتكار. وعندي ان قصصاً مثل «ابد الأذى» و«بانتوميم» من القصص الجيدة، لانها لا تتعامل الا مع اللحظة المتوهجة، وغير المنقطعة عن سياقها الزمني، فريحانة، اسماً ودلالة، هي هذه النشوة المتأملة في الفراغ الوجودي الممتد بين اللحظة والضريح، بين الانقطاع والامل بالعودة. ومن خلال اقتران الغربة وديمومتها بين ريحانة والسيدة زينب ينمي القاص احساسنا، نحن القراء، بالمؤمل، بذلك الذي تستحضره اليدان دعاءً وتحسساً، وبتلك الغلالة السوداء التي تغطي وجه السماء عن الامل... وفي لحظة حضور وجداني نجد ريحانة تتمثل روح الشفاعة وتتقمص الخلاص كما لو كانت هي المنقذ. واثر صوت امها الآتي من اعماق البيت، تنشد ريحانة لنفسها الخلاص بانبساطة يدين تعودتا ان تجوسا المناطق الحذرة من الوجه ومن الضريح ومن العمود الاسمنتي، ومن ذلك الذي لن يأتي.. ميزة القاص انه يجيد التعامل مع المشهد الجزئي: حركة اليدين على الوجه في اول القصة، وحركة اليدين في الفضاء في آخر القصة، اضافة الى ابراز ما للتناقض اللوني من قيمة تعبيرية. ونجد هذه الظاهرة في قصتيه ابد الاذى وبانتوميم، اللتين عبرتا عن حالتين جديدتين في التعامل مع المشهد. اما قصة حوار، فقد ركزت على الباب كقيمة مكانية وقيمة تشكيلية، فالباب هنا عازل، ومدخل، وعتبة يفصل بين الداخل والخارج معاً. ولذلك فهو لا داخل ولا خارج، انه تكوين ذاتي يحمل قفلاً. لذلك يشكل المنع احدى خصائصه. أما المفتاح، هذا التكوين السحري في امتزاج الداخل والخارج معاً، فلا نجد له حضوراً الا متى ما دخل الشخص الى المكان. فالمفتاح والباب صنوان في التعامل مع المكان. ويعطينا الأشيقر تصوراً عن المكان في قصة أبد الأذى، يتلخص بأن قيمة المكان لا تحس الا بشاغليه. وكما قال العرب قديماً المكان بالمكين، أي بمن ينهض به قيمه الكامنة والفاعلة التي ما ان تظهر للعيان حتى تتحول الى شخصية كاملة الحضور. ان فاعلية المكان في هذه القصة تكتسب صفة انسانية وصفة وطنية. فيحول مكان الغربة الى مكان عراقي غائر الجذور والمنبت. ومن خلال نشيد مأساوي يرسم الأشيقر لنا صورة واسعة عن يقظة المكان المؤجل والبعيد في الذاكرة المكلومة الآن. حقاً ان الأشيقر قاص له لغته المتميزة الخاصة.

في قصص حازم كمال الدين تنويع واحد على تجربة ممتدة، والنص الذي كتبه بكل عنواناته، نص واحد، سوى انه في المنفى استعار شخصية الأم وحاورها بشخصية القاص، في حين انه كان في النماذج الأخرى لوحده، يعيد تركيب العالم من حوله، فيكون فيه محوراً ومحركاً...
لم تكن الأم الا محركاً لهواجس كامنة، والا من اين يأتي هذا الانثيال المتجدد الصور والبناء، ومن اين تنبع هذه اللغة الواخزة الصائتة وكأنها مجسات يكتشف بها القاص هواجسه القديمة؟ والقاص - المسرحي هنا واحد، حيث تتداخل لغتا السرد بالحوار الداخلي - المونولوج - في بناء مشهد عياني تتراكم اللغة فيه وتنمو كما لو انها قطع حجار. لا شك أن القصة عند حازم ليست معنية، بقدر ما هو معني، بالبوح والانثيال والقول والتأمل وتجميع المشهد من اطراف شتى. انه معني بإيصال معنى العلاقة بينه وبين البواقي من ارث الأم - الصورة - وقد لا تكون هذه الصورة في هذا النص الا الحافز الذي فجر سايكولوجيا التأمل المتدرج والمتصاعد، ابتداءً من تأمل الصورة وحتى تلاشيها. والصورة - الأم، تأخذ ابعاداً شتى. فهي الوطن، وهذا ابسط رموزها، وهي البيت، وهذا احد تفاصيلها، وهي الذاكرة.. الا ان رمزيتها الاكثر حضوراً في وعي القاص هي توليد الحياة من الموت. هذا الانبعاث الطقسي الذي مارسه حازم هو اعادة تكوين للأم المتلاشية في مفردات الذاكرة والفوتوغراف، الذي هو الآخر جزء من الذاكرة، وخلال الجولة المنفعلة التي تتبعها حازم مع طقوس احتفالية التعرف، مررنا بكوابيس الاماكن المغلقة: الدرج، الصندوق، الصرار، العلبة، الماء. ولعل الماء لوحده يخرج من اطاره التطهيري، الى اطار الكشف والتعرية، والماء في هذه المجموعة «الليالي البيضاء والمنفى» حضور فاعل..
في القصص الأخرى - وسأسميها تجاوزاً قصصاً- لانها مختلطة الفنون، يؤكد حازم على حضور البطل الضئيل الذي اشبعت به ثقافتنا الواقعية، وكان نموذجاً حياً في ادب الخمسينات والسبعينات، ذلك النموذج الحمال لكل تصورات البسطاء الذين امتحنوا بالواقع. فكانت الخمرة الطريق الملتبس لظلامات الروح، والاسلوب الذي يمهد لاختلاط فنون القول. ورجل حازم، الذي حمل بعض ملامحه، من خلال اللغة، كان اكثر واقعية من النماذج التي استعارت ملامحه لتلصقه على الاحداث. من هنا جاءت لغة حازم انفصالية منطلقة خارج حدود السرد المألوفة، حيث يتجاور في الجملة الواحدة السايكولوجي بالاجتماعي، البوح بالاعلان، وفي كل مراحل نمو هذه الشخصية، وفي كل مواقعها التي مرت بها، كانت واحداً. وحازم لم يرد في هذه النماذج المفترقة - المتشابهة - غير الاعلان عن ان فن القصة هو فن تختلط فيه فنون عدة.. وقد يلخص بهذه الطريقة الاشكالية النقدية المعقدة، من

ان النقد لحد الآن لم يتوصل الى تعريف محدد للقصة القصيرة.
وبعد، فهذه رحلة متعبة بعض الشيء، فالقاصون قليلو التجارب القصصية، لكنهم في هذه الباكورة كانوا متميزين.

امستردابك/هولندا



تخطيط للفنانة عفيفة لعيبي

قصة قصيرة

قسم

سلام إبراهيم

- وأخيراً ثبت الى رشدك.
- ماذا تقصدين؟
- الحرب اخذتك مني.
- لست الوحيدة.
- والخمرة اخذتك في ايام اجازتك القصيرة التي انتظرها دقيقة.. دقيقة، وما أن تجيئ
حتى تنهمك بالشرب وتتركني وحيدة.
... يا لسحرِ الخمرة.. الكأس الأول.. وتغيم الأشياء.. الحرب
ترحل بعيداً.. تصير نوعاً من حلم مرّ في زمن قاسٍ سحيق..
زمن بعيد.. بعيد.. زمن لا يتذكره.. يا للسائل السحري..
الحاد المذاق..
- تركت البار.
- وعندما تسكر لا تكف عن الصمت.
- ...
- تذهب كل جهودي عبثاً كي اجعلك تكلمني.
- ...
- ترفض دون مبرر أن نخرج سوية في نزهة.
- ...
- اليوم فقط احسستك بقربي.

تأملها جانباً في امتداد الشارع الخاوي وهي تلف قدها المشوق بعباءة سوداء، وترمقه من تحت اهداب طويلة فاحمة السواد بنظرات ود افتقدها منذ زمن قديم، منذ ان سيق الى الجبهة. متوتر طيلة الثلاثين يوماً التي يقضيها بين الشتائم والاوحال والعمل الشاق ليل نهار. اذرع الجنود المنهكة ترتفع بأعياء وتضرب التراب العنيد، الاكف المشققة، رعب القذائف المتساقطة، الارتماء الى الحفر الضيقة، فجاعة الانفجارات، رؤوس الجنود المهروسة، الاقدام المقطوعة، مزق الاحشاء، برك الدم والاوحال، بحار من الخوف والارتعاش، سماء من الخواء...

في البيت وقبل ان يخرجا كان يختلس النظرات الى جلستها امام المرآة وهي تمرر ببطء أحمر الشفاه على شفتيها المكتنزتين، انتابته رغبة مسعورة في مص شفتيها، فانحنى عليها، اسكره هبوب انفاسها اللاهثة، وغيبته طراوة الشفتين.

كان الغسق يوشح الحقول بلونه الاغبر.

قالت: سيهبط الليل لنرجع الى المدينة.

أضوية البيوت البعيدة بدأت تلوح في شحوب اول المساء.

– أيست منك تماماً ، اختفت من فمك كل المفردات الرقيقة وأخذت تناديني وفي صوتك فظاظة وقسوة.

.... فظاظة.. وقسوة.. كيف لا يقسو القلب وينسى؟ وكل يومي قاس. البسطال الثقيل، الصخور، الأفق الكابي، اكياس الرمل، الحفر، وهن الجسد وشتائم الضباط، وحل، ودم، ضرب، وشتائم.

...... الرقة.. هيه.. ماذا يقول؟ ماذا؟ ولسانه يصير خشباً في تلك اللحظة التي يودعها عند حواف السكون، في صمت جدران بيوت الجيران العتيقة، وخفوت انوارها المتسربة من خلال ستائر شبابيكها الواطئة. وحيدان عند العتبة. مرة أخرى سيعود حيث العذاب تاركاً قامتها الملتوية تحترق تحت ثوب نوم احمر شفاف. تكاد تخذله ساقاه. وشفتاها اليابستان تطبقان بحرارة على شفتيه الميتتين. يخطو بأعياء. ترش خلفه طاسة ماء يحفظه من الشر، وحيداً يحمل حقيبته الجلدية وبسطاله الثقيل يضرب سكون الشارع الخالي الا من الكلاب السائبة والجنود.

– اتدري لو انك لم تقسم على تركه لهجرتك...

...... ماذا افعل بقلبي لو عفيته يا لب الروح؟.. يا أمي التي انستني أمي القديمة، منك طلعت، وفي ظلك اريد النوم والبقاء. هنالك تكونين دوماً معي، بين اكياس الرمل، في ساعات الحراسة الطويلة حيث يمضني شوقك فاستخرج خفية قطعة من ملابسك، واعب من طيبك النائم في نسيجها الناعم لاعناً رب الحرب الذي يعبث بنا هكذا...

- وتنسين كل الحب؟
- عدتُ لا أحتمل صمتك والخمرة.
...... لا تحتملين.. لا تحتملين.. ماذا اقول اذن؟.. لا محال غداً أو بعده سأنأى عنك بعيداً.. بعيداً.. من أين اجلب بهجتي النائمة في ايامي الماضيات.. هل كانت تلك الايام؟ ام انها وهم آخر من اوهام الدنيا؟.. من اين؟ وفيضي انضبته شراسة هذه الايام.. حاولت وحاولت مراراً ان أتخيلك دون حرب.. لكنني أخفقت.. أخفقت يا جمرة الروح..
تأملها طويلاً.. الأنف الدقيق التكوين.. وسمرة الوجنة المتفتحة في العتمة التي اخذت ترش رذاذها العاتم من زحمة اوراق الشجر، ومن زوايا الازقة.
- كم تبقى من اجازتك؟
تلبد، كساه الوجوم.
- اللعنة.. لا تذكريني.
- يا.. ما.. بك؟
يومان.. يومان.. واعود للمرة الالف.. لا ادري.. سبعة ايام.. سبع ثوان.. ما ان يقرع الباب ليستكين اليها حتى تتسارع الايام كبرق، في البيت يطوى اليوم الاول روحه ويسافر حارزاً بردائه صبيب شوقيهما، فيسقط الصمت من الزوايا والسقوف والجدران والنوافذ، من هواجس الغد، من اعماق نفسيهما.. عم يحدثها؟ عم؟.. وكل ذاكرته مسممة بأشياء الحرب.. عم؟ .. يفتح المذياع.. ينتشر عزف مارش عسكري، سده بوجه محتقن، .. يدخل الى الغرفة الأخرى، يضغط زر التلفزيون ينبعث من وسط الشاشة وجه الرئيس ببزته العسكرية المطرزة بالاوسمة، وقسماته الصخرية تكبر رويداً.. رويدا تملأ الشاشة تخرج من حوافها.. تتقوس.. تكاد تطبق عليه.. يضغط زر الاقفال، يعب نفساً عسيراً.. الجدران.. الغرف.. الملجأ.. اختناق.. اختناق. البيت مثل الملجأ.. اختناق..
الاحاديث المبتورة.. الصمت.. اطرد الهواء.. يهرب الى الشارع.. أين يذهب؟ الدوران في غبش مقتول بالشمس.. المقاهي.. يبحث عن وجه صديق.. يكمن في مقهى «قدوري» يرقب المارة عبر الواجهة الزجاجية المطلة على الصيف.. يتصيد بعينين داميتين.. ليس غير رجال طاعنين في السن يشغلون قنفاتها يلوكون اخبار الحرب والموت.. خواء.. خواء في خواء. يهرم في لحظات الانتظار ويدوي بصمته رعد آلاف القذائف والصرخات. يختنق.. يختنق.. يغادر المقهى، يلج ازقة ضيقة قديمة.. يدور.. يدور.. غاطاً بغبار البارود.. يدور.. ويدور.. الابواب.. الابواب موصدة.. يقرع باباً.
- تأمر هنا؟
- التحق قبل يومين بوحدته.

الابواب.. واطراف انامله المتوجسة من القرع.. الاجوبة المكرورة.. المكسورة، قاع الوحشة المخيف.. قساوة خشب الابواب الناحلة، ووجوه الامهات الكئيبة.
– بعد عشرة ايام يجيء.
الازقة الاليفة تبكي غياب الاحباب برمل الحفر.. المنتظرين طلقة الرحمة، الطلقة المخلصة من هول تخيلات اشكال اللحظة الاخيرة.. اين الملاذ من كل هذا اليم الشاق المعذب؟ اين؟.. و.. و.. تنتهي الاجازة.. ويحاصر من عيون الكل المتسائلة عن موعد التحاقه الذي مرّ بالامس.. واحاديثهم المقصودة من اعدامات في الشوارع.. ويدفعونه نحُو النار.. وها هم الاحبة يتساقطون الواحد بعد الآخر. في كل اجازة يتوارى احدهم ابداً، هاشم لفته.. باسم غانم.. هاشم عبد العال.. مهدي خريبط.. ماهر محمود.. حمودي عزره..و..و..
تلك الوجوه المرحة محشورة في تابوت ذي خشب مهترئ. في غرفة خانقة جنب حوض ماء عفن يبرك الصمت خانقاً على الحضور. يزيح بيديه العلم ذا النجمات الثلاث، يفتح غطاء التابوت يدوي صراخ مفجوع، الرأس محروق.. الوجوه راكدة في صمت أجوف.. البطن مبقورة الاحشاء.. سكون.. صرخات خافتة.. يتهاوى رجل مبعثراً على الارض، يأخذونه خارج المغسل، صقر الرعب يوكر فوق الرؤوس المبحلقة بفزع، قرقعة غطاء التابوت وحدها تكسر الصمت المريب، يحمله مع آخر من اسفل الكتفين المزرقين، كم ثقيل هو جسد الميت؟ «مثلك سيتضايقون من ثقلي».. يضعونه بأناة على الدكة الاسمنتية الباردة.. يرتجف حاساً بقشعريرة غريبة تنقر اضلاعه وكأنهم يلقون به عارياً في هذا البرد على هذه الدكة المبلولة، يبدأ رجل بالبسملة.. يطوي كميه، يرش عليه دلو ماء.. ثم يدعكه بليفة خشنة.. يفرك جراحه بالكافور الذي انتشرت رائحته لتضيف للجو اختناقاً.. يقلبه، فينتفض الرأس المشوه كما لو كان حياً.. يا لهول الرقدة الابدية.. يعود عند المساء شجرة يابسة، تطالعه بقلق.. يركن الى الصمت وغبار الموت طرياً يلف روحه الرماد.. تقترب من جلسته المنطوية بتوجس، تمد بهدوء اصابعها الناعمة وتمسد خصلات شعره المبعثر، يتكور.. يتكور داخل صدفته حلزوناً مذعوراً، تهبط اصابعها بأنزلاق مربك الى ما تحت اذنيه ورقبته، يمعن في جلسته المنهكة بالتحديق الذاهل الى السجادة التي انكشفت عن دكة اسمنتية باردة، رائياً جسده ممدوداً على طولها.. مبترداً، مخبوط الاحشاء، تقول محاولة ترطيب يباسة.
– اريد طفلاً..
يفرك شعره بعصبية مبعداً ذراعيها بخشونة، ترتد مدهوشة الى الخلف يهرع الى الشارع، ينزوي بركن البار وحيداً يعب الخمرة والدخان.
– .... انا الجندي المسكين.. الحقير.. الاغبر.. المهان.. الذليل..
انا المقهور المقاد الى حتفه..

متى سيجئ يومي.. متى؟ يحملونني في تابوت خشبي عتيق ويدورون
بي حول ضريح الامام علي. الناس في فسحة الحضرة يقفون.. يقرأون
الفاتحة.. ليعودوا الى مشاغلهم.. هيه.. وتريد طفلاً.. أأبذر طفلا
لا اراه؟ وذاك جارنا الذي تركناه اشلاء في الارض الحرام يتعلق
طفله برقبتي كلما عدت مجازاً.. ويسألني عن ابيه الذي غاب طويلاً
وانت يا لب روحي
أأتركك أرملة وحيدة تندب حظها العاثر؟
ويستحيل حبنا تراباً.

يرتشف كأساً آخر.. وآخر.. تغيم الاشياء.. تتمايل وجوه الجالسين، تتمدد، تستطيل، تسيل من حوافها.. تتبخر متلاشية في الضوء المنهمر من سلاسل مدلاة من سقف البار.. الحرب ترحل بعيدا.. بعيدا.. تصير حلماً.. قديماً، غبارا منسياً منذ آلاف السنين، يمضه الشوق، يعود عند انتصاف الليل، تفتح الباب بعينين منتفختين، يمسيها بالخير، ويمد اصابعه الخدرة الى بشرة وجهها المنهك، تدفعها وتهرع ناحية الى غرفة النوم، تطير السكرة، يلحقها بخطى وجلة، يتذرى، يلتم، يتكور، يتبعثر، يسيل، يتصلب، يتكسر متناثراً وهو يقف قربها نخلة متفحمة دون أن يجرؤ على مسها وهي غارقة بنحيب مخنوق.

– ما فائدة الاشياء.. كل الاشياء.. الحب.. الحزن.. الزعل.. ولم هذا الرماد؟
هذا النكد؟ خائف انا.. خائف.. كيف اجعلك تفهمين؟
مرعوب لاجلك.. أأموت.. أأموت؟ واعوفك يا زهرتي
الزاهية الحزينة، أيأخذونني بعيداً الى غير رجعة عن هذا
الوجه.. هاتين العينين الواسعتين، والشفتين العذبتين؟...
حتى حزنك احبه.. تلاشيك اتلاشى بثناياه.. أأصبح
مجرد خاطر يخطر في لحظات سهو؟ واسكن تلك الحفرة
الظلماء المتوحشة وفمي يغلق بتراب أحمر جاف؟؟

تتداعى كجدار متآكل دافنة وجهها في الفراش الوثير، كاد ان يرتمي الى طولها ليغرق في نهر الماضي حيث لا حرب.. لا موت.. لا قتل.. جامداً، مذبوحاً. كان مستكيناً الى انكساره جنب السرير.. يستعيد طعم شفتيها في تلك الايام البعيدة.. من اين له الخوض من جديد في قراتها القريب.. البعيد؟ يخر جنبها، يتلمس الظهر المهتز، تتوسل اطراف اصابعه ليس غير اختضاض يائس مسحوق، كل الجسد والكيان المحفور في الفراش لصقه بعيداً ينأى كسراب. يجلس مطعوناً، يزدحم بداكن الاحاسيس.. يجرجر قدميه الواهنتين الى الغرفة الأخرى، ينهار الى كرسيه محطماً مخذولاً، يرن في صمته سكون عتمة شوارع المدينة في أخريات الليل وهو يضرب الصيف

سائراً باتجاه محطة القطار النازل جنوباً شجرة محترقة يضيع سوادها بسواد الليل.
– ما سرّ الخمرة؟
– ...
– عدت لا اطيق نفسي بسببها.
سرها.. الكأس الاول وتغيم الاشياء.. ترحل الحرب بعيداً.. يموع اسمنت الدكة المبلولة الباردة، تدفن حفر التراب تغيب اكياس الجنفاص، حينذاك اتمكن من الضحك ورؤية الجدران ووجهك والشارع ونفسي.. الكأس الرابع وتصير الحرب نوعاً من حلم بعيد، مغامرة عابرة، شيأ منسياً، تصير القذيفة التي ثقبت تراب وصفائح السقف وظلت توّش في انغرازها بتراب فسحة الملجأ الضيقة.. تصير غباراً بعدما اخذت عقل سامي المصعوق الذي اخرس قبل ان ينهد هاذياً ومنفصلاً عن الكل في لحظة، ساقطاً في بحره الجديد كشمس نعست وملّت السماء.. يا رب الحرب استرني قتلاً ولا الجنون. لم يخبرها بامر سامي.. اوغل في السكر ليل نهار. كانت تتركه وحيداً مع خمرته وصمته وتلهي نفسها بشؤون البيت، وبالامس انهارت بغتة واخذت بتحطيم كل ما يقع بيديها. ذكره تكسر الزجاج وصوت تناثر قطعه على البلاط بتساقط الشظايا. قفز نحوها، امسك بكفيها النازفتين، جذبتهما وهرولت الى غرفتها. صفقت الباب واحكمت رتاجه. اتكأ الى الباب المسدود، طرق بأطراف انامله الراخية، همس بأرق صوت مترجياً، شطره نشيجها المتقطع. فاء الى كأسه سائلاً من الاسى:
– ماذا بوسعي؟ اختلطت عليّ حتى نفسي.
أغفى مبعثرا في جلسته على اشلاء الكرسي.
عندما استيقظ كانت خيوط الغبش الفضية ترشح من خصاص النافذة. سمع حفيف خطوها في المطبخ، فاستذكر احتدامات ليل البارحة. نهض. توجه نحوها .كانت منشغلة بأعداد الفطور، تناول ما تبقى في قنينة الخمرة ودلقها في حوض المغسلة. انحنى الى كفيها المجروحتين وهمس وبصوته ارتعاش.
– أقسم بالحب، اني هاجره ابدا.
وقع خطواتها المتباطئة يفج سكون ارصفة الشارع، عصر اللحم اللدن المتكور حول رمانة كتفها المختبئة تحت نسيج عباءتها السوداء الناعم، وتبعثرت روحه في لمعة قسماتها السمراء المبلولة بماء البدر.
يا رب الحرب.. لمَ ساكتنا ؟؟؟
ودّ لو يكل الزمن من جريه، ويتهاوى. بلا اجازة.. بلا الغد الذي سيرمي به الى عتبة عذاب اليوم الاخير. جذبها الى ابطه، فأحس برعشة جنبها الدافئ تخترقه، التهب واهتاج.

- نحن في الشارع...!
همست بخفوت، وازاحت ذراعه المتشنجة بدلال. كان متلاشياً بظلال بهجة قديمة منسية فزت لتوها من غفوة طالت عليه. تماسك على صوت يهتف باسمه، التفت جهة الصوت ممعناً النظر بقامة الرجل المقبل وصرح!
- انت. .!!!
تعانقا.
- سنة لم ارك فيها.
ابعدا صدريهما لبرهة ثم عاودا العناق بشجن وصديقه يستطرد.
- هيا معي، كدت اموت كمدا. بالامس جئت من الجبهة ودرت نهاراً بأرجاء المدينة دون ان أعثر على احد.
جلسا في الصالة المطلة شبابيكها على فسحة الحديقة الصغيرة.
- حرت، في البار لم اجد احداً، في المقهى، فاضطررت لشراء قنينة عرق وعدت الى البيت مخنوقاً.
فرك كفيه بغبطة.
- بعثتك السماء رحمة بحالي.
أرخى اجفانه المتوترة، اقتحمته رائحة الخمرة وعصفت به الكؤوس المنضودة على المائدة وترقرق السائل الابيض في فضاء الزجاج. تهالك منهكاً على الاريكة.
- مجرد صدفة، صدفة ابقتني حيا يا صديقي، خلف ظهري بمترين انفجرت قذيفة، سخمتني برمادها وقتلت خمسة جنود كانوا يسيرون خلفي.
- ......
ما هذا الصمت؟
كان يفور بسكون، يفكر في زوجته وصوتها الرخيم المتدفق بنعومة من الغرفه الأخرى، ثم انثالت فوضى من الاشياء الغير متناسقة. برق فوهة المدفع في العتمة يضئ تابوتاً خشبياً ينز من شقوقه دماً قانياً. كفاها الصغيرتان المدماتان. شكل الباب المغلق. الجسد الممزق ملفوفاً بكفنه الابيض. الحفّار ينضح عرقاً وهو منهمك بازاحة كتل الرمل الاحمر المتحجرة. اصوات تكسير الصحون. نقاط الدم المنثورة على الكاشي. لهاث الصمت في الوجوه المعفرة بغبار الموت الناظرة الى الدفّان وهو يلقي بمعوله على كومة رمل الاعماق الرطيب. فم الحفرة العميقة. فم المدفع المعتم. ظلال الشمس الآفلة يطلي شواهد القبور المجصصة. وجوه الجنود المخطوفة تلوذ بسواتر التراب. نسوة يتشحن بالسواد ويلتففن حول قبور حديثة البناء. الكأس الاول وتغيم الاشياء، يذهب كل شيء بعيداً، يخفت البكاء اليأس المر على جسد لفه التراب، تضيع ملامح الاعضاء الممزقة، ويصمت طنين اكوام الذباب الدائر

حولِ ثقوب الجسد النازف...
صبَّ صديقه مالئاً كأسين فتألق سطح السائل الابيض بنقاط زيتية لامعة.
انتفضت يده المسبلة على وثارة الاريكة وماتت، انتفضت، وماتت، انتفضت، وماتت، الكأس وما به من السحر، وتستحيل الاشياء هلامية.
– أرفع نخب اللقاء.
بعد غد وجوه الجنود الكالحة، الكئيبة الصامتة، المتجهمة، المكسورة، المتحجرة، المخذولة، المحطومة، الكدرة، المهضومة، المستكينة، تتكدس غافية في الممرات الضيقة، وعلى الرفوف المخصصة للحقائب، وفي المداخل الكائنة بين عربات القطار النازل في ليل الجنوب الحزين..
– مالك؟ كفك ترتعش..
الكأس الاول وترتدي الاشياء رداء من البنفسج الشفاف.. تصبح أكثر الفة وسحراً..
– يا رب الحرب ستغفر لي.. ستغفر..
تلقف الكأس وارتشفه دفعة واحدة..
– اشرب الثاني.. حتى تنفتح النفس..
عندما هم بشربه، سدت بقدها المشوق باب الصالة. تجمد الكأس في منتصف المسافة. رشقته بهيجان. اكفهر وجهها، واستدارت مسرعة صوب باب البيت، وضع الكأس بارتباك تاركاً الذهول يموج بوجه صديقه، وانطلق جارياً خلفها. انكسر القمر وهزل الضوء في الشارع الخالي.
– ارجوك دعيني.. افسر الامر..
حثت خطاها بقسمات متصلبة.
– .. انه صديقي.. لم اره منذ سنة.
ابتعدت.. خذلته ساقاه فتداعى على الجادة. كانت تنأى في شحوب الليلة كنجمة تغيب في اغوار سماء سحيقة. كان ينحب بخفوت.

تموز ١٩٨٥
ارياف دهوك

قصة قصيرة

عام جديد

هيروكَوران

بدأ البرد يشتد في نهاية ذلك النهار الشتائي القاتم، حيث منطقة النقليات، وحركتها الدائبة. شارعها العريض يبدو مكتضاً بالمارة، والرواد والمسافرون ، اغلبهم من الجنود الشباب، تنطلق السيارات الكبيرة بهم من العاصمة الى مختلف الجهات وتأتي بهم ايضاً من مختلف الجهات.

الآخرون ينتظرون على الارصفة وبين المحلات والمقاهي المنتشرة. منهم من يتناول وجبات سريعة على الارصفة، من قدور كبيرة يتصاعد منها البخار الحار. وهناك بعض المظاهر الاحتفالية الباهتة بليلة رأس السنة. صور رديئة ملونة لبابا نوئيل. وعلى احدى الواجهات رسم احدهم بجانب بابا نوئيل بطيخة كبيرة وملعقة اكل، ربما لكي ينبه المارة لوجود المطعم. ورسمت على الواجهات اجراس كبيرة وصغيرة وفيونكات وورود بألوان رديئة فجة. وثمة بعض المصابيح الملونة منتشرة بغير انتظام وسط الجو الرمادي القاتم.

بين اندفاعات الغيوم المتكاثفة تجد اشعة الشمس الآيلة للغروب منفذاً لها، فتسقط لوهلة على زجاج محل أو تضيء بخجل اغصان بعض الاشجار المتفرقة ووريقاتها المتبقية الذابلة.

دخلت مجموعة من الجنود الشبان مقهى كتب على واجهته الزجاجية بالقطن الابيض الملصوق (عام جديد ١٩٨٧.. عام سعيد).

تحلقوا حول الموائد الصغيرة داخل المقهى الدافئ المعبق برائحة الشاي، يجمع الوجوم فيما بينهم، واللون البرونزي والترابي. احدهم كان يبدو اصغر

سناً. ما زالت بشرته رقيقة فاتحة، وتبدو على وجهه امارات الصحة والحيوية. وهو يبدي رغبة في الكلام والمزاح معهم. يحاورونه قليلاً ثم يعاودون وجومهم مصغين الى اغنية جنوبية يحكي مطربها عن خيبته ولوعته وحظة التعيس، يصاحبه طبل يدوي بالحاح كأنما لايصال تلك اللوعات الى اقصى مكان ممكن.

في زاوية قصيّة من المطعم تجلس عائلة كردية. رجل مسن لحيته بيضاء، وانفه عريض، وعيناه الصغيرتان تحيط بهما طيّات من الاجفان المجعدة الثقيلة، يرتدي ملابسه القومية، وامرأتان تلفلفت كل منهما بعباءة سوداء. احداهما شابة تحتضن طفلاً صغيراً مدثراً برداء احمر، بقبعة ونتؤ، يشبه اردية بابا نوئيل في الرسوم المنتشرة على الشارع.

حينما بدأ الطفل يبكي تلقفه الشيخ بين ذراعيه وراح يتمشى به جيئة وذهاباً بخطوات ثقيلة متساوية، غارتاً في افكاره لا يستجيب لمحاولات الطفل جذب اهتمامه بعد ان كف عن البكاء.

قال الجندي الصغير محاولاً فتح باب الحديث:

- يا جماعة، هذا العم المسن بلحيته البيضاء، والطفل في حضنه بردائه الاحمر، يشبه بابا نوئيل شبها كبيراً.

تساءل جندي ذو رأس صغير محلوق حتى الجذر، فمه واسع وشفتاه غليظتان:

- من هو بابا نوئيل هذا؟

- انه عم لي ولك هذه الليلة فقط.. ليلة رأس السنة فبعد ساعات سينتهي هذا العام ويبدأ عام جديد.

- وأين يقيم بابا نوئيل هذا.؟

اجابه وابتسامة ماكرة على شفتيه:

- في جزيرة سومطرة.

- وأين تقع هذه؟

- قرب جزيرة السندباد.

أثار الحديث فضول جندي آخر. كان يفتح عينيه بصعوبة بسبب التهاب فيهما وقال:

- وماذا يعمل هذا الرجل؟

- هو ذلك الشيخ ذو اللحية البيضاء، الذي يوزع الهدايا في كيس يحمله كل ليلة رأس سنة جديدة، يحوي الكثير من الهدايا للناس.. للاطفال، مغلّفة بأوراق زاهية. هناك. في البلدان الأخرى.. ألم تروا ذلك في التلفزيون؟ ولكن لا بأس، ها هو با با نوئيلنا المحلي لهذه الليلة.. بابا نوئيل بقطعتين: العم ولحيته، والطفل وقبعته الحمراء. ها ها ها...

تحركت شفتا جندي ترابي اللون، يبدو عليه الوجوم الشديد وقال:
- انت يا اخي في واد.. ونحن والدنيا كلها في واد آخر.. انت طري العود حديث العهد. لم تجرب بعد أي شيء من كل شيء. لم ترِ مثلنا على طول الجبهات مع ايران. منذ سنوات.. سنوات طويلة. لم تمش مرة اثر معركة حامية، وانت متعب لاهث الانفاس، تدوس على اوصال بشرية تعرف بعضها، وترى ان قطعة الارض التي تمشي فوقها لا نهاية لها ابداً. لو كنت عشت ذلك يا صديقي، لنسيت نهاية وبداية كل عام جديد.
قال آخر حواجبه كثيفة سوداء:
- في مكان آخر ترفع قذيفة اكواماً من التراب الحار، وتلقيه فوقك. ثم لا تلبث ان تكتشف انها اخذت قبل ذلك نصف وجه الجندي الآخر زميلك الذي كان الى جانبك يدندن قبل فترة بأغنية ما. كان اسمه حسن. فجأة طار نصف وجهه. شيء لا يصدقه العقل. ولكنه جرى لي.. جرى امامي.
قاطعه الجندي الصغير:
- يا للعجب!! صديقه الذي كان بجانبه فقد نصف وجهه. وهو الآن سليم بيننا يشرب قدح الشاي.. يجب ان تفرح لحسن حظك يا اخي. حسناً.. لننسى كل ذلك. سأسأل كل واحد منكم سؤالاً:
- من هو مطربك المفضل؟
اجاب كل منهم بعفوية ذاكراً اسم مطربه المفضل. وعندما سألوه بدوره اجاب:
- انا.. في الحمام!
تبسمت شفاههم قليلاً. ثم قال ايضاً:
- عندي سؤال آخر:
- ما هي اسباب الحرب.. هذه الحرب التي نحن فيها؟
لم يجد أحد جواباً.
- حسناً لنكف عن اشغال رؤوسنا بالمسائل المستعصية. ها هو المطر الغزير يغسل كل شيء.
اصبحت خطوات الشيخ اسرع في رواحه ومجيئه.
قال الجندي الصغير هامساً:
- يبدو ان بابا نوئيلنا غارق يفكر بالهدايا التي تصلح لكم انتم المتواجدون هنا بمناسبة ليلة رأس السنة.. اعتقد انه سيفكر بأهداء كل واحد منكم، قبل كل شيء، صابونة وقطعة ليف خشنة، على اعتبار انكم لم تدعكوا جلودكم منذ عام ١٩٨١. أي منذ التحاقكم بالجبهات الحربية. ثانياً سيختار لاخينا سعدي هذا قطعة قماش بيضاء يستسلم بها للعدو بعد ان كان يحتار كما يقولون ولمرات عدة في ايجاد ما يرفعه مستسلماً.

تبسمت شفاههم جميعاً، وبضمنهم سعدي مع بعض الخجل، رغم انه لم يستنكر ما قيل حوله.
مرت امام المقهى مجموعة من الفتيات الشابات، وهن يتضاحكن ويغطين رؤوسهن بحقائبهن تفادياً للمطر الغزير. لم يعر الجنود اهتماماً للفتيات، سوى ان احدهم اجاب على ابتسامة وايماءة من الجندي الصغير. من الراديو تتابعت اخبار جبهات القتال المختلفة. بعد ذلك ضج المكان بنشيد يتحدث عن التضحية في سبيل الوطن. قام أحدهم وغيّر الراديو على موال جنوبيٍ آخر. وغرق كل منهم في صمته مرة آخرى، الى ان قال الجندي الصغير:
– سحابة سوداء تقترب من الافق.
تساءل آخر بنبرة مسترخية..
– وأين هو هذا الأفق؟
– الأفق في القطب الجنوبي.. ها ها ها...
وقف الشيخ قرب زجاج الواجهة، ورفع راسه يحدق في سيول المطر. مد الطفل يده الصغيرة محاولاً نتف القطن الابيض الملصق على الزجاج.
صاح صاحب المقهى من غرفة صغيرة ملحقة داخل المقهى، ومن وراء مائدته الصغيرة:
– انت يا كاكه. امنع الطفل من نتف القطن المكتوب على الزجاج!
صاح بعض الجنود بعده ، راق لهم ان يفعلوا شيئاً بعد ذلك السكون:
– انت يا كاكه.. الرجل هناك يقول لك امنع الطفل من نتف القطن المكتوب.
تنبّه الشيخ، وكأن ماء بارداً قد سكب عليه، وابتعد عن الزجاج. اقترب من غرفة صاحب المقهى الذي كان يدمدم ويحدث نفسه:
– أمرونا بكتابة التهنئة هذا العام. وسنعاقب لو ازيلت.. قالوا يجب ان نكون حضاريين، وان نساير الامم المتقدمة في العالم حولنا.. حسنا لنساير الامم المتقدمة. لنحتفل بمقدم العام الجديد.. لقد فعلنا ذلك.
ظل الشيخ واقفاً امام الباب مطرقاً برأسه منتظراً انتهاء صاحب المقهى من دمدمته. بعد وهلة تقدم قليلاً:
– يا سيد، هل استطيع ان احصل على وجبة حليب من تلك العلبة عندك لهذا الطفل؟ فقد قلّ حليب امه اثناء السفر، والماء والسكر لا يشبعانه، ولا استطيع ترك المقهى لشراء الحليب لان قريبي سيأتي الى هنا ليصطحبنا. سأدفع لك نقوداً.
– يا للطلبات غير العادية.. نحن لا نبيع الحليب يا كاكه. انه لا ستعمالنا الشخصي فقط. ثم استطرد بعد لحظة:
– تعال يا رجل وخذ وجبة الطفل من العلبة.
رجع الشيخ بعد ان وضع الطفل في حضن امه وهو يمتص الحليب الدافئ

بنهم.
اقترب بخطوات مترددة من صاحب المقهى. بادره الثاني بعد ان رآه يتلكأ في محاولته الحديث معه:
- هل انت من اهالي السليمانية؟
اجاب الشيخ بالايجاب.
- عرفت ذلك من نفسي.. زرت مدينتكم اكثر من مرة. زرت مناطق عديدة في الشمال عندكم.. أية سنوات كانت، ومضت.. قل لي: هل ما زالت مدينتكم جميلة؟
اربك السؤال الشيخ وكأن قنبلة القيت عليه:
- مدينتي جميلة؟.. نعم نعم انها جميلة.
- ولكنني لا ارغب في زيارة مدينتكم بعد الآن. ولا رؤية مناطقكم. الشمال كله لا احب الوصول اليه. ابداً ابداً.
- لماذا يا سيد.. لماذا؟
- اريد ان اقول لك لماذا؟ حسناً لان ابني صادق قتل في الشمال. ذبح على سفوح جبل كُرده مند، في بداية الحرب، في اول هجوم جرى على ذلك الجبل.. كان متخرجاً لتوه، قال لنا في زيارته الوحيدة والاخيرة بانه يحس ان موته سيكون على سفوح ذلك الجبل ، طمأنته وقلت له بأن تلك الجبال رحيمة رؤوفة بالبشر.. ستحميك كهوفها وصخورها ومنعطفاتها.. لن تسمح بموتك.. يا الله.. يالكُرده مند المريع ذاك.. تلك الجبال والصخور والروابي. كنا نردد عند رؤيتها: سبحان الله، لهيبتها وشموخها وروعتها.. اصبحنا الآن نردد: سبحان الله لقسوتها ووحشتها وجبروتها.. سبحان الله لكل شيء!
تمتم الشيخ بعبارات قليلة محاولاً مواساة الرجل الذي توقف عن الكلام، واصبح وجهه محتقناً وتعقدت ملامحه، بعد ان هاجت في نفسه ذكرى ابنه.
ظل الشيخ واقفاً لحظة أخرى ثم استجمع شجاعته وخاطبه ثانية:
- عذراً يا سيدي المحترم. ارجوك ان تخبرني ان كان يوجد هناك فندق رخيص بالقرب من هذه المنطقة لكي آخذ النساء اليه، فيما لو تأخر قريبي اكثر. فقد وعدني بأنه سيلتقيني في هذا المقهى، لكي يدلنا على مكان ابننا هنا في العاصمة. لم نره منذ سنتين. ونحن غرباء لا اقارب لنا هنا.
- نعم يوجد فندق قريب من هنا. وهو رخيص ايضاً.. ولكن هل تعرف عنوان ابنك؟
- نعم.. تقريباً نعرف اين هو.
- حسن.. جيد ما دمت تعرف عنوانه وستلاقيه.. جميل ان تلتقي بأبنك بعد فراق سنتين.. واين هو الآن؟
- في غرفة الاعدام.

كانت السماء قد ارعدت وابرقت قبل وهلة فظن الرجل انه لم يسمع جيداً تلك الكلمات..

– قلت اين هو؟

– ابننا في غرفة الاعدام. في سجن ابو غريب.

استطرد يتكلم وقد اصبح صوته خافتاً وكلماته تخرج بصعوبة.

– ابلغني مختار المحلة بأن اعدامه سيتم هذه الليلة. أو غداً في الصباح الباكر. قال ان علينا استلام جثته. ودفع مصاريف اعدامه وتابوته.. ثم ابلغنا ان الاوامر تقول بعدم اقامة مراسيم عزاء له.. المرأة الشابة هناك هي زوجته. والطفل هو ابنه الذي لم يره لحد الآن. والمرأة الثانية هي امه. قلت لهن فقط اننا سنذهب لمواجهته.. ولن اطلعهن على الحقيقة هذه الليلة ايضاً. فلن احتمل عويلهن وصراخهن. وانا احوج ما اكون الى استجماع نفسي لكي اعرف كيف آخذ ابني واوصل جثمانه الى مرقده الاخير.. الى مدينته..

قال الرجل المبهوت أمامه بكلمات اشبه بالفحيح:

– ماذا فعل ابنك؟

– كتب كلمات على الحائط.

– كلمات!! واية كلمات؟

بصوت اوطأ اجاب:

– كتب كلمات مثل (فداك يا كردستان) مثل (كفاكم قتلنا) و(الموت لاعداء كردستان) و(كردستان أو الموت) لا اتذكر كل الكلمات.

نظر صاحب المقهى بريبة حوله ونحو باب الدخول:

– هل ثبتت التهمة عليه؟

– نعم، يقولون انها ثبتت عليه. بل وزادوا عليها. معه ايضاً في غرفة الاعدام ابن جيراننا، الذين فروا بعد القاء القبض عليه.. فروا الى جبال ايران. هم لا يعرفون الآن ان ابنهم سيعدم هذه الليلة ايضاً.. قال المختار انهم زادوا عمره عدة سنوات في وثائقه الرسمية لكي يعدموه.. انه ولد صغير.

زمجرت السماء واومضت خيوط فضية، اضاءت المقهى كله.

كان الجندي الصغير يحملق مبهوراً في السماء. والطفل في حضن امه شبع وتدلت قدماه، ينظر بوسع عينيه البراقتين نحو السحابة، التي كانت تطلق دخاناً اسود قبل حين. حينما اضاءها البرق كشف فيها دوامات متوهجة مريعة وكهوفاً زرقاء، وصدوعاً كلسية مضاءة من الداخل بنار وردية وقانية.

بدأ الشيخ يتخلى عن مظاهر المكابرة. اعطى ظهره للنساء ووضع وجهه بين كفيه، وترك دموعه تسيل بسلاسة، منطلقة بلا توقف وسط سطوع البرق ودوي الرعد.

وكان الرجل الآخر ينظر اليه من خلال المائدة امامهما، وهو موقن ان الشيخ

في طريقه الى الاستنزاف. وبدا كمن يتساءل عن قدرته على تحمل ذلك كله.. وعن ماهية الاستنزاف ووتائره الخفية المتربصة في الظلام الآتي. ويقيس شراهة اللحظات الحرجة التي تدور حولهما في هذه الغرفة نصف المضاءة ونصف المثقلة بظلام ازرق داكن. يقيس مع الشيخ هذه اللحظات التي تدور وتطن حولهما. ويتفحصان ماهية الزمن وهو يتكون من اتحاد مريع مستمر لهذه اللحظات مع بعضها. ثم راح يقيم مناظرة خفية في جوانحه بينهما. فوجد ان المعادلة الى جانب الشيخ المنحني امامه الآن وقد بدأ يطلق دعواته الحارة لاصطياد تلك اللحظات، وجمعها في خيط الحياة الدافئ. يحاول ان يمس بروحه المهتاجة بأنفاسه الحارة ابواب وقلاع الامل السحرية تلامسها.. تصطدم بها امواج تلك الروح العاتية في مدها وجزرها

وكمصلٍ يتوسل الى الله، قال بصوت خافت مبحوح:

– ألا تعرًف يا رجل يا طيب احداً كبيراً في الحكومة.. في الأمن.. يتوسط لنا، يمنع اعدامه هذه الليلة. انه شاب يافع وجميل المحيا ويستحق ان نفعل من اجله شيئاً. الا يستطيع احد ايقاف ذلك؟ انا.. سأعطي كل ما املك..

قام الجنود وهم يلتقطون قبعاتهم متوجهين نحو مصائرهم المختلفة.

عينا الشيخ المتوسلتان وكل جوارحه ظلت متبقية على وجه الرجل المطرق امامه. يحاول ان يتبين ان كان هناك بصيص أمل.

– ايها الرجل الطيب ساعدني.. توسط لي عند احد منهم. عندنا قطعة ذهب في صدر زوجته. عندنا في البيت ثلاجة ومجمدة وتلفزيون. عندنا سجادة ايرانية من تبريز، جميلة النقوش..

ازاح صاحب المقهى باطراف اصابعه دمعتين انحدرتا ثقيلتين على خديه وهو يقول:

– اذهب عني يا رجل.. ابتعد عني. تجلّد، كان الله في عونك.

استدار الجندي الصغير نحوهما قبل ان يلتحق بالآخرين الذين تجمعوا عند الباب:

– ما هذا؟ بابا نوئيلنا يبكي!! بابا نوئيل يبكي؟

١٩٨٧

قصة قصيرة

امانـدا

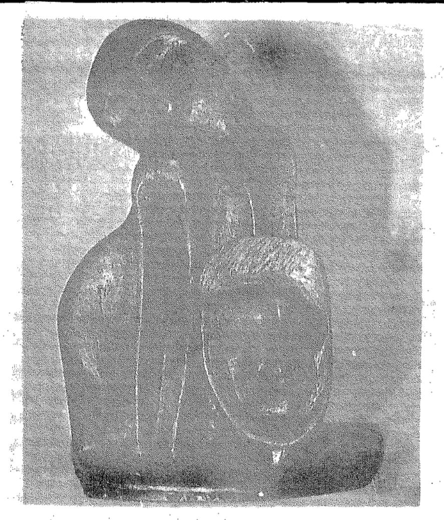
سعاد الجزائري

- اماندا.. اماندا.. يا الهي اية مفاجأة هذه.. كأنه حلم.. لا اصدق عيني..
شق هذا الصوت سكون الباص المزدحم بركابه، المتكورين في كراسيهم، او متململين وقوفاً. الكل منشغل بعالمه الخاص، افكار تتزاحم وتتدافع في مساحة صغيرة.. ثم يقفز هذا الصوت الملهوف بفرحته وكلماته المرتجفة ليلغي كل هذه العوالم المتضاربة فيجمعها في بقعة واحدة، هي بقعة اماندا..
اماندا.. اماندا.. انظري انا هنا في نهاية الباص..
تتجه كل العيون الى مصدر الصوت، ويقف بعض الذين جلسوا في المقاعد الامامية ليروا صاحبة الصوت..
امرأة في الاربعين من العمر، سوداء، تعتمر على رأسها شالاً بألوان براقة، ربطته بتلك الطريقة التي تلف بها نساء افريقيا رؤوسهن.. ترتعش بفرح شراشيب شالها وكأنها مصابيح مضاءة في شجرة الميلاد..
- اماندا.. اماندا.. لكم كبرت يا اماندا..
تترك المرأة كرسيها، تحاول ان تتجاوز الناس الذين اكتظوا واقفين في الممر الضيق بين مقاعد الباص، وانظار الكل تتحرك بين لهفة هذا الصوت وسكوت الطرف الآخر، سكوت اماندا.. ترى اي منهن اماندا؟ اماندا التي صارت حلماً للكل، ملأ الفضول المكان وكأنه طائر انحشر في مكان مغلق، يتخبط هنا وهناك باحثاً عن منفذ للهرب..
اين انت يا اماندا؟ من هي اماندا تلك؟...
تجاوزت المرأة الركاب الواحد بعد الآخر. تبتسم لهذا لكي يفسح لها مجالاً

للمرور، وتعتذر لآخر لانها دهست قدمه، وثالث يبتعد مسرعاً لانه يرغب في معرفة اماندا اسكاتا لفضوله..
تصل المرأة الى مقدمة الباص، ومصابيح شالها تتأرجح ناثرة نور فرحتها على الناس..
- سمعني الكل الا انت يا اماندا.. يا الهي..
يعلق احدهم:
- ربما ماتت اماندا..
يضحك البعض لهذا التعليق ويبقى آخرون غريقي فضولهم.. وسؤال يزحم هواء الباص: اي منهن اماندا..
راكبة تعلق: افسحوا لها المجال من فضلكم..
يكمل السائق بعد ان توقف الباص في احدى محطاته:
- هل ستنزل اماندا، صاحبة الصوت؟
انشغل الكل باماندا، اصبحت همهم وكأنهم يعرفونها منذ زمن بعيد، انفعل البعض، وعلق آخرون، الا اماندا التي لم تصدر اي حركة أو صوت يدلل على كونها (اماندا).
وقفت ذات المصابيح المتأرجحة امام احد المقاعد الامامية، وامسكت بكتف شابة سوداء، نظرت في عينيها وقالت:
- اماندا.. الا تعرفينني؟ انا جيني..
تنكمش الفرحة على وجه صاحبة الشال، تقف مذهولة امام اماندا، يبدأ صوتها بالخفوت ثم يتحول الى همهمة:
- اماندا.. جيني.. انا جيني.
نهض رجل جلس قرب اماندا، امسك بيد ذات المصابيح المنورة على شالها وقال:
- هذه ليست اماندا يا سيدتي! انها نيكول!
تنظر الى عينيه مستغربة.. ترتعش شراشيبها انفعالاً.. تتفوه بكلمة لم يسمعها احد.. تفتح فمها ثم تغلقه.. تطلق آهة موجوعة وتقول:
- انها اماندا.. انا اعرفها، أعرفها جيداً.
يبتسم الرجل ويقول بحزن:
- ربما.. ربما.. الا انها نيكول.. اسميناها نيكول.
ترد عليه بانفعال:
- اسميتموها نيكول!
تجوب نظرات حرجة في عيني الرجل، يتطلع في عيون الركاب التي استقرت عليه، فيحس وكأن هجوماً شن عليه. تعود نظراته الى وجه المرأة الذي اكتسى حزناً وحيرة، ولم يرَ الناس الا علامة استفهام استقرت على هذا

الوجه الداكن.
- انها نيكول.. ربما كانت اماندا.. لا استطيع ان اقول اكثر من هذا.. اعذريني يا سيدتي.. يأتي صوت السائق جزعاً:
- اكاد انسى اسمي انا الآخر.. هيا استعجلوا النزول لطفاً..
تنزل المرأة التي تركت لهفة صوتها في الباص.. وتخلف احباطاً وحيرة في نفوس الركاب.. واسئلة تتقاطع في مساحة صغيرة:
- اهي اماندا أم نيكول؟.. تتكور الاسئلة وتكتظ كزحمة السيارات في شارع رئيسي.. ولكن اي جواب سيلغي هذا التكور..
ينطلق الباص ومن خلف الزجاج المضبب بدفء الانفاس، تبقى على الرصيف امرأة اربعينية داكنة اللون ترتعش من البكاء شراشيب شالها الملونة وكأنها مصابيح ملونة ومطفأة.

لندن ١٩٩٤/١١/١



نحت للفنانة دلال المفتي

شعر

لاءات نافيه

كه زال احمد

لا وجود

آه.. ليت الوجود جوزة
لكسرّت القشر دون رحمة
وتمتعت باللب الذيذ
ولكن ماذا تصنع ل«وجود»
تراه ابهى من زهرة الكون المقطوفة؟
تجلس امامها
تفكّر بذبولها ما دامت نضرة.
وحين يعتريها الذبول تفكر بموتها
وحين تموت تفكر بنهاية العمر
ونهاية التفكير
آه.. ليت الوجود قنديل لاطفأته بنفخة واحدة.
ليت اللاوجود هو الموت
لكنت الآن بين الموتى
فلعل التآلف مع الموت
اهون كثيراً من التآلف مع الحياة
ليس ثمة يخلّف الموت
لكن الجميع يخلّفون الحياة
آه! ليت الوجود هو اللاوجود
ليت اللاوجود هو الوجود

لا حب

السحب لا تحب السماء

لانها قادرة ان تندي الارض بالمطر
المطر لا يحب الارض
لانه قادر ان يصير بخار
يمضي
ويطير
الشمس لا تحب الانسان
لانها تغادره كل مساء
القمر لا يحب الانسان
لانه يرضى الغياب عنه كل يوم
والله لا يحب الانسان
لانه طرده من الجنة
وانت ايضاً لاتحبني
لانك قادر ان تعيش بدوني
ترحل...
فتنسى
ومكمن المأساة
ان الانسان لا يحب الانسان
وإلا كيف يستطيع...
ان يموت...
ان يقتل..
ان ينام ويزعل!

نشاز

صوت المستبدين ونظرات اللصوص
حرب الساسة وسيما المأجورين
انها نشازات عالمنا
ما ان تنتهي
حتى يبدأ عزف سيمفونيا الحياة

لا بـد

قال لي:
شهرزاد!
دعي لعبة الحكايات
لا بد ان اقتلك!

ترجمة مصطفى صالح كريم
السليمانية ١٢ آب ١٩٩٤

«إشارات عراقية»
من الشمال الأفريقي

كاظم عيدان

في احتفال بهيج ارسل الفنانون العراقيون اشاراتهم ضمن معرض أقيم في العاصمة الليبية لمدة عشرة ايام مددت لإسبوع آخر.
في البداية تتوارد على ذهن المتوجه الى معرض اشارات عراقية اسئلة كثيرة... أي الإشارات اتفق عليها الفنانون الثلاثة وما الذي جمع بينهم؟ هل هو معرض لوحدة الرؤى والاساليب أم تنوعها؟
لقد ضم فضاء دار الفنون في طرابلس ستاً وثلاثين لوحة تقاسمت اعمال الفنانين بالتساوي. يلجأ يحيى الشيخ الى الكرافيك مستعيناً بذاكرة العشب التي عنون بها لوحاته: عالم النبات والماء.. اوراق متدلية ذابلة وعشب يمتد احياناً كأيد تستغيث أو تومىء. واذا كانت اللوحات تحاول الاختفاء والتمترس خلف عناوين منتقاة (قطيع الغيوم، الملكة السوداء، قمر خارج السماء، مواسم الانوثة، السحابة التي سرقت لون البحر) فان الحنين لعالم الطفولة والشباب والوطن يشدّ الفنان الى الماضي فيستعيد تفاصيل بيئية... كانت اللوحات تمنح المشاهد دفعاً للتعاطف مع بيئة تتعرض للتدمير وكادت همومنا الأكبر وغربتنا ان تطغي عليها فننساها. في لوحات يحيى الشيخ اقتصاد في اللون مع تغيير في التشكيلات ما بين لوحة وأخرى وتكرار المفردة الواحدة بأوضاع مختلفة.
ان المتابع لأعمال قاسم الساعدي (خصوصاً في معرضه الذي اقامه قبل مدة في المركز الثقافي الفرنسي في طرابلس ومشاركته في باريس مع مجموعة

من الفنانين التشكيليين) يلاحظ ذلك الشغف الذي يصل حدود الهوس باللون واللعب البصرية.. انه يحاول ارسال رسائله وبث احساساته عبر تلك الألوان المتعددة، مستخدماً كل ما في البقع اللونية من امكانيات. وهو إذ يعتمد في التركيب اللوني للوحة على القوة اللونية والضوئية للألوان، فانه يضيف لها التشكيلات الهندسية في تحطيم عالم اللوحة الواحدة. فلم يدع الفنان وسيلة إلا واستخدمها في محاولة لبعثرة البؤرة الرؤية للمشاهد، منها استخدام الخطوط والحروف القديمة والسطر المعكوس ودوائر ومثلثات ورسوم حيوانات اثرية.. ان عالم اليوم الذي يعج بالفوضى قد انعكس على اللوحات بحيث ان المشاهد يحتار في اللعبة التي يحاول الفنان ادخاله فيها، أي استخدام اللااسلوب في الوصول الى الأسلوب، واللامعقول في الوصول الى المعقول.

مع ذلك فان لوحات قاسم ليست بقعاً فنية خالية من المحتوى، بل هي تعبير عن عالم الفنان وعن تلك المعاناة الداخلية. فلوحات «السماء قريبة وبعيدة ارضي» و«آه يا أمي العزيزة» و«حرائق» و«يوميات» و«الشمال الأفريقي» تظل معبرة عن كل الحنين للوطن وعن الغربة التي تنهش الروح وتأكل الجسد.

تزاوجت اعمال الفنان حسام الدين بين الرسم والنحت، واحتلت معاناة الانسان المساحة الكبرى من اعماله. وهنا تمثلت الإشارات العراقية بشكل واضح وجلي بذلك الموروث الحضاري الذي وضعه الفنان اساساً، مستفيداً من الفن الآشوري وما سبقه وتلاه على ارض وادي الرافدين. إذ ان تفاصيل الوجوه واشكال العيون ووضعيات الأطراف تظهر ذلك التأثر الكبير.

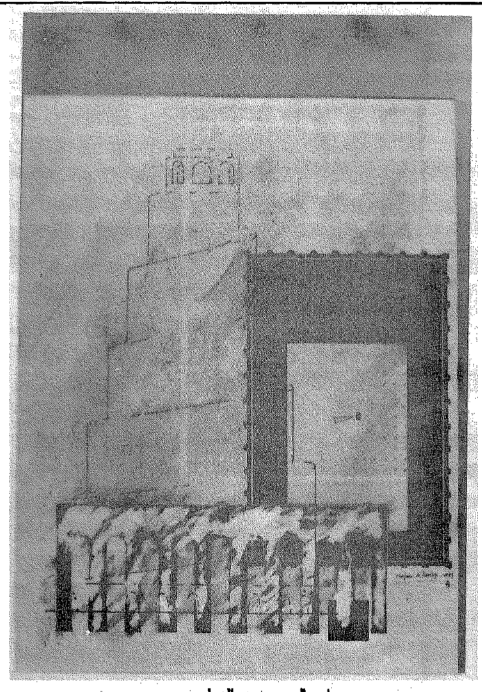
ان الجسد الإنساني، وهو يتشكل وينساب في اعمال الفنان يعبر عن عمق المعاناة الإنسانية، تحت مختلف ضغوط القهر والعسف، ويدفع المتلقي للتفكير في تلك الشخوص المطحونة.

لقد اتسمت اعمال الفنان بتقشف اللون المتأتي من ضرورات العمل، إذ انه وقع في خيار العمل النحتي الذي يتطلب تنوع التقنيات والمعامل التي يصعب إيجادها في واقع فقير من جانب وما بين الحركة ضمن الأدوات الموجودة.

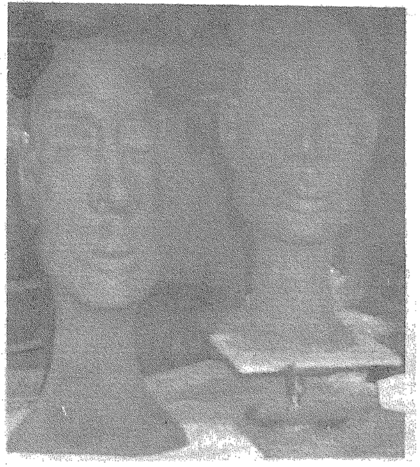
لقد كان الاختلاف جلياً وواضحاً في الاساليب والرؤى وتلك نقطة لصالح العمل المشترك. ولكن السؤال يبقى: ما الذي جمع بين الفنانين الثلاثة؟ الجواب نجده في دليل المعرض حيث نجد اولئك الذين كسا الشيب مساحات واسعة من شعر رؤوسهم ولحاهم ينتحبون حنيناً لامهاتهم (لأمي التي تناكفها الأبجدية، المتوشحة بالأسود الأبدي - قاسم الساعدي) (لم أرسم امرأة غير أمي... يحيى الشيخ). انه الحنين للوطن لذلك العراق العجيب.

ان الالتزام بالمسيرة الإبداعية للفن العراقي وشعور الثلاثة بانهم ورثة شرعيون للاسلاف، الذين ابتدأوا شق الطريق رغم الظلم والخطورة، قد حفز

لاقامة هذا المعرض، كما ان الحرفيـة العالية بمعناها الايجابي قد مسـحت الـخوف من ان يغطي احدهم على الآخر.
واخـيراً ففي مناخ ثقافي ـ تشكيلي، كما هو في طرابلس، ان تجد زحاماً ولا تجد موطئاً لقدم، فتلك شـهادة في صالح المعرض، واعـتراف بالفن التشكيلي العراقي.



من اعمال ميسون الدملوجي



نحت للفنانة دلال المفتي

الاشتراك السنوي

50 دولاراً أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حواله مصرفية
الى رقم الحساب 42-467127
Ani Hamed Ayoub
Banque Libano-Francaise
Bar Elias-Lebanon
أو يدفع الى رئيس التحرير

المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة
سوريا – دمشق
ص. ب 7122
تليفون وفاكس 4449724



السعر خمسة دنانير